



الندوة العلمية الدولية الثامنة  
بعنوان:

السَّلَامُ الْمَدِينِيُّ فِي السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ  
مَقَوِّمَاتُهُ وَرَبْعَائُهَا الْخَصَائِرُ

عقدت في رجب  
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

٢٨-٣٠ رجب ١٤٣٨ هـ

٢٥-٢٧ أبريل ٢٠١٧ م

(الجزء الثاني)

## قواعد النشر

حرصاً على تحقيق أهداف الندوة، والسعي نحو إنجاحها ببحوث متميزة تتسم بالأصالة والموضوعية والإضافة المعرفية، التزمت الأمانة العامة في تقييم الأبحاث على القواعد الآتية:

- ١ - أن يتسم البحث بالجددة والأصالة والعمق، والسلامة اللغوية، والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في البحوث العلمية، وتجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.
- ٢ - أن تتضمن مقدمة البحث الجديد الذي أضافه الباحث على الدراسات السابقة، والإشارة إلى بعض النماذج من ذلك.
- ٣ - أن يكون البحث واضح الصلة بالأهداف المعلنة للندوة، ضمن محور من محاورها.
- ٤ - ألا يكون البحث قد نُشر من قبل أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه درجة علمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٥ - أن تكون الأدلة المذكورة موثقةً بالتخريج من المصادر الأصلية، ومبيّنةً درجة قبولها إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٦ - عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة، مع توضيحها في الحاشية عند أول ذِكْرٍ لها.
- ٧ - عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به، وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٨ - أن تُثبَّت قائمة المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث، مرتبةً على حروف المعجم.
- ٩ - ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعةٍ للكتاب الواحد.
- ١٠ - ذكر نتائج البحث وتوصياته.
- ١١ - أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٢٥) إلى (٣٥) صفحة.
- ١٢ - يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه، وإرسالها في الموعد المحدد.





## فهرس الجزء الثاني

الجلسة الثالثة	
٧	التعددية والسُّلم المدني أئموذج التعايش السُّلمي في عصر النبوة . د. نجة محمد عبدالله المرزوقي - كلية الدراسات الإسلامية والعربية - الإمارات العربية المتحدة .
٤٧	الشَّائعات وأثرها في تهديد السُّلم المدنيّ وطرق معالجتها؛ دراسة في ضوء الهَدْيِ النَّبَوِيِّ . د. ماريه بسام محمد عبابنه - جامعة الحدود الشمالية- المملكة العربية السعودية .
٩٥	السُّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة المنورة: القيم، المقومات، والأبعاد . أ. خديجة بوسبع - المملكة المغربية .
الجلسة الرابعة	
١٥٣	المُشترك الحضاري وأثره في تعزيز قيم التَّعايش، قراءة من خلال الحديث النبوي الشريف . أ. د. إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان .
١٩١	الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقاتها، وأثر ذلك على السلم المدني . د. صالح عبدالكريم - جامعة الجميرا - دبي - الإمارات العربية المتحدة .
٢٣٣	وثيقة المدينة: نحو تأسيس مبادئ السلم الاجتماعي والتعايش الديني . د. بُوْعْبِيدَ الازدهار - جامعة السلطان مولاي سليمان - المملكة المغربية .

الجلسة الخامسة	
٢٧٧	إفشاء السّلام وأثره في شيوع السّلم المدني . أ. د. ياسر أحمد الشمالي - جامعة الكويت - الكويت .
٣٠٥	الشعور بالغَبْن ومنهجية الهدى النبوي في التعامل معه ، قسمة غنائم حنين أممؤذجًا . د. محمد أبو بكر عبد الرحمن الرحمنو - جامعة الطائف - المملكة العربية السعودية .
٣٥٧	رعاية حقوق الحاكم في السنة النبوية وأثرها في المحافظة على السّلم المدنيّ . أ.د. إسماعيل كاظم العيساوي - كلية الشريعة - جامعة الشارقة .
الجلسة الختامية	
٣٩٥	كلمة الأمين العام للندوة .
٣٩٨	قراءة التوصيات .

التعددية والسّلم المدني  
أنموذج التعايش السّلمي في عصر النبوة

د. نجاتة محمد عبد الله المرزوقي







## تمهيد

اللهم لك الحمد أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام،  
وأفضل الصلاة والسلام على خير الأنام، وهادي البشرية لدار السلام، محمد  
بن عبدالله وعلى آله والأصحاب، ومن احتذى حذوهم، واقتفى أثرهم إلى يوم  
المآب.

وبعد،،

فإن التعددية<sup>(١)</sup>، مصطلح يطالعنا منذ عهود قريبة لم يكن معروفا من قبل،  
وهي تشكل ظاهرة في كثير من المجتمعات، سيما في العصور المتأخرة التي  
شهدت انفتاح العالم على بعضه، وسهولة تنقل البشر بين الدول والقارات،  
ومن ثم الاستقرار في أماكن لا ينتمون لها أصالة، وأيضا من خلال تطور مفهوم  
مشاركة الأفراد في مجتمعاتهم في النواحي السياسية والاقتصادية وغيرها، كل  
هذه العوامل وغيرها شكلت هذه الظاهرة.

فهل هي ظاهرة غير صحية تشير لوجود حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي  
والسياسي في المجتمعات والدول؟ أم أنها بخلاف ذلك ظاهرة طبيعية متلازمة  
مع وجود البشر، ومع تكوينهم، وأصل خلقهم، وطبيعة للأمم والشعوب لا  
تنفك عنها؟

إن الناظر في تاريخ الأمم منذ بدء نشأة فكرة التجمعات البشرية في نطاق

١- في اللغة: تعدد: صار ذا عدد، وهم يتعددون: على ألف يزيدون. المعجم الوسيط، مادة (عدد)،  
(٢/٥٨٧).

جغرافي محدد، يجد أنهم يشكلون مجتمعات متميزة، ولكنهم ضمن إطار المجتمع الواحد تتكون بينهم قوانين وأعراف وأسس تنظم علاقاتهم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، ويرى أن التعدديات بينهم كانت معروفة، بل ومتلازمة في كثير من الأحيان مع فكرة التزاوج الحضاري بين تلك التجمعات البشرية من خلال احتكاكهم بالسفر والترحال، والتجارة، والحروب وغير ذلك.

بل إن التعدديات تأخذ بعداً أكثر عمقا إن نظرنا إليها باعتبار الاختلاف بين البشر؛ فهماً، وإدراكاً، وميلاً للأخذ بأحد خيارات الحياة على الصعيد الفكري، والمذهبي، والديني، وغير ذلك.

ولذلك فإن البحث الذي تقدمه، نحسب أنه جاء في الظرف المناسب، فهو يعتبر محاولة جادة لاستلهام التصور الإسلامي الصحيح لقضية من أهم القضايا وأكثرها جدة وخطورة على الساحة العالمية عامة، والإسلامية خاصة، ذلك أن الحاجة اليوم تشتد في هذه اللحظة التاريخية من محاولات عولمة العالم، وفتح أسواقه التجارية، واقتحام ساحاته الثقافية، وإسقاط الحدود والسدود الجغرافية، والسياسية، والسيادية بل والثقافية والفكرية، واستبدالها بالعولمة الثقافية والتجمعات الاقتصادية، وإقامة التحالفات والمعاهدات الاقتصادية والسياسية، ومحاولات البناء المشترك الإنساني، في هذا المناخ الثقافي السياسي الاقتصادي الاجتماعي، تشتد الحاجة إلى العودة لدراسة التراث لاستلهامه، وطلب إجابته عن أسئلة الحاضر، ومآلات المستقبل، وبخاصة من خلال السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فهي بما تحويه من تفاصيل وزخم كبير من السنة العملية، والقولية المروية عن قائد الأمة الأول - محمد صلى الله عليه وسلم - الذي استطاع بفضل الله تعالى أن يغير موقع العرب ومكانتهم، وتأثيرهم في العالم في فترة زمنية معجزة لا تزال محط الدراسات التي تحاول استلهام خطوط

نجاحها الباهر، قادرة على الإجابة عن الأسئلة المبهمة، وتقديم الحلول العملية، وأدلة التعامل مع الإشكاليات في كل زمان ومكان<sup>(١)</sup>.

أما الدراسات السابقة حول موضوع هذا البحث، فإني وقفت على بعض المراجع الهامة التي تناولت معالجة الإسلام معالجة عامة لظاهرة التعددية في المجتمعات المسلمة، ومنها:

- التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، محمد عمارة.
  - الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي، عبدالعظيم الديب.
  - فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي، عبدالمحسن شعبان.
- الورقة التأسيسية، عبدالله بن بيّه. ضمن الكتاب التوثيقي لأعمال الملتقى الاول لمنتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ٢٠١٤ م.

التسامح والصفح - دراسة مقارنة في الفكر الاسلامي والغربي، عبد السلام ابراهيم البغدادي - مؤتمر التعايش السلمي في العراق - الواقع والمستقبل.

بحث: التعددية والسلم المدني، حالة العراق. د. عبدالعظيم جبر حافظ.

ولكن معالجة ظاهرة التعددية وربطها بالسلم المدني في المجتمعات المسلمة، وبتطبيقاتها ومظاهرها العملية في عصر النبوة بشكل خاص، هو الذي حاول هذا البحث أن يوضح معالمه توضيحاً جلياً، ويجعله أنموذجاً يحتذى للقياس عليه، وتطبيقه في المجتمعات المسلمة المعاصرة لقابليته لذلك، فهو ليس مجرد تنظير بعيد عن الواقع، بل هو الممارسة الحقيقية التي أدهشت العالم قديماً وحديثاً.

---

١- انظر: مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنه، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، كتاب

الأمة، العدد (١١٠)، ٢٠٠٥م، ١٤٢٦هـ، (١٩-٢٠)

إن الإشكالية التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها هي: كيف استطاع الإسلام في عصر نبيه صلى الله عليه وسلم من خلال المأثور القولي والعملي أن يوازن بين الحفاظ على السلم في نسيج المجتمع المسلم، وأن يدعو إليه، ويرعى مكتسباته، برغم وجود التعددية فيه؟ وهل هناك خصوصية في النموذج الذي مثله المجتمع المسلم في المدينة؟ أم أنه أمموزج جدير بالعالمية، وبالديمومة، والانتشار بغض النظر عن الأديان، والأعراق، والانتماءات؟

### المبحث الأول: إضاءة على المفاهيم.

بين يدي هذا التأصيل العلمي لهذا البحث الذي يتناول معالم التعامل النبوي مع التعدديات في عصر النبوة، يجدر أن نمهد لذلك بيانا للمفاهيم، وتوضيحا لدلالات المصطلحات، وما يتعلق بها من مفاهيم، منعا من الخلط أو إبهام المراد.

#### مطلب أول: مفهوم التعددية:

تطالعنا الكثير من التعريفات الاصطلاحية المتباينة للتعددية، والتي تعرفه بأنظار مختلفة، فنجد أنها تعرف اجتماعيا بأنها: «تعدد أشكال الروح الاجتماعية في نطاق كل جماعة، وتعدد الجماعات داخل المجتمع وتعدد المجتمعات نفسها»<sup>(١)</sup>.

ومن وجهة النظر السياسية تعرف بأنها «وجود مؤسسات وجماعات غير متجانسة في المجتمع المعاصر يكون لها اهتمامات دينية واقتصادية وإثنية»<sup>(٢)</sup> وثقافية متنوعة»<sup>(٣)</sup>.

١- معجم المصطلحات الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، ٣١٧.

٢- معنى الإثنية: أي: العرقية، وهي مجموعة بشرية لها خصائص مميزة تحددها الثقافة المشتركة والهوية، وهي تربط أعضائها مع بعضهم بعضا، عادة على أسس مشتركة. ولها اعتراف الآخرين كمجموعة متميزة لها أسس مشتركة ثقافية ولغوية ودينية، أو سمات سلوكية أو بيولوجية. انظر: قاموس المصطلحات القانونية، ٢٥٠. وموقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: <https://ar.wikipedia.org>

٣- معجم المصطلحات السياسية، علي الدين هلال ونيفين سعد، ١٠٩.

وفي المحصلة فإن التعددية المقصودة في هذا المقام يقصد بها: تعدد الجماعات الاجتماعية التي تتبنى مفاهيم متميزة للواقع وحقائقه وللمستقبل، وهي كذلك تنوع في المجتمعات قائم على تمايز وخصوصية في داخل إطار عام من الوحدة التي تضم ذلك التنوع في إطار جامع، ويقصد بها أشكال من الاختلافات بين البشر في الأعراق، والأديان والثقافات وغيرها. والتي تؤثر على لحمة النسيج البشري الذي يتعايش مع أفراده في الوطن الواحد<sup>(١)</sup>.

مطلب ثان: طبيعة التعدديات:

إن التعددية بالمعنى السابق ظاهرة ملازمة لكل مجتمع بشري، ولكنها ليست بمستوى واحد في جميع المجتمعات، إنما تتفاوت بتفاوت الرابط أو الجامع الذي يظل وحداتها وأفرادها، فعلى المستوى العالمي، نجد تعددية الحضارات، والقوميات، المؤسسة على تعدد الشرائع والمناهج والفلسفات واللغات، وبينها جامع الاشتراك في الإنسان الذي لا تمايز فيه ولا اختلاف، وعلى مستوى الحضارات، نجد تعددية المذاهب والمدارس الفكرية، والتيارات السياسية، وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

فنستطيع أن نقسم التعدديات باعتباريات مختلفة، ومن ذلك:

أولاً: تعددية هي من طبيعة المجتمعات، وهي تنشأ بسبب طبيعة الاختلاف الذي جبل الله عليه البشر. والإسلام قد أكد على أن التعددية بهذا المفهوم ظاهرة طبيعية ملازمة للمخلوقات، ووجودها سنة من سنن الله في الحياة، وهذا يتضح في عدة مظاهر للتعددية منها:

١ - ينظر: التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، محمد عمارة، ٣، وبحث: أسئلة التعددية والتنوع في الفكر السياسي المعاصر، ١٦.

٢ - التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، محمد عمارة (٣-٤) - بتصرف.

١- تعددية في «القوميات والأجناس»، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُورَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).  
تعددية بين «الشعوب والقبائل» يدعو الإسلام إلى توظيفها لإقامة علاقات تعارف بين المختلفين، يقول تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

٢- وهناك تعددية في خصوصية الحضارات، وجعل الاختلاف بينها أمراً محتملاً لحكمة أرادها الله عز وجل، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: ١١٨)، وهي الحافز على المنافسة والاستباق في ميادين الابداع والتقدم، يقول تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِبًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَفِهُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: ٤٨).

وهناك تعددية الشرائع، تحت مظلة الدين الحق، فنجد أن الإسلام يؤكد على أن الذين جمعتهم أصول الإيمان بالله وحده، وباليوم الآخر، والعمل الصالح، هم من الناجين الذين لا خوف عليهم. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢). وفي نفس السياق نجد السنة تؤكد على وحدة الدين، رغم اختلاف شرائع الأنبياء عليهم السلام، يقول صلى الله عليه وسلم: «وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ<sup>(١)</sup>، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»<sup>(٢)</sup>.

- ١- لعلات: لأمهات متعددات والأب واحد، «وسميت ضرة المرأة علة لأنها تعلق بعد صاحبها، أي: ينتقل الزوج من إحداها إلى الأخرى كالعلل في الشرب بعد النهل». غريب الحديث، الخطابي، ١٦٠ / ٢.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب قول الله ﴿وَأَذَكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيْمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، حديث رقم: ٣٤٤٣.

٣- وحتى في إطار الشريعة الإسلامية، فإن التعددية التي تتمثل في الاختلاف الفقهي والمذهبي في فروع الشريعة بناء على اختلاف الاجتهادات والنظر في الأدلة، كان مسوغا ومحمودا، ولا نبالغ إذا قلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم خطأ أبعد من مجرد الإقرار على مثل هذا الاختلاف، كما فعل في إقرار الصحابة جميعهم على اجتهادهم، عندما طلب منهم ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فنفذ كل فريق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق اجتهاده وما فهمه من أمره عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>. فنجد في السنة النبوية ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحث أصحابه على الاجتهاد وبذل الرأي بالشورى في قضايا مهمة، مثل مشاورتهم في أسرى بدر، و مشاورتهم في غزوة أحد في البقاء في المدينة أو الخروج للقاء العدو. وهذا يعد تشجيعا منه على توليد الآراء المختلفة، ليستفاد من أحسنها وأقربها نفعا.

ثانيا: تعددية يوجد بها البشر أنفسهم باختيارهم الانتماء إلى أحزاب أو تكتلات سياسية، أو باختيار فلسفات اقتصادية متباينة، وهي تهتم بالدرجة الأولى بالتأثير على العملية السياسية في المجتمع.

وهذه الصورة من التعددية ظهرت ظهورا واضحا في العصور المتأخرة التي بدأت الحركة السياسية فيها تغلب على اتجاه بعض التيارات الدينية، أو اللادينية، وتديرها، وهي تهدف للسماح بالتعبير بحرية، بطرق سلمية لكل التيارات السياسية، والمشاركة الفاعلة، والتعبير عن ذاتها<sup>(٢)</sup>.

---

١- ينظر الحديث بتمامه في: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب صَلَاةِ الطَّلَبِ وَالْمَطْلُوبِ رَاكِبًا وَإِمَاءً، حديث رقم: ٩٤٦.

٢- ينظر: بحث: التعددية السياسية في المجتمع الإسلامي بين الاختلاف المشروع والتفرق المنوع، مراد رايق عودة، مؤتمر: التعددية وحق الاختلاف من منظور إسلامي ودور الجامعات في تنمية ذلك، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠١٢م، ٦٧.

والتعددية ظاهرة ككل الظواهر الفكرية، لها وسط متزن معتدل، ولها طرفا غلو، إفراط و تفريط . وإنما كان تحقيق هذا التوازن في المجتمعات هو الفارق في نجاحها في التعاطي مع التعدديات فيها أو لا، وكان هو أحد أسباب سمو المجتمع المسلم، وانبلاج شمس حضارته في مدة زمنية معجزة .

### مطلب ثالث: السُّلم المدني:

إن السُّلم<sup>(١)</sup> في أبسط أشكاله ومفاهيمه هو المصالحة التي تأتي في مقابلة حالة الاضطراب وعدم الاستقرار، سواء على الصعيد الداخلي-النفسي- للأفراد، وحتى الصعيد العالمي بين الدول والمجتمعات.. لذا فإنه يمكن تعريفه بأنه: حالة الطمأنينة النفسية، والروحية، والسكينة التي تسود بين أفراد المجتمع، ثم تنعكس على العلاقات بين الأفراد والجماعات، فيكون السُّلم الاجتماعي حالة من الوفاق تضمن المحافظة على الكليات الخمس ومكملاتها: الدين، والنفس، والأموال، والأعراض، والعقول<sup>(٢)</sup>.

أما السُّلم المدني<sup>(٣)</sup> بمعنى أخص<sup>(٤)</sup> فيطلق على: إشاعة ثقافة السلام،

- ١- السلام والسُّلم في اللغة: البراءة، والنجاة، والانقياد، والمصالحة، وكل هذه المعاني متضمنة في المعنى المراد هنا بالسُّلم، فهو براءة ونجاة من العنف والأذى، وهو انقياد للحق، وأكثر المعاني اللغوية ظهورا فيها معنى المصالحة، فهي مصالحة مع النفس والناس والخالق تعالى، يقول تعالى: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" (الأنفال: ٦١). ينظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، ٣ / ٩١، والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، ٥١٢ / ٨ وما بعدها. المعجم الوسيط: مادة (سلم): (٤٦٦).
- ٢- بحث: الورقة التأطيرية، الكتاب التوثيقي لأعمال المنتقى الاول لمنتدى تعزيز السُّلم في المجتمعات المسلمة، عبدالله بن بيّه، ٢٩. - بتصرف-.
- ٣- (المدني): مدن بالمكان: أقام. وكل أرض يبني بها حصن في أُصْطَمَّتْهَا فهي مدينة، والنسبة إليها مدني. والمراد بها هنا المجتمع الذي يعيش على أرض وحدود مشتركة. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ٣٥٨ / ٩. ولسان العرب، ١٣ / ٤٠٢، وتهذيب اللغة، للأزهري، ١٤ / ١٠٣.
- ٤- ذلك أن كلمة «المدني» تحدد نطاق البحث في السُّلم ليكون ضمن نطاق المجتمعات ذاتها، أي في نطاق تفاعل الأفراد المنتمين لها، سواء كانوا متجانسين (إثنيا ودينيا وثقافيا وغير ذلك..) أو كانوا يشكلون =



وترويجه، والتسامح، والانفتاح على الآخر، والاعتراف به، عن طريق ثقافة الحوار، وتعزيز عملية قبول الرأي الآخر، وفهم المختلفين فيما بينهم، وتجسير الهوة بين مختلف الأطياف والشرائح الاجتماعية، والاعتراف بالتعددية الفكرية، والسياسية، والدينية، ودولة القانون، والدستور، ورفض جميع أشكال العنف والتطرف في العقيدة والفكر، والممارسات القمعية في المجتمع<sup>(١)</sup>.

### مطلب رابع: التعايش السلمي:

أما التعايش السلمي وهو المراد أصالة من البحث في قضية التعددية وعلاقتها بالسلم المدني، فإن التركيب اللغوي «للتعايش» يشير إلى وجود صيغة تفاعلية؛ تقتضي تبادل العلاقة السلمية بين أطرافها، فيقصد به: الحالة من السلام الشامل التي يرتجى الوصول لها في المجتمعات في ظل وجود التعددية في مكوناته. وبقدر ما هو مطلب ملح ومطروح بقوة على ساحة العلاقات الدولية بين الشعوب، وبخاصة بين الأمم المختلفة التعدديات، فهو أكثر إلحاحا في نطاق المجتمع الواحد، إذ إن الاستقرار وبناء السلام بالداخل يأتي قبل الاستقرار، وبناء السلام الخارجي.

والتعايش السلمي قد يكون بين أهل الملة الواحدة، أو الملل المختلفة، أو على نطاق الدول، أو بين القوى الاجتماعية المختلفة في نطاق الدولة ذاتها<sup>(٢)</sup>.

---

= تعددية في أي جانب من تلك الجوانب. ولا يبحث عن تفاعل المجتمعات مع غيرها، وهو ما يبحث في العلاقات الدولية. انظر: التسامح والصفح- دراسة مقارنة في الفكر الاسلامي والغربي، عبدالسلام إبراهيم البغدادي، ١٤.

١- بحث: التسامح والصفح- دراسة مقارنة في الفكر الاسلامي والغربي، عبد السلام ابراهيم البغدادي، - بتصرف- ١٩.

٢- ينظر: بحث، القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية، عبد العزيز العوضي، ٤-٨.

## المبحث الثاني: مظاهر سلمية المدينة في الدولة الإسلامية الأولى.

قامت الدولة الأولى في الإسلام على مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية بين الحاكم قائد الدولة، والمحكومين الذين ينضون تحت مظلة الحكم الإسلامي، على اختلاف قبائلهم ومستوياتهم الاجتماعية، بما مثل دليلاً واضحاً على احترام تعدديات المحكومين في مقابل احترام القائد المبايع، والتزام الطرفين بالعهد والميثاق المبرم بينهما. وقد مر هذا المبدأ بمرحلتين:

مطلب أول: مرحلة التحضير لقيامها (بيعة العقبة الأولى والثانية):

وتم ذلك بالتفاوض والتعاقد مع وفد يثرب في موسم الحج، وقد انتهت هذه المرحلة بعقد بيعتي العقبة الأولى، والثانية. وذلك أنها لم تكن بيعة على الإيمان بالله ورسوله فحسب، بل تضمنت ميثاقاً اجتماعياً يعد الأول لضمان ولادة الدولة على أساس المسؤولية المشتركة بين القائد -أو رئيس الدولة- وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، والوفد الذين بايعوه من يثرب وهم الأوس والخزرج، فنصت البيعة الأولى كما رواها الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -وكان من المشاركين في هذه البيعة الجليلة- قال: «كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْعُقْبَةَ الْأُولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَبَايَعَنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ الْحَرْبُ عَلَيَّ أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتَلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ»<sup>(١)</sup>. وهي كما يظهر كانت تهدف لترسيخ قيم الإسلام في نفوس متبعيه

١- أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ٢٣١٩٦. وهو حديث صحيح ورد نحوه في البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وبيعة العقبة، حديث رقم:

الأوائل في المدينة، مع الدلالة على ضرورة طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، واتباعه في المعروف.

ثم كانت البيعة الثانية، قال جابر رضي الله عنه: «.. فقلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَامَ نُبَايَعُكَ؟ قَالَ: تُبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يَقُولَهَا لَا يُبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَنَّهُمْ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، وَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ»<sup>(١)</sup>.

ويتضح في هذه البيعة خاصة مبدأ المسؤولية الذي يتحملة المجتمع الذي يحتضن النبي صلى الله عليه وسلم؛ بوصفه قائدا للأمة. كما أن النصره والمنعة المطلوبة ما هي إلا ترسيخ لمفهوم المسؤولية المشتركة بين الحاكم والمحكوم.

**مطلب ثاني: مرحلة التنظيم بعد التأسيس الفعلي:**

وأول خطوات هذا التنظيم كان بإصدار (وثيقة المدينة) المشهورة عند قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة<sup>(٢)</sup>.

وقد لفتت هذه الوثيقة أنظار غير المسلمين، إلى النظم التي بنيت عليها الدولة الإسلامية الأولى، في التفاتة هامة إلى كونها من أقدم الوثائق التاريخية التي فيها

١- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ذَكَرَ وَصَفَ بَيْعَةَ الْأَنْصَارِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ بِمَنَى، حديث رقم: ٦٢٧٤.

٢- انظر نصها في: الروض الأنف ٢ / ٣٤٥، السيرة النبوية، لابن هشام ٣ / ٣١، البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٢٧٣. والكلام على تصحيح هذه الوثيقة أو تضعيفها: مما كان محل بحث وجدل، فمن نظر لها من وجهة نظر حديثة بحتة وطبق عليها شروط صنعة المحدثين، لم يسلم له طريق من مقال وضعف، وأما من أخذها عن أهل المغازي والسير الذين عرف عنهم العناية بروايات السيرة وتبعتها، تلقفها بالقبول، واعتبرها بجميع طرقها تصحح نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم.

قوانين منظمة لشؤون المسلمين، وتعاملاتهم مع بعض ومع غيرهم، ضمن إطار الدولة الإسلامية، أو خارجها. يقول المستشرق الروماني جيورجيو: «حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا، كلها من رأي رسول الله خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أي عام ٦٢٣ م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده»<sup>(١)</sup>.

ومن أهم ملامح الدعوة للتعايش السلمي في بنود ذلك الدستور العظيم:

أ- «إنهم -أي: الشعب المسلم- أمة واحدة من دون الناس»<sup>(٢)</sup>. وبهذا البند اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وأنسابهم إلى جماعة الإسلام، فالانتماء للإسلام فوق الانتماء للقبيلة أو العائلة، وبهذا نقل رسول الله العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة، انتقالا من حالة التعددية المضطربة، إلى الاندماج والتعايش بينها في إطار الأمة.

ب- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم كل قبيلة على أحلافها التي كانت عليها قبل الهجرة، يعتبر إقرارا منه صلى الله عليه وسلم على صحتها، وتأكيدا على مبدأ التعددية مرة أخرى، في ظل إطار شامل.

١- نظرة جديدة في سيرة رسول الله، كونستانس جيورجيو، ١٩٢.

٢- الروض الأنف، ٢/ ٣٩٩، السيرة النبوية، لابن هشام، ٣/ ٣٢.

ت- «وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً<sup>(١)</sup> ظُلْمٌ أَوْ إِثْمٌ أَوْ عُدْوَانٌ أَوْ فِسَادٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعِهِمْ، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ»<sup>(٢)</sup>، يعتبر نصاً في جواز ردع الظلم من أي فصيل من فصائل المدينة إذا اعتدي على المسلمين، ولو كان من أبناء المدينة، بغض النظر عن انتمائه الديني أو حلفه وقبيلته. لذلك حُكِمَ بالإعدام على مجرمي قريظة بعد معركة الأحزاب، لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة، وبغوا وخانوا بقية الفصائل، على الرغم من أنهم أبناء وطن واحد!

ث- وهنا أيضاً تأكيد على ارتفاع العهود والمواثيق والالتزامات على الأعراق، والأديان، وغير ذلك، فلا مجال لمجاملة، أو تغاض عن أحد، فالكل يخضع لهذا الدستور.

ج- وجاء فيه: «وَأَنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ»<sup>(٣)</sup>. فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على جميع أفراد الدولة أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجاز المسلم، ولو كان المجير أحقرهم. فيجبر على المسلمين أدناهم، بما في ذلك النساء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأم هانئ: «قَدْ أَجْرْنَا مَنْ

١- (د س ع) (فعل ثلاثي لازم متعد)، دَسَعْتُ، أَدَسَعُ، إِدَسَعُ، مصدر دَسَعٌ، دَسِيعَةٌ، ويقال دَسَعَ الشَّيْءُ، أي دَفَعَهُ. جاء في مقاييس اللغة أن: «البدال والسين والعين أصل يدل على الدفع. يقال دسع البعير بجرتة، إذا دفع بها. والدسع: خروج الجرة. والدسيعه: كرم فعل الرجل في أموره. وفلان ضخم الدسيعه، يقال هي الجفنة، ويقال المائدة. وأي ذلك كان فهو من الدفع والإعطاء. ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في كتابه بين قريش والأنصار: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظُلْمًا»، فَإِنَّهُ أَرَادَ الدَّفْعَ أَيْضًا. يَقُولُ: ابْتَغَى دَفْعًا يَظْلَمُ. (معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، باب الدال والسين وما يثلثهما في الثلاثي، مادة «دسع»، ٢/ ٢٧٩).

٢- السيرة النبوية، بن هشام، كتاب السير والمغازي، ٢/ ٩١.

٣- ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ٢٦٠، السيرة النبوية لابن هشام، ٣/ ٣٣.

أَجْرَتْ يَا أُمَّ هَانِي<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

أ- كما جاء فيها: «وإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأَسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ»<sup>(٣)</sup>.

وهو أصل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين.. فلهم عند خضوعهم للدولة حق النصر على من رامهم، أو اعتدى عليهم بغير حق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها..

د- كما ورد «وإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ»<sup>(٤)</sup>، «وإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»<sup>(٥)</sup>، وهي بنود تؤكد على تنظيم الحقوق والالتزامات، وتحريم الاعتداء والظلم، في إطار العيش المشترك مع طوائف مختلفة دينياً عن المسلمين؛ مثل أهل الكتاب والمعاهدين.

ه- كما صرحت الوثيقة بضمان الأمن لكل مواطن في المدينة ملتزم ببندوها، إلا من خرقها بظلم وإثم، فورد فيها: «وإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ آثَمَ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى»<sup>(٦)</sup>.

ونلاحظ من خلال هذه الاستعراض السريع لبعض بنود الوثيقة أو الدستور الذي كان من أولويات النبي صلى الله عليه وسلم في إنشائه لقاعدة راسخة في

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، بَابُ الصَّلَاةِ فِي الثُّوبِ الْوَاحِدِ مُلْتَحِفًا بِهِ، حديث رقم: ٣٥٧.

٢- بحث: دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية، محمد مسعد ياقوت، <http://www.saaaid.net>

٣- عيون الأثر، ١ / ٢٦٠، السيرة النبوية لابن هشام، ٣ / ٣٣.

٤- عيون الأثر، ١ / ٢٦١، السيرة النبوية لابن هشام، ٣ / ٣٥.

٥- عيون الأثر، ١ / ٢٦١، السيرة النبوية لابن هشام، ٣ / ٣٥، الروض الأنف، ٢ / ٣٤٥.

٦- عيون الأثر، ١ / ٢٦٢، السيرة النبوية لابن هشام، ٣ / ٣٥، الروض الأنف، ٢ / ٣٤٥.

الدولة الأولى التي تظل الإسلام ومن يدين له بالولاء والانتماء، أنها كانت سبابة إلى توضيح مفاهيم متقدمة في السياسة الشرعية التي تكفل السلم.

ولكن ليس المقصود الأصيل هنا هو بيان السبق القانوني أو السياسي المتمثل في هذا الدستور، أو هذه الوثيقة، بل المهم هو كيف تجيب هذه الوثيقة عن أسئلة الحاضر، وتمنحنا الرؤية السليمة للتعايش مع (الآخر)، فلا فائدة في الحديث عن عظمة الإنجاز الرائد، مع وجود العجز عن استثماره في الواقع، فهذا يعد من قبيل جلد الذات، وتكريس ثقافة العجز عن ترجمة هذه الوثيقة وغيرها من العقود والمواثيق، والاجتهاد في كيفية تنزيلها على حاضر الأمة، وصياغة مؤسسات السلم المدني في المجتمع، وتحقيق كرامة الإنسان وحرية اختياره، وعدم إفساد هذه المعاني الإنسانية باجتهادات سقيمة، تحجر الفهم، وتسيره في أزقة ضيقة الحدود، غير محمودة العواقب<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثالث: شواهد سلمية المدنية الإسلامية، في عصر النبوة.

إن سنة النبي صلى الله عليه وسلم تعد موجهاً عملياً للتعايش السلمي، ففيها الكثير من التوجيهات القولية، والآثار العملية لسلوك التعايش الصحيح مع التعددية الدينية، والعرقية، والطبقية، وغيرها، بما يجعلها مصدراً ثرياً بالدلائل الشاهدة على نجاح الأنموذج النبوي في التعاطي مع التعددية في المجتمع المسلم، بكافة أشكالها.

### مطلب أول: شواهد التعامل مع (التعددية الدينية) في السنة النبوية:

وهي تتجلى في كثير من المأثور القولي والعملية الذي يعبر عن حقيقة التطبيق العملي للتعايش السلمي مع الذين لا يدينون بالإسلام، في ظل تعاليم

١ - انظر: بحث: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ١٨

الإسلام وقيمه، ومن ذلك:

أ- اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول<sup>(١)</sup>، قبل الإسلام، وهو حلف أقامته قريش لنصرة رجل زبيدي، قال صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعِيَ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا الحلف دلالات عميقة على جواز التحالف مع غير المسلمين<sup>(٣)</sup> على ما فيه إحقاق الحق، ورد الظلم، وتأكيد الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه لو دعي لمثله لأجاب، إنما هو تأكيد على كل عقلية لا تتسع لفهم سعة هذا الدين، ومفهوم السلام فيه، فهو ينشد للناس جميعا بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية، أو العرقية أو غيرها.

١- فيروى أن رجلاً زبيدياً، قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاصم بن وائل، ولم يدفع له الثمن، فاستنجد الزبيدي فلم ينجده أحد، بل انتهره، فصعد على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديةهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يَا آلَ فَهْرِ لِمَ ظَلَمْتُمْ بَضَاعَتَهُ  
بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ  
وَمُحْرَمٍ أَشْعَثَ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ  
يَا لِلرَّجَالِ وَيَيْنَ الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ  
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ مَاتَتْ كَرَامَتُهُ  
وَلَا حَرَامَ لَثُوبِ الْفَاجِرِ الْغُدْرِ

فاجتمعت قبائل قريش، وتم الحلف، وقال الزبير بن عبد مطلب: «ما لهذا مترك»، أي: لا نتركه حتى نرد له حقه... فاجتمعت قبائل قريش في دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا، وتعاهدوا، على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً، دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلومه... انظر: عيون الأثر، ١ / ٦٨.

٢- أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف عليه، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، حديث رقم: ١٣٢٠٣. الروض الأنف، ١ / ٢٤١. البداية والنهاية، ٢ / ٣٥٧.

٣- انظر: فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي، عبد المحسن شعبان. ٧٩ وما بعدها.



ب- نزوله صلى الله عليه وسلم في جوار المطعم بن عدي بعدما رجع من الطائف<sup>(١)</sup>، وقد كان كافراً، وهذا الفعل يحمل دلالة مهمة على جواز الدخول في جوار غير المسلمين للحاجة، كما أن قوله صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَوَآءِ النَّتَنِ<sup>(٢)</sup>، لَتَرَكْتَهُمْ لَهُ»<sup>(٣)</sup>. دليل آخر على جواز قبول جوار من يجيرهم غير المسلمين؛ ممن لهم يد عند المسلمين وفاء لهم وبراً.

ج- كما أن في الإذن بالهجرة لأرض الحبشة<sup>(٤)</sup>، ليقيم المسلمون في جوار ملكها النصراني العادل، خير دليل على مبدأ التعايش في ظل مبادئ يرتضيها الإسلام لأتباعه؛ من حفظ حقوقهم، وضمان حريتهم، ومعتقدهم، ولو كان ذلك في أرض لا تدين بهذا الدين.

د- صلح الحديبية، وهو يعد من العهود والمواثيق التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع (الآخر) الذي لا يدين بهذا الدين، بل مع الذي ظهر منه العداوة والجور، ترقباً لخير منتظر يترتب على هذه الهدنة. وقد كان في ذلك الصلح من العمق في فهم أبعادها ذات الدلالات السياسية ما خفي على بعض الصحابة آنذاك فأصابهم الغم واهتموا لصرفهم عن البيت الحرام، وقد حمل هذا الصلح تقارير مهمة لمبادئ عظيمة؛ هي أسس لأي دولة تبتغي أن تقتني نهج الدولة الإسلامية الأولى، فهي تقرر مبدأ الحوار والتفاوض،

- 
- ١- السيرة النبوية، لابن هشام، ٢/ ٢٢٥، ومختصر السيرة، لمحمد بن عبد الوهاب، ١١١.
  - ٢- يعني أسرى بدر، و (النتنى) جمع نتن وهو ذو الرائحة الكريهة والمراد هنا النتن المعنوي وهو كفرهم وضلالهم. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، ٥/ ١٤.
  - ٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، بَابُ مَا مَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَسَارَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمَّسَ، حديث رقم: ٣١٣٩.
  - ٤- انظر: تاريخ الطبري، ٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩. سيرة ابن إسحاق، ٢/ ١٥٤، عيون الأثر، ١/ ١٥١. مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد، ١٦٩.

ومبدأ الهدنة والمصالحة، ومبدأ عقد اتفاقيات أمنية متبادلة، وتقرير مبدأ الاعتراف المتبادل والانفتاح على العالم، وتقرير مبدأ مراعاة المقاصد الكلية في السياسة الشرعية<sup>(١)</sup>.

١- تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين في المدينة، من الذين أظهرُوا الإيمان وأبطنوا الكفر، فكانوا مرتدين عن الدين بقلوبهم، مع إظهارهم الانخراط في جماعة المؤمنين، فلم يقاتلهم صلى الله عليه وسلم برغم ذلك، وذلك لأنهم حافظوا على وحدة جماعة الأمة السياسية، وظلوا منضوين تحت لواء الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته. بل نبّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحكمة من ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «دَعُوهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا التعامل النبوي مع قضية النفاق درس مهم للأمة، تتعلم منه أن الحفاظ على وحدة الأمة وسلمها الداخلي من القلاقل والاضطرابات التي قد تؤدي إلى تطورها لفتن خارجية تهدد كيائها وسلمها العام، مقدم على تصفية حسابات مع أفراد يعرف منهم العداة ومخالفة الرأي، ولكنهم لا يزالون في ظل سلطان الدولة وقانونها العام، لم يشقوا عصي الطاعة<sup>(٣)</sup>.

وهذه النماذج المذكورة آنفاً، تعد معالم رئيسة لكيفية التعامل والتعاقد والشراكة والتكامل والتوافق العملي في ظل التعددية الدينية، وذلك يؤكد أن الإسلام لم يعمد يوماً لفصل أتباعه عن غيرهم ممن لا ينتسبون لهذا الدين، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بالتعامل معهم ضمن أطر الحق والعدل،

١- انظر: صلح الحديبية، وأبعاده السياسية المعاصرة، عبدالحكيم الصادق الفيثوري، ٣-٤.  
٢- أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقين، قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، حديث رقم: ٤٩٠٥.  
٣- انظر: التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، ١٠-١١.

وهذا الجانب من التعامل النبوي مع قضية التعددية، يستدعي الاجتهاد والنظر، والتفكير، وإيجاد الصيغ الملائمة لتعامل المسلمين مع غيرهم اليوم، والتوافق معهم على صيغ تعاون، لا يعني إقرارهم على ما هم عليه، فلهم معتقدهم ولا إكراه.

مطلب ثاني: شواهد التعامل مع (التعددية الفكرية) في السنة النبوية:

إن من أهم الدلائل وأوضحها على قبول الرأي (الآخر) ما وجد في سيرته صلى الله عليه وسلم من أخبار صحيحة عن مشاورته لأصحابه رضوان الله عليهم، بل وحثهم وتدريبهم على التفكير وإبداء الرأي، وإن كان مختلفا لكنه يصب في مصلحة الأمة... ولقد توالى الأدلة القولية والعملية التي تؤكد استمرار النبي صلى الله عليه وسلم على المشورة، حتى بلغت حدا جعل أبا هريرة رضي الله عنه يقول: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه. ومن ذلك:

#### ١- مشاورته لأصحابه في معركة بدر:

وكان ذلك في مواطن متعددة في تلك الغزوة:

أولا: قبل الخروج بالصحابة لعير قريش، فروى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا»<sup>(١)</sup>.

وثانيا: لما فاتتهم العير، ونجاها أبو سفيان، وذهب لقريش يستنفرها لحماية تجارتها، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم، أن المشكلة قد تغيرت، فبعد أن خرج

١- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة بدر، حديث رقم: ١٧٧٩.

المسلمون لمواجهة القافلة التجارية التي كان عدد رجالها سبعين رجلاً، إذا بهم يواجهون جيشاً يقوده صناديد قريش قوامه ألف مقاتل، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أن تأمين سلامة المدينة يستدعي أن يجابهه كبرياء قريش، التي بدأت بالزحف نحو المدينة، برغم علمها بنجاة القافلة ووصولها لمكة. ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقدم على ذلك حتى استشار أصحابه، وبخاصة الأنصار، إذ إنهم لما بايعوه بيعة العقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إليها، فأنت في ذمتنا، فممنوع منا أبناً ونساءنا، فتخوف الرسول عليه الصلاة والسلام ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه في المدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم<sup>(١)</sup>، ولكنهم أجابوه لقتال قريش، فقرت عينه صلى الله عليه وسلم بذلك.

**وثالثاً:** لما قبل النبي صلى الله عليه وسلم مشورة أصحابه في موقع ماء بدر<sup>(٢)</sup>.

**ورابعاً:** استشارته صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر، واجتهادهم في حكم هؤلاء الأسرى، فسمع من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومال لرأي أبي بكر رضي الله عنه الذي أشار بقبول الفدية، رجاء هدايتهم. ولكن الله عز وجل أنزل آيات فيها تصويب لرأي عمر رضي الله عنه، وعتاب على قبول الفدية<sup>(٣)</sup>.

والدرس الذي يتصل بموضوعنا من هذه المواقف كلها هو الحكمة في إتاحة الفرصة للرسول صلى الله عليه وسلم ليستشير أصحابه، ويجتهد، وليبين لهم أن المجتهد معرض للخطأ والصواب، ولكن لا خطر عليه من هذا الخطأ، ما دام قد

١- انظر: دلائل النبوة، للبيهقي، ٣/ ٣٤، وعيون الأثر، ١/ ٢٤٧.

٢- انظر: الروض الأنف، ٣/ ٦٢. والسيرة النبوية، لابن كثير، ٢/ ٤٠٢، وعيون الأثر، ١/ ٣٣٢.

٣- انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم. حديث رقم: ١٧٦٣.

بذل الجهد، وأخلص النية.

ففي ذلك تعليم للأمة في كل زمان ومكان أن اختلاف الآراء لا ضير فيه، بل إن الحق قد يكون مع المخالف المظنون خطأه، فقبول الأفكار والتعايش معها تحت مظلة واسعة من رحابة الصدر للرأي والرأي المخالف، هو من أهم أسباب نشر السلام في المجتمعات.

## ٢- الشورى في غزوة أحد:

وكان من شأنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن بها بدلا من الخروج للقاء العدو، وقال: أشيروا علي، وقد أشار عدد من الصحابة بأن يبقوا داخل المدينة، فإن دخلت قريش عليهم قاتلوهم في الأزقة، ورموهم من فوق الصياصي والآطام، وقد كانت المدينة شبه محصنة، وكان هذا رأي كبار الصحابة، وهو رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يعزم عليهم. ولذلك قال بعض الفتيان - ممن لم يشهدوا بدرا، وكانوا يتشوقون للجهاد ليلبوا كما أبلى أصحاب بدر، حيث إنهم لم يشهدوها - اخرج بنا إلى عدونا، وأيدهم بعض كبار الصحابة كحمزة، وسعد بن عباد، والنعمان بن ثعلبة، وغيرهم.

وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي هؤلاء، وعندما لبس لأمته ودرعه، خشى أولئك أنهم استكروهوه، فعادوا إلى رأيه، فأبى صلى الله عليه وسلم بعد أن عزم على الخروج، معللا ذلك أنه ما كان لنبي أن يخلع لأمته بعد أن يلبسها<sup>(١)</sup>.

١- أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب قسم الفيء، تنفل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيفه ذا الفقار يوم بدر، حديث رقم: ٢٦٠٣. قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، وعلق عليه الذهبي في التلخيص بقوله: صحيح. و السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١٢٦-١٢٨، وأورد هذا الحديث الشيخ الألباني، وتتبع طرقه وصححه، انظر: فقه السيرة للغزالي، بتخريج الألباني، ٢٦٩.

وفي هذه المرة تعطي هذه المشورة بعدا جديدا لمبدأ الشورى في الإسلام، فقد نزل القرآن الكريم عقب هذه الغزوة التي كانت نهايتها الدائرة على المسلمين، أمرا بالشورى، يقول تعالى ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ أَتَمُرُّ بِالسُّلْطَانِ بِمَا أَحْسَنَ لَكُمْ وَالْأَقْسَىٰ لِلذِّمَارِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

بهذا النص الجازم «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» يقرر الإسلام أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام إلا على أساسه<sup>(١)</sup>.

لقد كان الإسلام يربي الأمة وينشئها على القيادة الراشدة، ومن أهم دروسها احترام تعدد الآراء، وإفساح المجال لجميع الأفكار أن تشارك في البت في أخطر أمور الأمة (أمر الحرب والسلم)، فالوصاية على الأفكار والعقول لا يربي أمة قادرة على اتخاذ القرارات في أمورها المصيرية.

وإن من حكمة الله عز وجل أن جعل عاقبة الغزوة على المسلمين لا لهم، ففي ذلك درس بالغ الأهمية في احترام الآراء وتقديرها، وفي سبيل ترسيخ مبدأ الشورى وتأصيله.

### ٣- خندق غزوة الأحزاب:

وما قصة الخندق وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم فيها برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه ببعيدة، حيث كانت فكرة حفر الخندق (فارسية) غير عربية، ولكن أساس التعامل الفكري هنا مع الثوابت والأصول، والجدوى المرتقبة من الفكرة، لا مع الشكل والصورة، لذلك فهي شاهد يؤسس لمبدأ المسؤولية المشتركة في إبداء الآراء الأصلح للأمة، وأن ميزان مصلحة الأمة هو الذي يرجح

١- انظر: الحوار والتعددية، عبدالعظيم الديب، ٢٣٢-٢٣٣.

كفة الرأي الغالب، وإن كان رأياً غير مألوف ومسبق.

وإن كان حال الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك مع الأمة في حال أزماتها، فيكون اعتبار الآراء في حال السلم والاستقرار أولى وأكد.

#### ٤- قبول رأي أم المؤمنين أم سلمة:

في صلح الحديبية، بعد أن فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من كتاب الصلح<sup>(١)</sup>، قال لأصحابه: «قَوْمُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اَحْلِقُوا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَحِبُّ ذَلِكَ، أَخْرَجْتُ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرُ بَدَنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بَدَنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»<sup>(٢)</sup>.

ومرة أخرى نرى أن الإسلام يؤكد على احترام الآراء الراجحة، أيا كان مصدرها، لا فرق بين رجل وامرأة، ولا كبير أو صغير، أو غير ذلك.

مطلب ثالث: شواهد التعامل مع (التعددية الإثنية، والطبقية) في السنة النبوية:

إن المناخ الذي ساد في عهد النبوة في الدولة الفتية تطبيقاً لمنهج رباني حكيم، قوامه جمع القلوب على كلمة سواء، ونبذ ما يعكر صفو هذا الاجتماع من أسباب التفرقة على أساس عرقي، أو حسبٍ أو نسب.. أو جد بيئة من التسامح، وأرضية

١- وهو كتاب صلح الحديبية المعروف.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الشروط، بابُ الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمَصَالِحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ، حديث رقم: ٢٧٣١.

خصبة للعيش المشترك الهانئ لكل المتمين للمجتمع المسلم، على اختلاف أعراقهم أو طبقاتهم الاجتماعية أو انتماءاتهم. فكان التطبيق النبوي العملي لهذا المبدأ الإنساني والإسلامي أساسا في بناء دولة نموذجية، وفرت الأمن والسلام والطمأنينة في جميع أرجاء جزيرة العرب، فامتد الإسلام بسبب ذلك وانتشر بسرعة أدهشت خصومه ومناوئيه.

و الشواهد الدالة على ذلك لا تحصى كثرة في السيرة النبوية، ومن ذلك:

١- ورد عن المعرور بن سويد، قال: «لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمَّه، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمَّه؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعَمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»<sup>(١)</sup>.

٢- النهي عن الفخر بالأحساب والأنساب، وجعل العمل ميزان التفاضل بين الناس، ففي الحديث: «لَيَنْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعَلِ الَّذِي يُدْهَدُهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمٌ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»<sup>(٢)</sup>.

٣- لم يسمح الإسلام بالتفرقة على أساس اللون والعرق والقبيلة. بل ذهب أبعد من ذلك وحل مشكلة العبيد والإماء بالمساواة البشرية حتى قبل التحرير.

١- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، حديث رقم: ٣٠.

٢- أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٣٩٥٥. قال الترمذي: "وفي الباب عن ابن عمر، وابن عباس. وهذا حديث حسن".



فقد صح الحديث: «وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أُمَّتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، فَتَايَ، غَلَامِي»<sup>(١)</sup>.

٤- عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَبَابٍ عَلَيَّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَوَلَدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلُؤُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيَّ أَحَدٌ فَضْلٌ إِلَّا بِالذِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسَبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا، بَدِيًّا، بَخِيلًا، جَبَانًا»<sup>(٢)</sup>.

٥- عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ عَجْمِيٍّ وَلَا لِعَجْمِيٍّ عَلَيَّ عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَيَّ أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَيَّ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا - كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ

١- أخرجه مسلم (واللفظ له)، كتاب الالفاظ من الأدب، بابُ حُكْمِ إِطْلَاقِ لَفْظَةِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ وَالْمَوْلَى وَالسَّيِّدِ، حديث رقم: ٢٢٤٩. والبخاري، كتاب العتق، بابُ كَرَاهِيَةِ التَّطَاوُلِ عَلَيَّ الرَّقِيقِ وَقَوْلِهِ عَبْدِي أَوْ أُمَّتِي، حديث رقم: ٢٥٥٢.

٢- أخرج أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٧٣٥١. والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: ٨١٤. وعلق الشيخ شعيب الأرنؤوط على الحديث: "إسناده حسن لأنه من رواية قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة وروايته عنه صالحة" ١٤٥ / ٤. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه لين وبقية رجاله وثقوا" ١٥٩ / ٨ =

= الطف: النقصان، والمعنى المراد في الحديث: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقصير عن غاية التمام. وشبههم في نقصانهم بالكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال. انظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، ٢ / ٣٦٤.

[صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]، قَالَ: لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»<sup>(١)</sup>.

٦- عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ سَيْوْفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَا أَخَذَهَا! قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لَشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ! فَاتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَنْ كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ. فَاتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ، أَغْضَبْتِكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي»<sup>(٢)</sup>.

٧- أَخَى الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ بِلَالِ بْنِ رَبِيحٍ، وَخَالِدِ بْنِ رُوَيْحَةَ الْخَثْعَمِيِّ، وَبَيْنَ مَوْلَاهُ زَيْدٍ وَعَمِّهِ حَمْزَةَ، وَبَيْنَ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي بَكْرٍ، وَغَيْرِهِمْ.. وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُواخَاةُ صِلَةَ حَقِيقِيَّةٍ تَعْدِلُ رَابِطَةَ الدَّمِ<sup>(٣)</sup>، وَمَا زَالَتْ الْبَشَرِيَّةُ فِي عَصْرِ الْمُنَادَاةِ بِالْحَرِيَاتِ وَحَقُوقِ الْإِنْسَانِ تَتَطَّلَعُ إِلَى مَا هُوَ دُونَهَا فَلَا تَبْلُغُهُ<sup>(٤)</sup>.

### النتائج والتوصيات:

ونخلص مما سبق بيانه في هذه العجالة، إلى أن أسس إقامة السلم المدني في ظل التعدديات المختلفة التي وجدت في الدولة الإسلامية الأولى في عصر النبوة - تعدديات الدين، والأفكار، والأعراق -، تنوعت، وكان من أبرزها:

- ١- أخرج أحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٣٥٣٦، وقد علق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط بأن: إسناده صحيح. ٥ / ٤١١، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح". ٣ / ٥٨٦.
- ٢- أخرج مسلم، كتاب من فضائل الصحابة، باب: من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله تعالى عنهم، حديث رقم: ٢٥٠٤.
- ٣- انظر في قصة المواخاة: صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، حديث رقم: ١٩٤٣.
- ٤- انظر: التفرقة العنصرية قديماً وحديثاً، محمد بخيت، ١٠٦.

١- حق العيش المشترك على أرض واحدة ضمن إطار موحد من العدالة والمساواة في المعاملات والالتزامات، دون الالتفات للتعددية الدينية، أو العرقية، أو الطبقيّة، أو سواها، بل كان شأن الإسلام خلاف ذلك تماماً، بحيث استظل كل من يعيش ضمن نطاق الدولة الإسلامية تحت مظلة واحدة؛ من الحقوق والواجبات بين الدولة أو من يمثلها (الحاكم) من جهة، والمجتمع الذي يتمثل في (المحكومين) من جهة أخرى، فكان هذا من أهم أسباب نشر السلم ومظاهره في المجتمعات، إذ بها تستقر النفوس، وتقل المنازعات والخصومات، ويتغلب في ظلها تقديم مصلحة الأمة على المصلحة الفردية، لضمان الأفراد حقوقهم، وأمنهم من الجور والتعدي.

ومن أهم ما يجسد هذا المعنى كما مرّ بنود بيعة العقبة الثانية، التي كانت أول عهد والتزام بين طرفي المجتمع المسلم (الحاكم والمحكوم)، ثم أخذت المعاهدات والمواثيق التالية بتجسيد ذلك المعنى تجسيدا واضحا، وأكثر تفصيلا وتخصيصا<sup>(١)</sup>.

كما أن الأفراد عندما يستشعرون العدالة في المعاملة، في نطاق الحقوق الأساسية مثل حق الحرية الدينية، والعدالة، والعيش الكريم، تذوب بينهم النعرات

١- ومن ذلك معاهدة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران، حيث جاء فيها: «وَلَنَجْرَانَ وَحَاشِيَتَهَا جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَمَلَّتِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَعَائِيهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَيَبْعِهِمْ وَأَنَّ لَا يُغَيَّرُوا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيَّرَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مَلَّتِهِمْ، وَلَا يُغَيَّرُوا أَسْقَفَ مِنْ أَسْقَفِيَتِهِ وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَتِهِ، وَلَا وَاقِفًا مِنْ وُقُوفِيَتِهِ، وَكَلِمًا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دَنْيَةٌ وَلَا دَمٌ جَاهِلِيَّةٌ وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَمَنْ سَأَلَ فِيهِمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ النُّصْفُ غَيْرَ ظَلَمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ بَنَجْرَانَ، وَمَنْ أَكَلَ رِيًّا مِنْ ذِي قَبْلِ فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيَّةٌ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ رَجُلٌ بِظُلْمٍ آخَرَ، وَعَلَىٰ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جَوَارُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَدًا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرِ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ». انظر: دلائل النبوة للبيهقي، ٣٨٩ / ٥، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ٦ / ٤٢٠، زاد المعاد لابن القيم، ٣ / ٦٣٥، وفتوح البلدان، للبلاذري، ٧٦.

التي تزكيتها التعدديات التي ينتمون إليها، ونجد في السنة آلاف الأمثلة الشاهدة على عدل الإسلام المطلق مع كل من ينتمي للمجتمع المسلم، بل حتى مع المخالف والمحارب، فلا جور، ولا تعدي.

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(١)</sup>. وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقَبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا»<sup>(٢)</sup>، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طَيْبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>، وعن أبي مسعود البدرى قال: «كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: اَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ. فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْعُضْبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ، اَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ. قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ. قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا»<sup>(٤)</sup>.

١- اتخاذ الحوار مع المختلف منهجا، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم بالذي يعرض عن فئة أو يقصيها ظلما أو اتباعا لهوى النفس، بل الذي أثر

- ١- أخرجه البخاري، كتاب الجزية، بابْ إِيْمَنْ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا بَغَيْرِ جُرْمٍ، حديث رقم: ٣١٦٦.
- ٢- أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب تواریخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذَكَرَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، حديث رقم: ٤٠٣٢. قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، وعلق الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم. والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: ١١١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح». ٤٨/١٠.
- ٣- أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، بابْ فِي تَعْشِيرِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتَّجَارَةِ، حديث رقم: ٣٠٥٢. وهو صحيح، انظر السلسلة الصحيحة، للألباني، ١/ ٨٠٧.
- ٤- أخرجه مسلم، كتاب الأيمان، بابْ صُحْبَةِ الْمَمَالِكِ وَكَفَّارَةِ مَنْ لَطَمَ عَبْدَهُ، حديث رقم: ١٦٥٩.

عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان من أوسع الناس صدرا للحوار، وللاستماع من غيره، والحرص على تجميع الكلمة في الأمة باحترام كافة الآراء والموازنة بينها، لا سيما مع من كان مختلفا دينا، أو قبيلة وانتماء.

٢- نبد الخطاب الطائفي، والذي يثير البلبله، ويزكي الانقسامات في الصف المسلم، ويؤثر سلبا على قيم الاستقرار والسلم في المجتمع، لأن من شأن هذا الخطاب الفكري المنحرف أن يؤجج لنيران الفتنة والدمار، والحرص على تجاوز الحساسيات والمشكلات بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحت جامع الانضواء تحت راية الإسلام ومصلحة المجتمع المسلم. فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حل ما كان يقع بين أفراد المجتمع من حساسيات؛ منشؤها تعددية الأعراق، أو النسب، أو غير ذلك، ولذلك يقول ابن تيمية: «وَكُلُّ مَا خَرَجَ عَنِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ: مِنْ نَسَبٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ طَرِيقَةٍ: فَهُوَ مِنْ عِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ بَلْ ﴿لَمَّا اخْتَصَمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟﴾. وَغَضِبَ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا»<sup>(١)</sup>.

٣- تقديم قيمة التسامح بين الأطراف المختلفة، بتقديم تنازلات لا تمس الثوابت.

١- انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨ / ٣٨٢. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المنافقين، قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، حديث رقم: ٤٩٠٥، ونصه الكامل: «قَالَ عَمْرُو: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سَفِيَانُ مَرَّةً: فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا بَالَ دَعَاؤُ جَاهِلِيَّةٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعَاؤُهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ».

وهو يتمثل جليا في صلح الحديبية، حيث تنازل الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض الحقوق، والشروط المفروضة في بنود الصلح، لمكاسب أعظم مرتقبة.

٤- الطاعة للحاكم بالمعروف: وهي من أهم ركائز الحفاظ على السلم المدني في المجتمعات المسلمة، واختلالها يكون إيذانا بانحراف المجتمع نحو هاوية من الاضطرابات والفتن، التي تقضي على مكتسبات الأمم؛ من التقدم والنجاح والإبداع، لذلك نجد التشديد على مبدأ السمع والطاعة لولي الأمر دون النظر لانتمائته، أو عرقه، أو غير ذلك، لتحقيق الاستقرار والسلم مصلحة مقدمة على كثير من المصالح الأخرى المظنونة، يقول عليه الصلاة والسلام: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتَعْمَلَ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَيْبَةٌ»<sup>(١)</sup>. ويقول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ يُطِعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وِرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ فَإِنَّ أَمْرَ بَتَقْوَى اللَّهِ وَعَدْلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بغيرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup>.

٥- إرساء مبادئ تقدير العمل والإبداع فيه، وهو يشمل التعامل العملي مع المسلم وغير المسلم، فنرى الحُصَّ على السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والتضييق على الناس في المطالبة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا، سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى،

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإمامة، بابُ إِمَامَةِ الْعَبْدِ وَالْمَوْلَى، حديث رقم: ٦٩٣.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، بابُ يُقَاتَلُ مِنْ وِرَاءِ الْإِمَامِ وَيَتَّقَى بِهِ، حديث رقم: ٢٩٥٧؛ ومسلم في كتاب الإمارة، بابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٣٥.

وَإِذَا اقْتَضَى»<sup>(١)</sup>.

كما أن الدعوة للعمل والبذل في الإسلام لها مفهوم إيجابي لا يرتبط بشخص العامل، ولا مكانته، ولا نسبه أو حسبه، بل بالعمل وحده، لما طلب أبو ذرّ - رضي الله عنه - من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يستعمله في الولاية ضرب بيده على منكبه ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»<sup>(٢)</sup>، فقرر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا النهج أن إسناد العمل يكون للأصلح له، لا لقربه، أو مكانته، أو غير ذلك، ولذلك جعل - صلى الله عليه وسلم - من علامات الساعة إسناد العمل إلى مَنْ ليس له بأهل؛ حيث قال حينما سُئِلَ: متى الساعة؟: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»<sup>(٣)</sup>. وهذه الإرشادات مهمة في إشاعة روح البذل والتفاني في العمل في نطاق الدولة الإسلامية، فالعمل يقدر بمقدار إجادته، وليس بالنظر للعامل ومكانته أو انتمائه.

وإن كانت من توصيات، فهي تُوجَّه:

أولاً: لنخبة الأمة وعلمائها - الذين تقع على عاتقهم تبعات جسام في إيضاح الحق وبيانه، دون تضليل أو تشويه أو تحريف - بأن يواصلوا البذل الفكري المرتجى منهم، في مثل هذا المحفل الكريم وغيره، وأن يبذلوا الوسع في سبيل استرشاد الهدي النبوي وهدي السلف في فهم تعاليم الإسلام التي تدعو للسلم، ولا استقرار المجتمعات المسلمة، وذلك من خلال تتبع النصوص ودلالاتها وإسقاطها على

١ - أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب السُّهُولَةِ وَالسَّمَاخَةِ فِي الشُّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ، حديث رقم: ٢٠٧٦.

٢ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب كَرَاهَةِ الْإِمَارَةِ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ، حديث رقم: ١٨٢٥.

٣ - أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُسْتَعْلٍ فِي حَدِيثِهِ فَأَتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ، حديث رقم: ٥٩.

الواقع، بل والنظر أبعد من ذلك، فالظروف الحرجة التي تمر بها أمتنا في هذا الوقت تستلزم منهم نظرة استباقية استشرافية، تبحث عن سبل الوقاية من الفتن قبل اندلاعها، دون الاكتفاء بمعالجة آثارها بعد وقوعها.

وفي تضافر الجهود الفكرية لعلماء الأمة في هذا السبيل، ومن ثم بثها للمجتمع، ونشر فكر السلم الذي هو جوهر الإسلام وروحه، أكبر الأثر في تغيير الصورة النمطية المضللة التي روجها الغرب عن الإسلام والمسلمين، فالإسلام براء من التطرف، والإرهاب، والعنف.

ثانياً: لأصحاب الحل والعقد والسلطة، الذين يترجى منهم صياغة مواد قانونية قابلة للتطبيق لإدراجها في دساتير الدول الإسلامية ولوائحها؛ مما يعزز فكرة التعايش السلمي في نطاق الدولة، وفي علاقتها مع غيرها. على غرار بعض القوانين الصادرة في بعض الدول الإسلامية والعربية<sup>(٤)</sup>. ولكننا لا نزال نحتاج للمزيد منها سداً لأبواب الفتن والشر الذي قد لا يزعج إلا سلطان القانون وسيفه.

وبعد،

فهذه بعض ملامح التعايش السلمي، والسلم المدني في المجتمع المسلم

٤- ومن ذلك: قانون مكافحة التمييز والكرهية، وهو مرسوم صادر عن الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة. القانون رقم (٢)، لعام ٢٠١٥م، وهو يحظر الإساءة إلى الذات الإلهية أو الأديان أو الأنبياء أو الرسل أو الكتب السماوية أو دور العبادة، أو التمييز بين الأفراد أو الجماعات على أساس الدين أو العقيدة أو المذهب أو الملة أو الطائفة أو العرق أو اللون أو الأصل الإثني. كما يجرم القانون كل قول أو عمل من شأنه إثارة الفتنة أو النعرات أو التمييز بين الأفراد أو الجماعات من خلال نشره على شبكة المعلومات أو شبكة الاتصالات، أو المواقع الإلكترونية، أو المواد الصناعية، أو وسائل تقنية المعلومات أو أية وسيلة من الوسائل المقروءة أو المسموعة أو المرئية وذلك بمختلف طرق التعبير كالقول أو الكتابة أو الرسم. القانون رقم (٢)، لعام ٢٠١٥م، مرسوم صادر عن الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.



في عصر النبوة، برغم وجود التعددية التي تفرض وجود القلاقل والمنازعات، والاضطرابات في كثير من المجتمعات، والتاريخ يشهد على هذه الحقيقة التي يتجلى فيها تميز وتفرد النظام الإسلامي بقيمه وممارساته التي تعتبر رائدة في هذا المجال، والعالم لم يعرف مثيلاً لقوانين التسامح في الإسلام، والتي عاش في ظلها غير المسلمين منعمين بجوار المسلمين وتحت حكمهم قروناً كثيرة، حاصلين على كثير من الحقوق والامتيازات التي تفتقر لها مجتمعاتهم، ولا أدل على ذلك من شهاداتهم أنفسهم بذلك، يقول الشاعر الأمريكي رونالد ركويل؛ بعد أن أشهر إسلامه مذهولاً بسماحة الإسلام: «لقد راعني حقاً تلك السماحة التي يُعامل بها الإسلام مخالفيه؛ سماحة في السلم، وسماحة في الحرب، والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كلِّ وصاياه»<sup>(١)</sup>، وأيضاً فإن اتهام الإسلام بالعنف تجن واضح عليه، يناقض الحق والتاريخ، فلم يرتضه له المنصفون من غير المسلمين، يقول أحد الكتاب الأمريكيين المعاصرين، وهو أندرو باترسون: «إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف»<sup>(٢)</sup>.

وكما قال الإمام مالك رحمه الله، فإنه «لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»<sup>(٣)</sup>، فالعودة الجادة إلى نهج النبوة القويم في إرساء مبادئ السلم والتعايش في المجتمعات المسلمة، هو الحل لمشكلات العالم الإسلامي، بل العالم أجمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ - معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي؛ إدوار غالي الذهبي، ٤٩.

٢ - لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، ٩١.

٣ - اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢ / ٧٦٢، ٧٦٣.

## قائمة المصادر والمراجع

- الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوى، دار السلام، ط (٣)، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- أسئلة التعددية والتنوع في الفكر السياسي المعاصر، مجلة المواطنة والتعايش، السنة الأولى، عدد (٢)، ٢٠٠٧م.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة، ط (٢)، ١٣٦٩هـ.
- بحث: دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية، محمد مسعد ياقوت، <http://www.saaaid.net>.
- البداية والنهاية لابن كثير إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف، بيروت، د(ط).
- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط (١)، ١٤٠٧هـ.
- التسامح والصفح - دراسة مقارنة في الفكر الاسلامي والغربي، عبد السلام ابراهيم البغدادي - مؤتمر التعايش السلمي في العراق - الواقع والمستقبل، أعمال المؤتمر العلمي السنوي الثاني / كلية العلوم السياسية / جامعة السليمانية، بالتعاون مع منظمة (نفار) لتنمية الثقافة الديمقراطية، من (٥-٤ نيسان / ٢٠١١).
- التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- التفرقة العنصرية قديماً وحديثاً وموقف الإسلام منها، لمحمد بخيت، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٤م.
- تهذب اللغة، لأبي منصور محمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط (١)، ٢٠٠١م.
- الحوار والتعددية، عبد العظيم الديب، <http://www.riyadhalelm.com>.
- دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ط (١)، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩ م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط (٢٧) ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى الشامي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.
- سنن البيهقي الكبرى، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط (١) ١٣٤٤ هـ.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- السنن الكبرى للنسائي، أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.
- سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف، د (ط).
- السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، د (ط).
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٤١١ هـ.
- صحيح ابن حبان، لابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط (٢)، ١٤١٤ - ١٩٩٣، برقم (٦٢٧٤).
- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، تعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت، د (ط).
- صلح الحديبية، وأبعاده السياسية المعاصرة، عبدالحكيم الصادق الفيتوري، دار المدني، السعودية، ٢٠٠٥ م.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، د(ط).
- غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، عبدالكريم إبراهيم العزباوي، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ، (١٦٠ / ٢).
- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، ط (٢).
- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣، بيروت.
- فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي، عبدالمحسن شعبان. دار آراس للطباعة والنشر، اربيل - العراق، ط (٢)، ٢٠١١ م.
- فقه السيرة، للغزالي، دار الكتب الحديثة، نقد أسانيد الأحاديث فيها: ناصر الدين الألباني، ط (٦)، ١٩٦٥ م.
- قاموس المصطلحات القانونية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط (١)، ٢٠٠٤.
- القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية، عبد العزيز العوضي، بحث مقدم لندوة تطوير العلوم الفقهية: «فقه رؤية العالم والعيش فيه المذاهب الفقهية والتجارب المعاصرة»، ٢٠١٥ م.
- الكتاب التوثيقي لأعمال المنتدى الأول لمنتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، الورقة التأطيرية، عبد الله بن يبه، منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ٢٠١٤ م، الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي، ٨-٩ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ، ٩-١٠ مارس ٢٠١٤ م.

- لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط (٥)، ٢٠١٠م.
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- مختصر السيرة، لمحمد بن عبد الوهاب، تحقيق عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب. مطابع الرياض: (١١١).
- مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن عبد الوهاب، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، مطابع الرياض. د(ط).
- المستدرک علی الصحیحین، للحاکم النیسابوری، مع تعليقات الذهبي في التلخيص: برقم (٣١٧٥)، (٢ / ٣٢٩)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعليق الذهبي في التلخيص: صحيح. و السيرة النبوية لابن هشام: (٢ / ١٢٦-١٢٨)، أورد هذا الحديث الشيخ الألباني، وتبع طرقة وصححه، انظر.
- مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط (٢)، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي؛ إدوار غالي الذهبي، مكتبة غريب، ط (١)، ١٩٩٣م.
- معجم أخطاء الكتاب، صلاح الدين الزعبلاوي، دار الثقافة والتراث بمصر، ط (١)، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ١٤٠٤ - ١٩٨٣م.
- معجم المصطلحات الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٣١٧.
- معجم المصطلحات السياسية، علي الدين هلال و نيفين سعد، مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة / القاهرة، ١٩٩٤.

- موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: <https://ar.wikipedia.org>.
- نظرة جديدة في سيرة رسول الله، كونستانس جيورجيو، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٣ م.
- المجتمع المدني في عه النبوة، خصائصه وتنظيماته الأولى، أكرم ضياء العمري، المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية- المدينة المنورة، ط (١)، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣ م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢.
- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، كتاب الأمة، العدد (١١٠)، ٢٠٠٥ م، ١٤٢٦ هـ.

الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدنيّ

وطرق معالجتها

«دراسة في ضوء الهدى النبوي»

د. ماريه بسام محمد عباينه

جامعة الحدود الشمالية - المملكة العربية السعودية







## المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

لا شكّ بأن الإسلام هو دين السّلم وأنّه يحمل المنهج الربّاني القويم لتحقيق عمارة الأرض وإسعاد البشريّة وتحقيق أمنها في جميع الميادين وخاصة فيما يتعلق بالاجتماع البشريّ؛ لذلك دعا إلى بثّ روح المحبة والتّراحم والتّعاطف والتّرابط بين أفراد المجتمع الإسلاميّ؛ ولكن الناظر إلى واقع الأمة اليوم يلحظ ما اعترأها من الضّعف والسقوط في خضمّ الفتن المتأجّجة، والحروب والمنازعات والكوارث المتلاحقة، ويرى تفسّخ عرى الإنسانيّة التي فقدت الأمان الاجتماعيّ لكثرة السّهام والطّعون المتتالية عليها من أعدائها وأبناء جلدتها المفتونين الذين ضلوا عن سواء السبيل، حتى أعوز ميزان التّمييز بين الحقّ والباطل، ووقع الناس في حبال الفتنة فتمرّ عليهم المؤامرات وتفتك بهم الحيل، فيهدّد بذلك سلّمها المدنيّ، وما كان ذلك ليحدث لو عادت إلى منهج رُشدها، واستلهمت قيمها من كتاب ربّها - عزّ وجل - وسنّة نبيّها - صلى الله عليه وسلم -.

إنّ من أخطر مهدّدات السّلم المدنيّ تداول الشائعات وانتشارها، وخاصّةً ما يكون في الأمور الخطيرة والجليلة المتعلقة بالعرض والدّين والكرامة ومقدّرات المجتمعات الإنسانيّة، تلك التي ما أن انتشرت في مجتمع ما حتى تحول أمنه قلقاً ورُعباً، وترابطه فرقةً واحتراباً، وتآلفه حقداً وبغضاءً ونفوراً وخاصّةً مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعيّ التي اسهمت في رواج الشائعات والأراجيف، ومن ثمّ زعزعة أمن المجتمعات وسلمها.

ولقد جاءت السنّة النبوية تصوّر أثر الشائعات والأراجيف على المجتمعات من خلال بعض الحوادث اليسيرة التي حصلت في المجتمع النبوي، والتي قام على إثارتها الماكرون من المنافقين، وأخذت في طريقها وأوقعت بعض الصّالحين من أصحاب الفضل، وشاء الله أن يكون ذلك في العصر النبوي وهو خير القرون، لتكون درساً للخلف من بعدهم، فيدركوا خطر الشائعات التي لا يسلم من نارها إلا من تمسك بالقيم الربانيّة والهديّ النبويّ، لذلك جاءت هذه الدّراسة في ضوء الهديّ النبوي بعنوان: «الشائعات وأثرها في تهديد السّلم المدنيّ وطرق معالجتها؛ دراسة في ضوء الهديّ النبويّ» في محاولة لإبراز أثر الشائعات في تهديد السّلم المدنيّ، واستلهاً المنهج النبويّ في التعامل معها، وبيان سبل الوقاية منها، والحدّ من آثارها، وذلك بدراسة ثلاثة نماذج من الشائعات التي انتشرت في المجتمع النبويّ، وتمّ انتقاؤها مما صحّ عنه - صلى الله عليه وسلم -.

ولقد سبق هذه الدّراسة عدّة دراسات تناولت موضوع الإشاعة استقلالاً وأخرى ضمناً، ولكن دون تخصيصٍ أيّاً منهما بالدّراسة الحديثيّة، ومن أهمّ هذه الدّراسات:

١- دراسة قدّمها الشّتري بعنوان: «مقاصد الشريعة ووسائلها في المحافظة على ضرورة العرض من خلال محاربة الشائعات»<sup>(١)</sup>، تناول فيها الباحث الدّراسة بطريقة فقهية، خصّ فيها الشائعات التي تكون في باب العرض.

٢- دراسة قدّمها الهّمص وشلّدان بعنوان: «الأبعاد النفسيّة والاجتماعيّة في ترويج الشائعات عبر وسائل الاعلام وسبل علاجها من منظور إسلاميّ»، خصّ فيها الباحث بالدّرس الوسيلة الإعلاميّة ودورها في ترويج الشائعات،

---

١- مقاصد الشريعة ووسائلها في المحافظة على ضرورة العرض من خلال محاربة الشائعات: الشّتري، سعد بن ناصر، ندوة أساليب مواجهة الشائعات، برعاية أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمّية، أعمال ندوة أساليب مواجهة الشائعات.

وخلص من دراسته إلى أنّ الشائعات حربٌ نفسيةٌ باردةٌ وأنَّ خطرُها يتمثّل بميزة خروجها من المجتمع نفسه ممّا يحدث بلبلة الأفكار وتضليل الرأي العام، وإحداث الفتنة بين الناس، وتشويه سمعة البريء، وبين الباحث أن الشّخص المُستهدف في المجتمع قد يتعرّض للأمراض النفسيّة والاجتماعيّة<sup>(١)</sup>.

٣- كتاب ألفه الهاجريّ بعنوان: «المنهج الإسلاميّ في التّثبت من الأخبار والقضاء على الشائعات»، قدّم فيه دراسة عامّة دون تخصيصها بالدراسة الحديثيّة، وعرض من خلاله أهم الوسائل التي تحوّل دون وقوع الشائعات، وبين أهم سبل العلاج في مكافحتها<sup>(٢)</sup>.

٤- دراسة قدّمها زاهدیان بعنوان: «الإشاعة وأضرارها على المجتمع وطرق وقايتها في ضوء آية الإفك»، تناول فيها حادثة الإفك على الخصوص في ضوء الآيات القرآنية دون أن يعرّج على الشائعات الأخرى التي أُثيرت في المجتمع النبويّ<sup>(٣)</sup>.

٥- كتاب ألفه الصّويان بعنوان: «نحو منهج شرعيّ في تلقي الأخبار وروايتها»، حيث عرض فيه الآفات التي تُفسد الأخبار، وذكر الشائعة كمثال على تلك الأخبار، مع بيان ملامح المنهج النبوي والشرعيّ للتعامل مع الأخبار بجميع أنواعها<sup>(٤)</sup>.

---

١- الأبعاد النفسيّة والاجتماعيّة في ترويج الشائعات عبر وسائل الإعلام وسُبل علاجها من منظور إسلاميّ: الهيمص، عبدالفتاح، وشيلدان: فايز كمال، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، ١٨م / ٢ع (ص ١٤٥ - ١٧٤).

٢- المنهج الإسلاميّ في التّثبت من الأخبار والقضاء على الشائعات: الهاجريّ، محمد بن عبد اللطيف البرعيّ.

٣- الإشاعة وأضرارها على المجتمع وطرق وقايتها في ضوء آية الإفك: زاهدیان، قطب الدّين، المجلة الدّولية للبحوث الإسلاميّة والإنسانية (المجلد ٥ العدد ٩).

٤- نحو منهج شرعيّ في تلقي الأخبار وروايتها: الصّويان، أحمد بن عبد الرحمن.

ولقد جاءت هذه الدراسة لتضيف إلى الدراسات السابقة دراسة حديثة في ضوء المنهج النبوي خاصة، ثم من خلالها حصر النماذج التي صحت من الأحاديث النبوية، ودراستها دراسة حديثة موضوعية تقوم على تحليل الأحداث والوقوف على الدروس والعبر لتجلي الآثار، ولبيان المنهج النبوي في الوقاية والعلاج.

ولقد قسّمت الدراسة إلى تمهيد ومبحثين، على النحو الآتي:

- التمهيد: حيث تم فيه عرض المصطلحات المهمة الخاصة بالدراسة كتعريف السلم المدني، ومصطلحات الإشاعة والأراجيف.
- المبحث الأول: الشائعات وأثرها في تهديد السلم في المجتمع النبوي، عرضت من خلاله أخطر الشائعات التي أثّرت في المجتمع النبوي وكادت أن تعصف بأمنه لولا رحمة الله - عزّ وجلّ - ونصره لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - وهي شائعة خبر حادثة الإفك، وخبر طلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - أزواجه، وشائعة مقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة أحد.
- المبحث الثاني: المنهج النبوي في التعامل مع الشائعات، عرضت من خلاله أهم السبل والوسائل التي تجلّت في الأحاديث، والتي هدفت إلى التصدي للشائعات ودرء أخطارها.
- سائلةً المولى - عزّ وجلّ - أن يُلهمنا الرشد والصواب، وأن يجنبنا الزلل، وأن يهبنا التوفيق.

## التَّمْهِيد

أولاً: تعريف السِّلْم المدني:

### ١- مفهوم السِّلْم:

جاءت لفظة «السِّلْم» في اللغة بعدة معاني أبرزها: الصِّلْحُ وخلاف الحرب، والسَّلَامَةُ، والأمان. (١) وبالتبع للفظة السِّلْم في القرآن الكريم تجد أن مفردة «السَّلَام» ومشتقاتها ذُكرت في عدة مواضع منها:

- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتَّغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَانَتْ عَلَيْكُمْ فِتْنَةٌ إِنْ كَانَتْ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ (النساء: ٩٤)، في هذه الآيات الكريمة يأتي السِّلَام فيها بمعنى الاستسْلَام والمصالحة؛ إذ يأمر الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين في سيرهم للجهاد التَّاني في قتل من أشكل عليهم أمره فلم يعلموا حقيقة إسلامه (٢).

- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُغْنِيُوا عَنْكُمْ وَالْقِوَامَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَكِينًا﴾ (النساء: ٩٠)، حيث جاءت لفظة السِّلْم بمعنى الصِّلْح (٣).

- وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥)، وهنا أيضا جاءت بمعنى المصالحة (٤).

- وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٧)،

١- انظر: لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري، (١٢ / ٢٨٩).

٢- انظر: جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ) (٧ / ٣٥٢).

٣- انظر: جامع البيان، الطبري (٨ / ٢٩).

٤- انظر: المرجع السابق (١١ / ٢٥٣).

جاءت لفظة السَّلام في هذا الموضع بمعنى الجَنَّة<sup>(١)</sup>.

- وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر: ٢٣). جاءت لفظة السَّلام تشير إلى اسم من أسماء الله الحسنى.

أما السَّنة النبوية فبالتَّبَع تجد أن لفظة السَّلم وردت في بضعة مواضع، وتجد أنها في جميع مواضعها لا تخرج عن المعاني اللغوية التي ذكرت آنفاً؛ ففي قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وَلَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ...»<sup>(٢)</sup>؛ تجيء لفظة السَّلم في هذا الموضع بمعنى الصُّلح؛ يقول ابن الأثير: «أَي لَا يُصَالِحُ وَاحِدٌ دُونَ أَصْحَابِهِ وَإِنَّمَا يَقَعُ الصُّلْحُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ بِاجْتِمَاعِ مَلَأْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup>، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «أَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ»<sup>(٤)</sup>، من المُسَالمة وترك الحرب<sup>(٥)</sup>.

وبهذا التَّبَع تخلص الدِّراسة إلى أن السَّلم جاء في القرآن الكريم بأربعة معانٍ وهي: «الإسلام والمصالحة، وأنها اسم من أسماء الله الحسنى، واسم من أسماء الجَنَّة»، وفي السُّنة جاءت لفظة السَّلم بمعنى الصُّلح والمُسالمة.

وعلى هذا فإنَّ الدِّراسة تُسفر عن نتيجة وهي: أن لا فرق بين معنى السَّلم لغةً واصطلاحاً؛ «فالسَّلم هو المصالحة والأمان والسَّلامة».

١- يُنظر: المرجع السابق (١٢ / ١١٤).

٢- الحديث من البلاغات لم أجد من وصله (منقطع)، انظر: كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، (ص: ٢٦٢).

٣- لسان العرب، ابن منظور (١٢ / ٢٨٩).

٤- أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر أسلم، حديث رقم: ٣٣٢٣.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، الملقب بمرتضى محمد بن محمد (٣٢ / ٣٨٦).

## ٢- المدنيّ:

هذه النسبة ترجع إلى الفعل (مدن)، وقد عرفه ابن منظور بقوله: «مدنّ بالمكان أقام به»<sup>(١)</sup>. وقال: «ومنه المدينة»<sup>(٢)</sup>.

## ٣- مصطلح السلم المدنيّ:

إنّ السلم المدني بهذا التركيب يعدّ من المصطلحات المعاصرة التي أفرزتها التطورات الاجتماعية والسياسية، وبالرجوع تاريخياً إلى أصوله نجد أن بعض المفكرين كماورد في كتاب (أدب الدين والدنيا)، قد ناقش أهم الأمور التي تحكم العلاقة بين الفرد ومجتمعه، ومن أهمها الأمن الاجتماعي الذي يعني الرفض لكل ألوان التناحر أو الدعوة إليه أو نشر ثقافته<sup>(٣)</sup>.

وقد عرفه الشحود في موسوعة الردّ على المذاهب الفكرية المعاصرة بقوله: «السلم المدنيّ: هذا المصطلح المتضمّن لدعاوى التعايش والتسامح»<sup>(٤)</sup>. ومع ذلك يعتبر الشحود أنّ مصطلح السلم المدنيّ يحمل في طياته معاني صحيحة وأخرى فاسدة، منبّه على سياق الفساد بما يسمّى بالسّلام العالميّ، وأنّه دعوة مستحيلة في مظلة الحضارة الغربية القائمة على النهب والاعتداء والاستضعاف<sup>(٥)</sup>.

وبعيداً عمّا يريده الغرب، فإنّ الباحثة ترى من خلال ما تمّ عرضه من المعاني اللغوية أنّ مفهوم السلم المدنيّ بمعناه الصحيح هو: «كلّ ما يدعو إلى المصالحة والسّلامة والأمان في المجتمع الواحد».

١- لسان العرب، ابن منظور (١٣ / ٤٠٢) مادة مدن.

٢- المرجع السابق (١٣ / ٤٠٢).

٣- أدب الدنيا والدين، الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (٤٥٠)، ١٩٠، ١٩١.

٤- موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، الشحود، علي بن نايف، (١٥ / ٤٤).

٥- يُنظر المرجع السابق (١٥ / ٤٤).

## ثانيًا: مفهوم الشائعات والأراجيف:

قد يظن الناظر لأول وهلة أن هذين اللفظين مترادفان، والحقيقة أن بينهما فروقًا دقيقة تكشف عنها المعاني اللغوية وواقع الحال على النحو الآتي:

### ١- الأراجيف:

جاء في اللغة: أَرَجَفَ الْقَوْمُ: إِذَا خَاضُوا فِي أَخْبَارِ الْفِتَنِ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ، وَالْمَرْجِفُونَ: هُمُ الَّذِينَ يُوَلِّدُونَ الْأَخْبَارَ الْكَاذِبَةَ، الَّتِي يَكُونُ مَعَهَا اضْطِرَابٌ فِي النَّاسِ، وَإِيقَاعُ الرَّجْفَةِ، إِيمًا بِالْقَوْلِ، وَإِمًا بِالْفِعْلِ<sup>(١)</sup>. ويعرف الراغب الأصفهاني الأراجيف بقوله: «والأراجيف: ملاقيح الفتن»<sup>(٢)</sup>. وبهذا نستطيع تعريف الأراجيف على أنها: «الأخبار الكاذبة والسّيئة التي يُطلقها مُلْتَمِسُو الْفِتْنَةِ لِإِيقَاعِ الْاضْطِرَابِ فِي النَّاسِ إِيْهَامًا بِصِحَّتِهَا»<sup>(٣)</sup>.

### ٢- الشائعات:

لغةً: من شاع الخبر في الناس؛ يشيع شيعًا وشيوعًا ومشاعًا، فهو شائعٌ: ذاعَ وفشا وظهر وانتشر<sup>(٤)</sup>.

اصطلاحًا: يعرفها الصّويان بأنها: «عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لأغراض خبيثة ويتناقلها الناس بحسن نية دون التثبت من صحتها ودون التحقق من صدقها»<sup>(٥)</sup>.

ولأن الشائعة في الغالب الأعم يكتنف ظروفها بعض الغموض فإن الباحثة

١- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣ / ٣٢٥):

٢- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد (ص: ٣٤٤).

٣- نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار، الصّويان (ص ٢٥).

٤- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (٢١ / ٣٠١).

٥- نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار، الصّويان (ص ٢٥).



ترى إضافة قيد الغموض ليكون تعريفها على النحو الآتي: «عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لأغراض خبيثة ويتناقلها الناس بحسن نية دون التثبت من صحتها، ويكتنف ظروفيها بعض الغموض».

وبناء على التعريف اللغوي للفظة الإشاعة تجد أنها لا تستلزم بالضرورة نقل الأخبار السيئة كما الأراجيف فقد تشيع الأخبار الحسنة لأغراض التسلية وإن كان الأغلب في الشائعات إشاعة سيء الأخبار ابتغاء الفتنة.

### المبحث الأول: الشائعات وأثرها في تهديد السلم في المجتمع النبوي

بداية فلا بد من تقرير بعض الحقائق التي لا يُشكك فيها كل منصف متأمل للسيرة المصطفوية، و سيرة الجيل المثالي الفريد الذي تربي على يدي صاحبها أشرف الخلق وسيدهم محمد - صلى الله عليه وسلم -.

- الحقيقة الأولى: أن الله - سبحانه وتعالى - قد تكفل برد مكر الماكرين عن هذه الدعوة الحنيفية، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ الأنفال: ٣٠.

- الحقيقة الثانية: أن هذا الجيل يربأ بنفسه عن كل مايشين دينه وعقيدته ويتنزّه عن كل ما يدعو إلى الإفساد والإضرار بالأرض والعباد فهو جيلٌ جاءت تزكيتة من السموات العلى، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَعْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٢٩؛ لذلك فإنهم بلا أدنى شك بعيدون كل البعد عن أن يكونوا مصدرا للشائعات والأراجيف وهم يعلمون باختلافها وزورها، وأمّا الذي

لا يعلمونه فقد كان منهجهم فيه هو التثبيت والتحري لئلا يقعوا في قوله تعالى: ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦.

ولما أوردت من الحقائق السابقة فإن الشائعات - التي أشيعت في العهد النبوي لم تؤثر أبدا على الدعوة الإسلامية رغم خطرها وما أحدثته من البلبلة والقلق المدني الذي دفعه الله - سبحانه وتعالى - بوعده، والذي صدّه النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته بالمنهج الرباني القويم.

- الحقيقة الثالثة: أن هذه الشائعات كانت معدودة وإنما شاء الله أن تكون لتبقى درساً خالداً للأتباع يتذكرون من خلالها كيف عصفت بالسلم المجتمعي؟ وحتى يخط لهم منهجاً واضحاً في التعامل مع هذه الآفة المهددة لأمن المجتمعات.

الأسئلة المطروحة في هذا المبحث بعد تقرير هذه الحقيقة إذن: ما الجهة التي كانت تتولى مهمة الإرجاف والشائعات؟ وما الهدف من ذلك؟ وللإجابة عما سبق سنتناول أهم الأحداث التي حصلت في العهد النبوي.

المطلب الأول: حادثة الإفك وأثرها في تهديد السلم المدني

أولاً: عرض الرواية

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفْرًا أَفْرَعُ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَيَأْتِيَهُنَّ خَرَجَ سَهْمَهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَفْرَعُ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأَنْزَلُ فِيهِ، فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ غَزْوَتِهِ تَلَّكَ وَقَفَلْ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَدْنَى لَيْلَةٍ بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا

بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ؛ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ  
فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارِ قَدْ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي  
فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرِحُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَيَّ بِعَيْرِي  
الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خَفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ  
يُعْشِهِنَّ اللَّحْمَ وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثَقُلَ  
الْهُودَجُ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ  
عَقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَأَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي  
كُنْتُ بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَنِي عَيْنَايَ  
فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ -السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذُّكَّوَانِيُّ- مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ  
عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ  
بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاِحَلَتَهُ فَوَطَّئَ يَدَهَا فَرَكَبْتُهَا فَاَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى  
أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعْرَسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ.....  
الحديث»<sup>(١)</sup>.

## ثانيا: مصدر الشائعة:

يشير الدكتور زاهديان<sup>(٢)</sup> إلى أن مصدر الإشاعة غالباً ما يكون مجهولاً ومن  
ثم فإن رواية الإشاعة تتلقاها الأطراف بألسنتها دون التركيز على مصدرها أو  
صحتها، إلا أنه في حادثة الإفك يأتي التصريح بمن كان يستوشي الخبر ويجمعه

- ١- متفق عليه، واللفظ للبخاري، أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً،  
حديث رقم: ٢٥١٨، وأورده مطوَّلاً أيضاً مع بعض الزيادات في كتاب المغازي، باب حديث الافك،  
حديث رقم: ٣٩١٠، وكتاب التفسير، باب سورة النور، حديث رقم: ٤٤٧٣، وأخرجه مسلم، كتاب  
التوبة، باب في حديث الافك، حديث رقم: ٢٧٧٠.
- ملاحظة: ما سيرد في هذا البحث من مقاطع حديثة راجعة إلى هذا الحديث.
- ٢- انظر الإشاعة وأضرارها: زاهديان(ص٢١).

على حدّ تعبير السيدة عائشة - رضي الله عنها - حيث قالت: «المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمته»، وفي لفظ آخر صرّحت عن مصدر الإشاعة على اعتبار أنه صاحبها قد تولى حديث الإفك وأدار انتشاره، جاء في الحديث: «وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتُكَيْتُ بِهَا شَهْرًا يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ».

وهذا هو ديدن المنافقين في كل عصر وحين، بل هم العنصر الفعّال في هذا الميدان، فتراهم يروجون - بجمع وسائلهم المتاحة - شائعاتهم التي تمس أمن المجتمعات بحكوماتها وأفرادها؛ ولعل ذلك يتجلى في وسائل التواصل الاجتماعي بجميع أشكالها، والتي تضطلع بانتشار الخير في ثواني إلى الملايين وإلى آخر بقعة في الكرة الأرضية، ولا شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مضمون الأراجيف التي تحمل في طياتها الزور والبهتان لإيقاع الفتن وبين مسمى هذه الحادثة (حادثة الإفك) التي أرجفها المنافقون زوراً وبهتاناً؛ حيث قام بغزل خيوطها قلوب مريضة لا تخشى الله، حادثة تجرأ فيها كل من وقع فيها على بيت النبوة، وعلى أطهر بيت، وعلى سيد الخلق وقائدهم، حادثة أراد بها المنافقون الكيد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودعوته، وأرادها الله أن تكون درساً قاسياً يردّ فيه الماكرين بأن يجعل كيدهم في نحورهم، وأنزل قرآناً يتلى إلى يوم الدين، يبطل فيه مقالة المبطلين وشائعتهم، ويبرئ وينزه آل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل ما يشين إلى يوم الدين، ويرسم منهجاً راسخاً في التعامل مع أهل هذه الفئة وكل من يسير سيرهم وينحدر في مستنقعهم.

ثالثاً: الذين تناقلوا الشائعة:

لا شك أن الإشاعة مرضٌ وبائيٌّ خطيرٌ؛ فما يلبث المروج أن يطلق إشاعته

حتى تراها قد انتشرت وذاعت، ولا يتسنّى لذلك أن يكون لولا وجود صنفين؛ أولهما من وقع في الجهل فلم يثبت ولم يتروّ وقد يكون هذه الصنف فيه من أهل الصّلاح، ولكن الخبر يسترعي اهتمامه فيأخذ بنشره والتحدث به والسؤال عنه؛ لذلك وقع في الفتنة من يُتَمَنُّ فيهم الخير؛ ولكن لما غاب عنهم ما غاب وقعوا في المحذور، والصّنف الثاني هم المنافقون والحاقدون الذين تقع منهم الشائعة موقع الموافقة والقبول والسّرور لنيل مُرادهم من تحقيق الأذى لمن لا يرتضون؛ صنفٌ أراد ببثها الفتنة، وآخر وقع فيها بسبب عدم التّروي والتّثبت اغترارا بما أشيع وللحال التي رافقت الحادثة، فتراهم يتلقفون تلك الأخبار فرحين مغردين ومبجلين لأن نفوسهم اعتادت الأذى وألستنتهم أصبحت تتلقف وتذوق الإيذاء لشهوة النفس وحظ الدنيا وإرادة الفتنة، ولقد جاءت رواية حادثة الإفك تجلّي حال الصّنفين:

جاء في الرواية عن عائشة - رضي الله عنها - : «أُمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا وَأُمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مَسْطُحٌ وَحَسَّانٌ بَنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ».

وفي لفظ للسيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: «وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ».

والسؤال الذي يتبادر إلى الذّهن بعد الحقائق التي تقررت في حق الصّحابة؛ كيف وقع أصحاب الصّنف الثاني وهم من الصّحابة الكرام الذين قد ذُكر فضلهم في حادثة الإفك؟ ومثله يسأل عن حال العلماء الكبار الذين وقعوا في سادتهم وقياداتهم وإخوانهم من أهل الصّلاح متلقفين تلك الشائعات في وسائل الإعلام والنوادي وشبكات التواصل.

لقد شهدت السيدة عائشة - رضي الله عنها - لمسطح بأنه رجلٌ شهد بدرًا: «وَأُمُّ مَسْطَحَ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ<sup>(١)</sup> نَمَّشِي فَعَثَرْتُ فِي مَرَطِهَا<sup>(٢)</sup> فَقَالَتْ تَعَسَ مَسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بِنْسٌ مَا قُلْتَ أَتَسْبِيَنَّ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ يَا هَتَّاهُ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ».

ويزول الاستغراب إذا تقرر أن الصحابة بشرًا لا يعلمون الغيب، وأن الشائعة قد وصلتهم كما وصلت لغيرهم، وكان مراد الله أن تقع هذه الحادثة لتكون درسًا لمن بعدهم في وجوب التثبت والتحري، وقد يحصل هذا مع الشرفاء فيمن بعدهم.

فالشائعة كالنقد المزيف الذي يسكّه المجرمون العتاة، ويتداوله الشرفاء، وتستمر على أيديهم الجريمة دون أن يعلموا ماذا يفعلون<sup>(٣)</sup>.

#### رابعًا: الحال التي تسببت في الشائعة:

استغلَّ أهل الزور حال الخلوَّة التي لم تكن مقصودة، وإتّما ساق القدر أن تنشغل السيِّدة عائشة - رضي الله عنها - بجمع حَبّات عقدها المتناثر، فيفوتها الركب لظنّهم أنّها داخل الهودج لتجد نفسها وحيدة البرِّ، ويشاء الله أن ييسر لها من يجدها ويرجعها إلى أهلها فيكون ذلك الرجل الذي اتهموها به زورا ليرجعها، والذي يظهر في الرواية أنّها كانت طفلة صغيرة حتّى أنه قد بلغها النعاس فنامت - رضي الله عنها -، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ

١ - أم مسطح القرشية التيمية ابنة خالة أبي بكر الصديق اسمها رائطة، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٨/٨٠٣).

٢ - المرط بالكسر: واحد المروط، وهي أكسية من صوف أو خز كان يؤتزر بها، انظر الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: الهروي (ص ٧٦).

٣ - يُنظر: نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار، الصويان (ص ٢٩).

الْحِجَابُ فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأَنْزَلَ فِيهِ فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنْ غَزْوَتِهِ تَلَّكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أذُنَ لَيْلَةٍ بِالرَّحِيلِ، فَقَمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارِ قَدٍ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرِحُلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَيَّ بِعَيْرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنِّي فِيهِ... يَسْتَنْكِرُ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثَقَلَ الْهُودَجُ فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عَقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَامْتَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمَعْطَلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَاتَّانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَبَّ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعْرَسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ».

وهكذا تنتشر الشائعات في المجتمعات، فترى بعضاً يطلقن أفواههم بمقولة «لا دُخان بدون نار»، وبعضهم قد يغيب عنه الرشد لأسباب متعددة فيأخذ بالاستنتاجات والتحليلات الشيطانية التي تسهم في نشر الشائعة في أقصر وسيلة وأسرعها.

#### خامساً: الجهة التي استهدفتها الشائعة

من خلال النص الذي تم إيرادَه مطوّلاً، نجدُ أنّ الذين استهدفتهم الشائعة هم المحصنون والمحصنات، بله زوج النبي المصطفى -صلى الله عليه وسلم- نبي الأمة وحامل الرسالة وسيد القوم، وأحب نساء إليه، وأزواجه أمهات المؤمنين

لسن كأحد من النساء، لا بل استهدفت هذه الشائعة الدعوة المحمدية برمتها، والمجتمع النبوي بأسره لأن ما يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويؤذي آل بيته الطاهرين هو إيذاء للمجتمع الإسلامي بأسره، لذلك بقي المسلمون شهرًا كاملاً لا يهدأ لهم بال ولا نفس حتى أنزل الله في هذا الشأن ما يقطع هذه الفتنة ويبرئ صاحبة الصون والطهارة، ويبدد الشائعة الخبيثة.

وأما صفوان بن المعطل<sup>(١)</sup> الذي رُمي بالسيدة عائشة - وحاشاهما - يأتي النص النبوي شهادة لعفته وطهارته، تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «ما كشف كنف امرأة حتى استشهد».

سادساً: الوسائل التي استخدمها مروجو هذه الشائعة:

لا يدخر مروجو الشائعات والأراجيف أي وسيلة يقعون عليها في سبيل إذاعة شائعاتهم، لذلك تراها تنوع في كل عصر وحين، وتتخذ أشكالاً وصوراً متعددة، وهذا ما يُشاهد في عصرنا اليوم من تسخيرهم المجالات والجرائد والقنوات الإعلامية ووسائل التواصل الاجتماعي في سبيل ذلك.

ونظرة إلى ما جاء في الحديث في بعض روايات السيدة عائشة - رضي الله عنها -، تستطيع أن تدرك التفنن في الأساليب، والحرص الشديد الذي كان عند ابن أبي سلول في سبيل تحقيق مآربه ونشر حادثة الإفك:

جاء عند البخاري في كتاب التفسير، باب سورة النور من قول عروة: «وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة». وفي لفظ آخر أورده البخاري: «قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره»

١ - صفوان بن المعطل بن ربيعة بالتصغير بن خزاعي، قال البغوي سكن المدينة وشهد صفوان الخندق والمشاهد في قول الواقدي ويقال أول مشاهده الميسع، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (٤٤٠/٣).



وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ».

إذن يمكن تلخيص الوسائل التي وردت في الحديث على النحو الآتي:

١- يَسْتَوْشِيهِ: يتبين من هذا اللفظ أن ابن أبي سلول حاول استنفاد جميع الوسائل، إذ تحمل هذه الكلمة دلالات متعددة وهذا يتضح من أقوال الشراح على النحو الآتي: يقول ابن حجر: «يَسْتَوْشِيهِ: أي يَسْتَخْرِجُهُ»<sup>(١)</sup>. وقد أشار ابن بطلال إلى صورة الاستخراج بأن يَأْتَلَفُ عليه وَيَسْتَدْعِيهِ وَيَسْتَخْرِجُهُ كما يستخرج الفارس جري الفرس بعقبه وبالسوط، كل ذلك طالب ما عنده ليزيده<sup>(٢)</sup>. ويقول النووي: «أي يستخرجه بالبحث والمسئلة ثم يَفْشِيهِ وَيَشِيْعُهُ وَيَحْرِكُهُ»<sup>(٣)</sup>.

٢- يَجْمَعُهُ.

٣- كَانَ يُشَاعُ وَيَتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ: يجيش الجيوش والعناصر لنشره.

٤- فَيَقْرَهُ: ويؤكد لكل من يأتيه للتأكد من الخبر.

٥- وَيَسْتَمِعُهُ: يفتح المجال للسمع والاستماع بمجالسه وحضوره.

إنّ هذه الوسائل التي وردت في الأحاديث الشريفة والتي تعنى بنشر الشائعة وإثارة القلق وإفساد أمن المجتمعات، هي نفسها في كل عصر وحين إلا أنّها مع تطوّر الزمان قد صبّت في قوالب وأشكال متعددة مع اتحاد المضمون والمحتوى؛ فمجلس ابن أبي سلول قد نُسِجَ على مثيله المجالس والنوادي والمقاهي والديوانيات ونُسِجَ على مثيله المجالس الالكترونية في شبكات التواصل الاجتماعي المتنوعة

١- فتح الباري (شرح صحيح البخاري): ابن حجر العسقلاني (١/ ٢٠٥).

٢- شرح صحيح البخاري، لابن بطلال: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي (١٥/ ٤٤).

٣- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (١٧/ ١١٦).

على شكل محادثات فردية أو جماعية، تستخرج وتحرك وتشيع ويُشاع فيها وتقرّ ويستمع إليها، والفئات التي تكون في أطرافها هي نفسها في ذاك الزمان وهذا اليوم ففيها العدو المتربص الذي يمكر ويشيع كوكالات الأنباء التي تُريد المكر بأمن المجتمعات الإسلامية، وفيها المتورطون الذين لا يثبتون فيقعون فريسة نشر الأخبار الكاذبة وزعزعة أمن البيوت والمجتمعات من حيث لا يشعرون.

سابعاً: أثر شائعة الإفك على المجتمع النبوي:

١- بثّ القلق والتوتر وإيقاع الظلم على الأبرياء:

ترى الباحثة أن الإشاعة أخطر من الأسلحة المدمرة، وأنّ مسمّى الحرب الباردة قد يكون مضطرباً من أهون المصطلحات التي قد تطلق عليها، لما تقوم به من تشكيل معاول الهدم على صعيد الفرد والأسرة والحكومات والمجتمع بأسره؛ فكم أقلقّت من بيوت كانت السكينة تعمّها! بسبب ما يُتحدّث في المجالس عن فلان وفلانة في العرض والدين والمال والكرامة وما يعقبه من إحداث الأذى بنظرات التهمة أو التفريق بين الأرحام والأزواج، وكم آلت من نفوس بريئة! وكم تسبّبت في جرائم بسبب عدم التروي عند سماع الخبر وإيقاع الأذى على الضحية، أو إثارة الشغب والمظاهرات التي تُزعزع أمن الدولة واستقرارها، وكم فكّكت من علاقات! بين الجماعات والعلماء فشئت شملهم وأبطلت سعيهم، وظلمت جلّهم، وفرّقت بين الراعي والرعيّة فأفقدتهم الولاء والمواطنة والطّاعة؛ ففي حادثة الإفك تجلّي النصوص الحال الشديدة التي حلّت بالسيدة عائشة - رضوان الله عليها - والتي اتهمت زورا وبهتانا وظلماً، حيث بقيت دموعها منذ أن سمعت الإشاعة شهراً كاملاً لم تتوقف حتى كاد البكاء أن يفلق كبدها - على حدّ تعبيرها -، ولا يُستغرب؛ فبعض الدموع مقتل نفسي وجسدي لصلتها بالغدد الهرمونيّة الدماغية المسؤولة عن إفرازها:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبَدِي -  
 قَالَتْ - فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذِ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ  
 لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ -». وفي رواية أخرى قالت: «حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ وَبَكَيتُ يَوْمِي لَا يَرْفَأُ  
 لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبُو آيٍ قَدْ بَكَيتُ». وفي رواية: «فَحَرَّتْ  
 مَغْشِيًّا عَلَيْهَا فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ فَطَرَحَتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا فَغَطَّيْتُهَا فَجَاءَ  
 النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا شَأْنُ هَذِهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَتْهَا الْحُمَّى  
 بِنَافِضٍ قَالَ فَلَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحَدِّثُ بِهِ قَالَتْ نَعَمْ فَفَعَدَدْتُ عَائِشَةَ فَقَالَتْ وَاللَّهِ لئن  
 حَلَفْتُ لَا تُصَدِّقُونِي وَلئن قُلْتُ: لَا تَعْدِرُونِي مِثْلِي وَمِثْلَكُمْ كَيْعُقُوبَ وَبَنِيهِ ﴿ وَاللَّهُ  
 الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾».

وتزداد مرضاً على مرضها، تقول: «فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهِمٍ  
 نَمَشِي فَعَثَرْتُ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ تَعَسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بئْسَ مَا قُلْتَ أَتَسْبِينِ رَجُلًا  
 شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ يَا هِنْتَاهُ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ  
 مَرَضًا إِلَى مَرَضِي».

ويتغير النبي - صلى الله عليه وسلم - عليها لأنه بشرٌ، يريد أن يتثبت ويتيقن  
 ويتريث قبل أن يصدر حكمه، فلا يجالس السيدة عائشة - رضي الله عنها - كما  
 كان يجالسها من قبل ويبقى على ذلك شهراً كاملاً، ويسأل عن أخبارها بالإشارة  
 لا بالعبرة مع شدة مرضها؛ تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «فَقَدِمْنَا  
 الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِيْبِنِي فِي وَجْعِي  
 أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ  
 إِغْمًا يَدْخُلُ فَيَسْلُمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تَيْكُمُ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ».

بل يستشير النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في طلاقها؛ تقول: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ».

لقد بلغت السيدة عائشة - رضي الله عنها - من الحزن الشديد؛ الأمر الذي دعا أمها تقول: «هُوَ نِي عَلَى نَفْسِكَ الشَّانَ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ».

ولم تقتصر دواعي ألمها وحزنها وبكائها على ما تسبب لها الحادث من ألم في نفسها، بل كانت تحمل همّ افتراق كلمة الحيين من الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي سلول بعد أن أَلَّفَ الله بين قلوبهم، تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ وَبَكَيتُ يَوْمِي لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبُوَايِ قَدْ بَكَيتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي - قَالَتْ - فَيِينَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبِكِي إِذِ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذْنَتْ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي».

وهكذا الإشاعة تفعل فعلها في أمن المجتمعات ومعنويات أفرادها .

## ٢- إثارة الفتن والاحتراب في المجتمع الواحد وإرباك الرأي العام:

إنّ الاضطراب الذي حدث في المجتمع النبوي بسبب تناقل حادثة الإفك لم يقف عند مسألة القلق الأسري والتوتر الفردي، بل عصفت بمجتمع المدينة بأسرها شهرا كاملا؛ إذ أثارت هذه الشائعة الحمية والانقسام بين صفوف المجتمع، ولولا لطف الله وعنايته لعصفت هذه الإشاعة بالمجتمع النبوي وذلك عندما استعذر النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمر ابن أبي سلول بمعاقبته على جريمته، فيقبل

سعد بن معاذ وهو خزرجي، وتأخذ الحمية سعد بن عبادة الخزرجي على عبد الله بن أبي سلول فينازع سعد بن معاذ ويرفض الإعذار بقتل رأس الفتنة، وتبدأ المُخاصمة والجدال والمنازعة حتى كاد أن يفضي ذلك إلى الاقتتال لولا حكمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

قالت عائشة - رضي الله عنها - : «فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعَذَرَ<sup>(١)</sup> مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا وَاللَّهِ أَعْذَرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرْبِنَا عَنْقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ أَحْتَمَلْتُهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدُرُ عَلَيَّ ذَلِكَ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تَجَادِلُ، عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَثَارَ الْحَيَّانُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ».

إنَّ الذي جرى بين الحيين من الخصام والمنازعة التي كادت أن تفضي إلى الاقتتال لولا حكمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبب الشائعة المشينة، يحدث اليوم في صور المظاهرات والشغب والتي تتطلب في هذه الأحوال لإيقافها حضور أصحاب العقول الرزينة الذين يتبعون منهج النبوة ويسيروا على سيرها.

١ - ومعنى من يعذرنى من يقوم بعذري إن كفاؤه على قبيح فعاله ولا يلومنى، وقيل معناه: من ينصرنى، والعذير: النَّاصر، انظر المنهاج شرح مسلم بن الحجاج: النووي (١٧ / ١٠٩).

## المطلب الثاني: شائعة طلاق النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه وأثرها في تهديد السلم المدني

سأورد الحديث مختصراً، مقتصرًا على موطن الشاهد لاحتواء الرواية على عدة موضوعات:

أولاً: عرض الحديث:

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ<sup>(١)</sup> فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهُمْ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا تَتَنَابَوُ النَّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزَلَ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِمَا حَدَّثَ مِنْ خَيْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ، أَوْ غَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ..... وَكُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعَلُ الْخَيْلَ لِعَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوَيْتَهُ فَرَجَعَ إِلَيْنَا عَشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَتُمْ هُوَ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ حَدَّثَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَ غَسَّانُ قَالَ: لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَلُ طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ فَقُلْتُ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشْرَبَةً لَهُ فَاعْتَزَلَ فِيهَا وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي فَقُلْتُ مَا يُبْكِيكَ أَلَمْ أَكُنْ حَذَرْتُكَ هَذَا أَطَلَقَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَا أَدْرِي هَا هُوَ ذَا مُعْتَزَلٌ فِي الْمَشْرَبَةِ فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْمَشْرَبَةَ الَّتِي فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِعُغْلَامٍ لَهُ أَسْوَدٌ اسْتَأْذَنَ لِعَمْرٍ فَدَخَلَ

١ - هو عتبان بن مالك، انظر: عمد القاري: شرح صحيح البخاري، العيني بدر الدين (٨٥٥) (٢/ ١٠٥).

الْغُلَامُ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ كَلَّمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَأَنْصَرَفْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ فَقُلْتُ لِلْغُلَامِ اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَدْخُلْ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَدْخُلْ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا قَالَ: إِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ قَدْ أَذِنَ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَقْتَ نِسَاءَكَ فَرَفَعَ إِلَيَّ بَصَرَهُ فَقَالَ: لَا فَقُلْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ..... فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبَسُّمَةً أُخْرَى فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتَهُ تَبَسَّمَ...»<sup>(١)</sup>.

ثانيًا: مصدر الشائعة والحال التي دعت لتناقضها

يتناقل الناس الأخبار والحكايات الخاصة بالسادة والكبراء على تشوق واهتمام، وينقسم الناس في ذلك إلى صنفين؛ أحدهما يتناقضها بدافع المحبة والاهتمام ورعاية الخاطر، والآخر بدافع الفتنة والتشويه والتسليية؛ فالأول محمودٌ مع مصاحبة التثبت، والثاني مذمومٌ بجميع جوانبه؛ ولا شك أن شائعة تطبيق النبي -صلى الله عليه وسلم- أزواجه من الأمور التي تجلب اهتمام الصنفين على الوجه الذي يبتغيه كل منهما في النية والقصد، فالمنافقون يتصيدون من الأخبار ما يظنون أنهم عثروا به على الصيد الثمين اإذاً لرسول الله وللمؤمنين، والصحابة الكرام يهتمون لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رعاية له واجللاً.

ربما لم يبرز في هذه الحادثة دور المنافقين كما الأولى (حادثة الإفك) ولكن

١ - متفق عليه: أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، حديث رقم: ٤٨٥٩. وأخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب في الايلاء واعتزال النساء، حديث رقم: ١٤٧٩.

هذا لا يعني وجود يد خفية لم يذكرها الحديث لأنها ليست موضع الحديث ولا مضمونه، ولكن يتجلى في الحادثة جار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذلك الأنصاري من بني أمية وهم من عوالي المدينة والذي كان يتناوب النزول على النبي - صلى الله عليه وسلم - معه للمجيء بما حدث من خبر ذلك اليوم:

قَالَ عُمَرُ - رضي الله عنه -: «وَكُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعَلُ الْخَيْلَ لِعَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ إِلَيْنَا عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَتَمَّ هُوَ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَ غَسَّانُ قَالَ: لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَلُ طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ».

قال الكرمانى: «لما ظن الأنصاري أن الاعتزال طلاق أو ناشيء عن طلاق أخبر عمر بوقوع الطلاق جازما به، فلما استفسر عمر عن ذلك فلم يجد له حقيقة كبر تعجبا من ذلك»<sup>(١)</sup>.

التأمل للنص النبوي يرى أنه يشير إلى سبب الإشاعة وهو التوهم والظن الناشئ عن اعتزال النبي - صلى الله عليه وسلم أزواجه -.

يقول ابن حجر العسقلاني: «وكذا جزم الناس الذين رأهم عمر عند المنبر بذلك محمول على إنهم شاع بينهم ذلك من شخص بناء على التوهم الذي توهمه من اعتزال النبي - صلى الله عليه وسلم - نساءه فظن لكونه لم تجر عاداته بذلك أنه طلقهن فأشاع أنه طلقهن فشاع ذلك فتحدث الناس به واخلق بهذا الذي ابتداء بإشاعة ذلك أن يكون من المنافقين»<sup>(٢)</sup>.

١ - عمدة القاري، العيني (٢ / ١٠٥).

٢ - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٩ / ٢٣٩).



ثالثاً: الآثار التي أحدثتها شائعة طلاق النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه في المجتمع النبوي:

#### ١- إحداء الغضب والقلق

يتضح هذا من موقف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فور سماعه الشائعة، حيث ألم به الغضب والقلق اللذان لم يجعلاه ينتظر للصباح، فيذهب لابنته حفصة - رضي الله عنها - لومها ومعاتبها، ويجلس أمام بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مصراً على لقائه للتأكد من الخبر:

يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ نِيَابِي فَفَزَلْتُ فَدَخَلْتُ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا أَيُّ حَفْصَةَ اتَّغَضِبُ إِحْدَاكُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ قَالَتْ نَعَمْ فَقُلْتُ قَدْ خَبِتِ وَخَسِرَتْ أَفْتَأْمِنِينَ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِعُضْبِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَهْلِكِي لَا تَسْتَكْثِرِي النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ ، وَلَا تَهْجُرِيهِ وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكَ ، وَلَا يُعْرَنِّكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتِكَ أَوْضَاءً مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُرِيدُ عَائِشَةَ» .

ولكي نتصوّر هول الخبر وشدّة وقوعه في نفس الانصاريّ كفرد من أفراد المجتمع النبويّ، ننتقل لتأمل تصوير الحديث لحال الأنصاري - رضي الله عنه - وهو ينقل الخبر وحال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في تلقيه: «قَالَ عُمَرُ وَكُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تَنْعَلُ الْخَيْلَ لِعَزْوِنَا فَفَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نُوْبَتِهِ فَرَجَعَ إِلَيْنَا عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَتَمَّ هُوَ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَ غَسَّانُ قَالَ: لَا بَلَّ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَلُ طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ فَقُلْتُ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ» .

فالأنصاري لا ينتظر إلى الصباح، بل يضرب الباب ضرباً شديداً حتى أحدث الفرع لعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - : «ففرغت» لدرجة انه خطر بباله النبأ الشديد وهو حصول ما كانت غسان تتوعد به، ويزيد من شدة الفرع قول الأنصاري: «حدث اليوم أمر عظيم» بل ويعتبره أشد مما يظنه عمر من حصول الغزو فيقول: «بل أعظم من ذلك وأهول طلق النبي - صلى الله عليه وسلم - نساءه».

وينقل الحديث مشهداً آخرًا معبراً عن ذلك القلق الذي حدث في المجتمع يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه: «فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُّ».

ولم تنفرج أسارير عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ولم يزل همه إلا بعد أن تبسم له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نافيا له خبر الطلاق الشائع المتوهم.

إنّ القلق الذي أحدثته الإشاعة في هذه الحادثة له بعده الاجتماعي على الصعيد الأسري والمجتمعي، لذلك كانت مظنة الطلاق أمراً عظيماً بالنسبة إلى عمر - رضي الله عنه - لا سيما ان ابنته إحدى زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا ينطوي على الطلاق وما يسببه في بيت الفتاة وأهلها.

يقول العيني: «قوله: «أمر عظيم» أراد به اعتزال الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أزواجه الطاهرات - رضي الله عنهن - فإن قلت ما العظمة فيه قلت كونه مظنة الطلاق وهو عظيم لاسيما بالنسبة إلى عمر - رضي الله تعالى عنه - فإن بنته إحدى زوجاته»<sup>(١)</sup>.

لقد دأبت بعض المجالس وخاصة النسائية منها سواء الحقيقية أم الالكترونية على التفكك في الخصوصيات الاجتماعية، ونشر الأخبار الكاذبة والمزورة فيما

١ - عمدة القاري، العيني (١٠٥ / ٢).

يتعلّق بها في شؤون الزواج والطلاق وغيرها وما تلبث أن تُشاع حتى تولّد الغضب والقلق في الأسر الآمنة فتحوّل سكينتها إلى اضطراب ، ويحصل للحاقد ما أراد بسبب عدم تثبيت السّامع ، وبسبب جهل النّاقل .

المطلب الثالث: إشاعة خبر مقتل النّبي صلّى الله عليه وسلّم وأثرها في تهديد السّلم المدنيّ

تتخذ شائعة خبر مقتل النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - بعداً عسكرياً وسياسياً ، لا سيما وأنها أطلقت بالمعركة كنوع من أنواع الحرب النفسيّة التي مقصدها زعزعة الصّفوف وحصول الهزيمة للطرف الآخر مع ما تجلبه من إراقة الدماء والفرار أمام الأعداء وخوار العزيمة .

أولاً: مصدر الشّائعة:

تشير الرّواية إلى أن الشّائعة انطلقت من الشّيطان الذي أخذ على عاتقه أن يحزن المؤمنين فكان منه أن أطلق تلك الشّائعة التي - بلا شك - هي كالصّاعقة في وقعها على الأنفس:

يقول الزّبير بن العوّام - رضي الله عنه - : « و الله لقد رأيتني أنظر إلى هند بنت عُتبة و صواحبها مشمّرات هوارب ما دون أخذهن قليل و لا كثير إذ مالت الرّماة إلى العسكر حتى كشفنا القوم عنه يريدون النهب و خلوا ظهرنا للخيل فأتينا من أدبارنا و صرخ صارخٌ إلا أن محمداً قُتل فانكفأنا و انكفأ بعد أن أصبنا اللواء اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم»<sup>(١)</sup> .

وفي لفظ آخر: « و صاح الشّيطان: قُتل محمد فلم يشكوا فيه أنّه حق فما

---

١ - اخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب المغازي والسرايا، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه " ، وقال الذهبي في التلخيص (على شرط مسلم)، حديث رقم: ٤٣١٦ .

زلنا كذلك ما نشك أنه قد قُتل حتى طلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين السَّعدين فعرفناه بتكفيه إذا مشى قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا قال: فرقى نحونا وهو يقول: اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبيهم، قال و يقول مرة أخرى: اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا حتى انتهى إلينا، قال فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل أعل هبل، أعل هبل...»<sup>(١)</sup>.

ثانيا: أثر شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد في السلم المدني: ينقل الحديث الأثر الجسيم الذي حل بسبب شائعة مقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - وكيف فعلت بالجند فعل النار في الهشيم؛ إذ سرعان ما تحوّل سير المعركة من النصر إلى الهزيمة، بعد أن رفعت نساء قريش لواءهن إعلاناً عن نصر المشركين.

قال ابن حجر: «فلما وقعت الهزيمة فيمن انهزم وصاح الشيطان قتل محمد اشتغل كل واحد منهم بهمه والذب عن نفسه»<sup>(٢)</sup>.

لا بل أثرت تلك الشائعة على النفوس بأن صاحبها الخوف والرهبة والزرعة؛ ففر من فر من المسلمين؛ فقد روى مسلم من طريق ثابت عن أنس قال: «أُفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال «من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة». فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضاً فقال «من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة». فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لصاحبيه «ما أنصفنا أصحابنا»<sup>(٣)</sup>.

- ١ - أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب التفسير، سورة آل عمران، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد"، وقال الذهبي في التلخيص: (صحيح)، حديث رقم: ٣١٦٣.
- ٢ - فتح الباري - ابن حجر (٧ / ٣٦٠).
- ٣ - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، حديث رقم: ١٧٨٩.

قال ابن حجر: «وكأن المراد بالرجلين طلحة وسعد وكأن المراد بالحصر المذكور في حديث الباب تخصيصه بالمهاجرين فكأنه قال لم يبق معه من المهاجرين غير هذين وتعين حمله على ما أولته، وأن ذلك باعتبار اختلاف الأحوال وأنهم تفرقوا في القتال فلما وقعت الهزيمة فيمن انهزم وصاح الشيطان قُتل محمد اشتغل كل واحد منهم بهمّهم والذب عن نفسه... ثم عرفوا عن قرب ببقائه فتراجعوا إليه أولاً فأولاً ثم بعد ذلك كان يندبهم إلى القتال فيشتغلون به»<sup>(١)</sup>.

لك أن تتصوّر كمال التّصور ودقته أثر تلك الشائعة بما أعقبته من جريح وقتيل، ولم تنكشف هذه الغمّة إلا بلطف من الله وتوفيقه ليتأكد كذب الإشاعة وذلك بعد أن طلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد شجّ وجهه بعد ما أحدثته هذه الشائعة من خذلان البعض وتجراً العدو على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «صاح الشيطان: قُتل محمد فلم يشكوا فيه أنه حقّ فما زلنا كذلك ما نشكّ أنه قد قُتل حتى طلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -... ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا...».

من المؤكد أن الحرب خدعة، إذ لا تنحصر أدوات الحرب ووسائلها على المواجهة بالسلح المادي، ولا يتوقف الهزيمة أو النصر على الآليات وشجاعة الشجعان، لقد أثبتت الصراعات والحروب والمنازعات بين الأطراف أنّ الشائعة من شأنها أن تغير سير المعركة وتحوّلها من النصر إلى الهزيمة أو العكس، لما تحدّثه من تفرق واضطراب في الصفوف وزعزعة النفوس، كإشاعة خبر مقتل القائد الذي يعدّ وجوده رفعا للروح المعنويّة، فإذا أحدثت شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم - ما أحدثت من هزيمة وتفرق وقتل وضعف في النفوس البشريّة في ذلك الزمان، فكيف لك أن تتصور أن يكون فعل الشائعة التي تتعلق بأمن الدول

١ - فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (٧ / ٣٦٠).

وجيوشها وأركانها في هذا الزمان الذي ضعفت فيه النفوس واستكانت!

### المبحث الثاني: المنهج النبوي في التعامل مع الشائعات

ما تمّ عرضه في المبحث السابق من الآثار التي تسببها الشائعات في السّلام المجتمعي هو نزرٌ يسير من الويلات والمصائب والقبايح التي تُرافقها أو تتبّع حدوثها، وذلك لأنّه تمّ استخلاصها من نماذج وحوادث معدودة لا تعدّ ظاهرة بسبب أفضلية المجتمع النبويّ وخيريته، وما حصل إنما هو مجرد أحداث قدّرها الله لتكون تشريعا ودرسا يسير عليه المسلمون سيرهم في كل زمان ومكان، لقد فتكت الشائعات بالمجتمعات على جميع الصُّعد؛ في أمنها السّياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وفي جميع المجالات، و على مستوى الشخصيات والأفراد وعلى مستوى طبقات المجتمع بتكويناته ومظاهره، ولِعظم ما تسببه من زعزعة السّلم المدنيّ وهوله كان لا بدّ على المجتمعات بقياداتها ومؤسساتها وأفرادها أن تمنع انتشارها وتوقف مدها بالتصدي لها ومعالجة حدوثها.

ولقد تجلّى المنهج النبويّ في أبلغ صورته في التّعامل مع شائعة خبر الإفك وطلاق النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - أزواجه، ومقتله - صلى الله عليه وسلم - بله في منهج الصّحابة الكرام الذين استقوا منهجهم من قائدهم المبلّغ عن رب العالمين، تمثّل في قواعد وآداب تحول دون توسع انتشار الشائعة، وتحدّ من آثارها المتوقعة.

### المطلب الأول: المنهج الوقائي لمنع انتشار الشائعات

جاء المنهج النبويّ يبين ويوضّح كراهية كثره الكلام ونقله لما يؤوّل إليه من الخطأ، فكثرة الكلام من أهمّ الوسائل الحاملة والدافعة للإشاعة:

عن المغيرة بن شعبه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ

لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»<sup>(١)</sup>.

إن الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام وتكريرها تفيد الزجر عن حكاية أقاويل الناس والبحث عنها ليخبر عنها فيقول فلان كذا وقيل كذا؛ ومحل الكراهة أن يكثُر بحيث لا يؤمن معه الزلل فينقل من غير تثبت ولكن يقلد من سمعه ولا يحتاط له، وهذا بالفعل هو ما يحصل في الشائعة ويسهم في تولدها.<sup>(٢)</sup>

ومما جاء يؤيد هذا المعنى:

عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع». <sup>(٣)</sup>

إذ لو لم يكن للرجل إثما إلا تحدّثه بكل ما يسمعه من غير بيّنة يكفيه من الإثم لأنه إذا تحدّث بكل ما يسمعه لم يخلص من الكذب إذ جميع ما يسمع ليس بصدق بل بعضه كذب فعليه أن يبحث ولا يتحدّث إلا بما ظن صدقه.<sup>(٤)</sup>

١ - متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: "لا يسألون الناس إلحافاً". حديث رقم:

١٤٠٧، ومسلم، كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل، حديث رقم: ١٧١٥.

٢ - يُنظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٤٠٧/١٠).

٣ - أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب «كفى بالمرء أن يحدث بكل ما سمع»، حديث رقم: ٥، قال النووي: "فَهَكَذَا وَقَعَ فِي الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ وَكِلَاهُمَا عَنْ شُعْبَةَ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عُذْرٌ عَنْ شُعْبَةَ فَأَرْسَلَهُ. وَالطَّرِيقِ الثَّانِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَفْصِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: الصَّوَابُ الْمُرْسَلُ عَنْ شُعْبَةَ، كَمَا رَوَاهُ مُعَاذُ وَابْنُ مَهْدِيٍّ وَعُذْرٌ، قُلْتُ: وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ أَيْضًا مُرْسَلًا وَمُتَّصِلًا فَرَوَاهُ مُرْسَلًا عَنْ حَفْصِ بْنِ عُمَرَ النَّمِيرِيِّ عَنْ شُعْبَةَ وَرَوَاهُ مُتَّصِلًا مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ حَفْصِ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ رُوِيَ مُتَّصِلًا وَمُرْسَلًا فَالْعَمَلُ عَلَى أَنَّهُ مُتَّصِلٌ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي قَالَهُ الْفُقَهَاءُ وَأَصْحَابُ الْأُصُولِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَلَا يَضُرُّ كَوْنُ الْأَكْثَرِينَ رَوَوْهُ مُرْسَلًا، فَإِنَّ الْوَصْلَ زِيَادَةٌ مِنْ ثِقَةٍ وَهِيَ مَقْبُولَةٌ". انظر النووي: شرحه على مسلم: (١ / ٧٥).

٤ - انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي: زين الدين محمد (ت ١٠٣١). (٤ / ٧٢١).

إن كثرة الكلام توقع صاحبه في عثرات اللسان، لذلك دأب الصالحون على مجانبة مجالس اللغو، لما تسوقه من ويلات في الدين والدنيا، وكان الصمت سمت للحكماء، وفضيلة يتحلى به العلماء الربانيون.

المطلب الثاني: المنهج العلاجي للحد من آثار وقوع الشائعات

أولاً: منهج التثبت من الأخبار:

جاء الأمر بالتثبت في قبول الأخبار في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات: ٦، واتباعاً لهذا الأمر الرباني؛ فإنه يكون محتماً على كل من يصله الخبر أن يتثبت سواء أكان هو الجهة المستهدفة بالإشاعة أو غيرها.

لذلك تجد السيدة عائشة - رضي الله عنها - في حادثة الإفك ما إن سمعت بالخبر تستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتستيقن الخبر من أبيها: تقول عائشة - رضي الله عنها: «وَأَنَا حِينَئذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهَا فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُ أَبِي فَقُلْتُ لَأُمِّي مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ».

وكذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في حادثة خبر طلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - أزواجه تراه يذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليستيقن منه: يقول - رضي الله عنه -: «فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَجِئْتُ الْمَشْرَبَةَ الَّتِي فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِعَلَامَ لَهُ أَسْوَدَ اسْتَأْذَنَ لِعُمَرَ فَدَخَلَ الْعَلَامُ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ كَلَّمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبني



مَا أَجْدُ فَجِئْتُ فَقُلْتُ لِلْغُلَامِ اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَدَخَلَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجْدُ فَجِئْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ فَدَخَلَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ فَلَمَّا وَكَيْتُ مُنْصَرَفًا قَالَ: إِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ قَدْ أذِنَ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِنًا عَلَيَّ وَسَادَةَ مِنْ أَدَمٍ حَشَوَهَا لَيْفٌ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَقْتَ نِسَاءَكَ فَرَفَعَ إِلَيَّ بَصْرَهُ فَقَالَ: لَا فَقُلْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ».

لقد ارتضى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- منهج التثبيت لنفسه أتباعاً للمنهج النبوي وذلك من خلال الرجوع إلى أهل الاختصاص وأولي الأمر، فما أن سمع شائعة طلاق النبي -صلى الله عليه وسلم- لأزواجه حتى ذهب يسأل زوجه، وبعدها يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثانياً: الترفق بمن وقعت عليه الإشاعة حين البيان:

يكون ذلك بحسن المعاملة والرفق، ومحاولة عدم نقل الإشاعة إليه، ويتمثل في عدة أمور هي:

١- عدم نقل الأخبار المقلقة لأصحابها إلا بعد التيقن:

كثيرون هم الذين يقعون ضحايا الإشاعات فيضطلون بناها وتؤرق ليلهم ونهارهم، لذلك ينبغي أن لا يُنقل الخبر المقلق لصاحبه إلا بعد التيقن وخاصة في حال مرضه أو تعبهُ أو إحاطته ببعض الظروف التي قد تجمع عليه الهموم وتفقده الأمن النفسي، لقد مرَّ الشهر ولم تُخبر السيدة عائشة -رضي الله عنها- بما يشاع لمرضها ولصغر سنّها ولعظم الأمر وهوله، إذ إنها لم تُرم بأمر هين بل رُميت بعرضها

- وحاشاها - ، ولم يأتها الخبر إلا عندما عثرت أم مسطح بثوبها وقالت ما قالت:

تروي السيدة عائشة - رضي الله عنها - فتقول: «فَأَشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكَ وَيَرِيْبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرُضُ إِذَا يَدْخُلُ فَيَسَلُّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تَيْكُمُ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُفَ خَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحَ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرِّزْنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُفْ قَرِيبًا مِنْ بَيْوتِنَا وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ، أَوْ فِي التَّنْزِهِ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحَ بِنْتُ أَبِي رُهِمٍ نَمْشِي فَعَثَرْتُ فِي مَرَطِهَا فَقَالَتْ تَعَسَ مِسْطَحُ فَقُلْتُ لَهَا بئسَ مَا قُلْتَ أَنْسِينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ يَا هَتَاهُ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكَ فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي».

## ٢- اللطف والأسلوب الرقيق عند المصارحة:

قالت عائشة - رضي الله عنها - : «وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ» - قَالَتْ - فَتَشْهَدُ ثُمَّ قَالَ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتُ بَرِيئَةً فَسَيَبْرُتُكَ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتُ أَلَمْتُ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهُ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

وما إن انتهى النبي - صلى الله عليه وسلم - من كلامه مع السيدة عائشة - رضي الله عنها - بعد صمت طويل حتى أثمر ذلك طمأنينة وسكينة في نفسها، ولم يكن ذلك لولا كلامه الرقيق الهادي الرافي فيقلص دمعها، ولكن هي في حال لا تملك فيه الإجابة لأنها أعلم بحالها، ولكن ما قيل وأشيع أكبر من ذلك وأعظم لذلك طلبت من أبيها أن يجيبا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت: «فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً»

وَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ  
لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقُلْتُ لِأُمِّي أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

### ٣- التّخفيف من وقع الإشاعة والمواساة:

وهذا ما قامت به أم السيدة عائشة - رضي الله عنهما فقالت: «يَا بِنْتِي هَوْنِي  
عَلَى نَفْسِكَ الشُّأْنُ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ أَمْرًا قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ  
إِلَّا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ  
حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقُّ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ». ولا يستغرب هذا التّعامل مع  
الصدّيقة ابنة الصديق ولأنّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

### ٤- استصحاب الثقة لمن هم أهل لها

قد يتبادر إلى الذهن أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد طرأ عليه الشك  
في زوجه الطاهرة وذلك من الحال الذي وصفته السيدة عائشة - رضي الله عنها،  
وبسؤال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن حال أهله، وقد يضطرّ أحدهم أن  
يقول ذلك مقدّمًا العذر لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأن هذا الأمر  
مستدع لذلك حتماً قياساً على ما يحدث في أعراف البشر، ولكن أنوار النبوة  
ونور الوحي وهدية لا تُقاس عليه تلك الأعراف الخاطئة المتسرعة.

ولكن ما تفسير ما حصل من حاله وسؤال أصحابه؟، وهل يشكل ذلك انسحاباً  
من الثقة أو تغييرها إلى حال أخرى أو ضعفها؟

وتظهر الحقيقة من خلال النصوص الشريفة التي تصور موقفه بعد ذلك  
وبعد السؤال والتّحري وإطلاق النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قوله وشهادته  
في أهله، التي آثر أن يؤخرها حتى يضمّ إلى قوله قول من رافق النبي - صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم - وأهله من الصَّحْبِ والقِرابَةِ فعليُّ بنُ أبي طالبٍ قد ربَّاهُ النَّبِيُّ - صلى اللهُ عليه وسلم - في بيته، وأسامَةَ - رضي اللهُ عنه - الذي كاد يظنُّ الناسُ أنه ابنه فنزلت آيةُ التَّبَنِى، وبريرة - هي الخِدامُ التي ترافقُ زوجَ النَّبِيِّ - صلى اللهُ عليه وسلم -، لكي يخرجَ النَّبِيُّ - صلى اللهُ عليه وسلم - قراره بكلِّ ثقةٍ وجرأةٍ لمن أذى بيتَ أهله حتى لا يقالَ انتصر لزوجِه فيستعذر من عبدِ اللهِ بنِ أبي سلولٍ الذي روجَ الشائعةَ: فينادي بكلِّ جرأةٍ مع تصرُّيحه بثقته بزوجه وبصفوان بنِ المعطلِّ رضي اللهُ عنهما: «مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي».

بل ضمَّ إلى شهادة آل بيته وخدمه، شهادة الضرائر فتراه يسأل زينب - رضي اللهُ عنها - فيعصمها اللهُ بالورع وتشهد بالحقِّ رغما عما جرى في عادة الضرائر من تصيّد الفرص لإبعاد الزوجة المقرّبة لتستأثر هي بقلبه، ولكن بيت النبوة قد عصمه اللهُ بالورع:

تقول السيدة عائشة - رضي اللهُ عنها -: «كَانَ رَسُولُ اللهِ -- صلى اللهُ عليه وسلم يسألُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ يَا زَيْنَبُ مَا عَلِمْتَ مَا رَأَيْتَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا قَالَتْ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِنِي فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ».

ثالثاً: اتباع منهج ضبط النفس والتعقل والحكمة:

إنَّ النَّبِيَّ - صلى اللهُ عليه وسلم - بصفته النَّبِيِّ المبلِّغِ وقائدِ الأُمَّةِ قد آتاه اللهُ الحكمة فلا يتصوّر منه غير ذلك من اتباع المنهج الصحيح في تلقي الأخبار، فكيف إذا كان الأمر في أهل بيته وأحبِّ أزواجه إلى قلبه، مع ما كان يراه من الألم والحزن والشدة الذي ألمَّ بزوجه حتى كاد ذلك كله ان يرمي بها إلى التهلكة، إن

النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الحدث المؤلم باعتباره زوجًا للطاهرة التي وشى خبرها واستوشاه من وقع في الافك كان لا بد أن يرجع للمشاورة في هذا الأمر الجلل كعادته في كل أمر عظيم لذلك تراه يجمع خيرة أصحابه الذين تربطهم به صلة الصّحبة والقراة والمعرفة بزوجه المطلّعين على سيرة زوجته:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ. أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلَّ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقَكَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ يَا بَرِيرَةَ هَلْ رَأَيْتَ فِيهَا شَيْئًا يَرِيْبُكَ فَقَالَتْ بَرِيرَةُ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمَصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةٌ السَّنِّ تَنَامُ، عَنِ الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ».

رابعاً: السّعي إلى الإصلاح ودرء الفتن التي تولدها الشائعات:

تولد الإشاعات الفتن والافتتال والتفرق والانقسام مما يؤرق أمن المجتمعات على صعيد الأفراد والجماعات والحكومات، لذلك يجب على القادة والرؤساء وأولي الأمر أن يديروا الأزمات الناشئة عن هذه الإشاعات بحكمة وروية فلا يحملهم الغضب على اتخاذ القرارات التي تفتك بأمن المجتمعات وتحقق للماكرين غاياتهم:

فعندما استعذر النبي - صلى الله عليه وسلم - الاوس والخزرج من عبد الله بن أبي سلول يجري ما جرى من الاختلاف والتفرق حتى يكاد الحيان أن يقتتلا حمية وعصبية، فما يكون من الرسول القائد إلا أن يخفّضهم ويرجئ أمر ابن أبي سلول درءاً لفتنه مستعيناً بالله - عز وجل:

جاء في الرواية عن عائشة - رضي الله عنها - «فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا وَاللَّهِ أَعَذُّكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عَنْقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ أَحْتَمَلْتَهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَيَّ ذَلِكَ فَقَامَ أَسِيدُ بْنُ الْحُضَيْرِ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُتَجَادِلٌ، عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَتَارَ الْحَيَّانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ».

يحتاج أولو الأمر ومن يقوم مقامهم أن يتنازلوا في بعض الأحيان عن بعض ما يروونه ثأراً لعرضهم أو من سعى إلى نشر القلق والريبة، إذا كان في درئهم لهذا الضرر الخاص درءاً للضرر عام قد يسري أمره على سائر المجتمع وتتوسع آثاره بحيث لا ينفع بعدها الإصلاح وهذا يرجع لحكمة القائد وقياسه الأمور، وهذا ما فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - رغم خطورة الأمر.

خامساً: الاستعانة بالصبر والاحتساب والثقة والرجاء بما عند الله - عز وجل ووعده، وضبط النفس

لقد أيقنت السيدة عائشة - رضي الله عنها - بأن الله سيبرئها لأنها تعلم علم اليقين أنها بريئة فهي أعلم بنفسها، وهي تعلم بأن الله يدافع عن أوليائه الصالحين، فتراها تصبر وتحتسب وتستعين بالله - عز وجل -:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: «وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ فَقُلْتُ إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تَصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَكِنْ اعْتَرَفْتُ

لَكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَعَلَّمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ لِمَا تَصَدَّقْتَنِي وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فَرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبْرِئَنِي اللَّهُ وَلَكِنْ وَاللَّهُ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحَيًّا وَلَا نَا أَحَقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئَنِي اللَّهُ فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي يَا عَائِشَةُ أَحْمَدِي اللَّهُ فَقَدْ بَرَكَ اللَّهُ».

إنّ الصبر والاحتساب والعلم بما عند الله من تحقيق وعده بنصر المظلوم يجب أن يتمثله كل من تجور عليه الشائعات وتطغى، ولا شك أن هذا الشعور يحقق للنفس الاطمئنان والسكينة، لذلك ترى عائشة - رضي الله عنها - تتحول إلى فراشها لترتاح بعد طول عناء بعد أن علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد وكل شأنها إلى خالقها عالم السر والعلن فكانت ترجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رؤيا تبرئها، ولم يخيب الله ظنّها فأنزل قرآنا بشأنها يتلى آناء الليل وأطراف النهار.

وأما صفوان بن المعطل فلم يهن أو تستكين نفسه فهو يدافع عن نفسه ثقة ويقينا؛ قالت عائشة: «بَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أَنْثَى قَطُّ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقَتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

سادساً: المسامحة والعفو عند المقدرة لمن يستحقهما:

قد يلجأ المظلوم ممن وقعت عليه الشائعة إلى ردة فعل يمنع فيها العطاء عن

الذين وقعوا فيه وفي أهل بيته، ولكن الإسلام الذي يقوم على المسامحة والعفو عن الزلات ويُطالب الناس بالإحسان والعفو عن المقدرة يربأ بأصحابه عن ذلك وخاصة إذا كان من قد منعوا عنهم العطاء من الأرحام أو الأصدقاء أو أصحاب الفضل حتى يعم السلام والأمان المجتمعي ويقطع دابر الحقد والشحناء والبغضاء التي هي من أشد الأوبئة التي تفتك بأمن المجتمعات:

لقد قرر أبو بكر رضي الله عنه قطع النفقة عن مسطح الذي آذاه في أهل بيته مع أن مسطح من أهل بيته وقرابته، ولكن لرعاية القرابة حق حتى وإن جاروا وإن ظلموا، قال أبو بكر الصديق، - رضي الله عنه -، «وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَيَّ مِسْطَحُ بْنُ أَثَاةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: «وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَيَّ مِسْطَحَ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ».

فجاءت الآيات تأمر أبا بكر بأن يستمر في النفقة لنوال المغفرة من الله - عز وجل - ولتحقيق ما أمر الله - سبحانه وتعالى - من اتباع الحق ورد الباطل: قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٢٢، ويستجيب - رضي الله عنه - للأمر الرباني فيقول: «بَلَىٰ وَاللَّهِ إِنَّي لِأَحَبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَيَّ مِسْطَحُ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيَّ».

ووقع حسان بن ثابت - رضي الله عنه - بالإفك، ولكن أبت السيدة عائشة - رضي الله عنها بعد ذلك من ابن اختها عروه أن يسب حسانا عندها يقول عروة بن الزبير: «ذَهَبْتُ أَسْبُ حَسَانَ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ لَا تَسْبُهُ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفَحُ عَن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

لقد حفظت السيدة عائشة - رضي الله عنها - لحسان بن ثابت مواقف مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تؤجج الفتنة ولم تنسج خيوط الحقد



والكراهية ككثير من النساء اللواتي يتعرّضن لمثل ما تعرضت من الشائعات المؤلمة حفظاً للمجتمع ودرءاً للفتنة والفساد.

ولكن مع التنبّه إلى ضرورة إيقاع العقاب لمن تعمّد إلحاق الضرر بالمنافقين وأذيالهم ما لم يترتب على ذلك مفسدة عامة، كما عزم النبي - صلى الله عليه وسلم - على إيقاع العقوبة بعبد الله بن أبي سلول، وما ثناه عن ذلك إلا تخوّف إثارة العصبية والحمية التي قد تؤدي إلى التقاتل بين أفراد المجتمع المدنيّ.

**سابعاً: الإعلان والبيان لتوضيح الحقائق والإجابة عن التساؤلات:**

هذا أمرٌ في غاية الأهميّة، إذ إنّ كثيراً من الشائعات التي تُثار، ثمّ لا تجد لمن وقعت عليهم كلاماً ولا بياناً مع وجود أدلة قاطعة وثقة عارمة بأنهم مظلومون، وهناك من يكون بيده الدليل والبرهان والحكمة إلى بطلان الشائعة فيلوذ بالصمت كسلاً أو تهرباً من المسؤولية أو لعدم إعارة الآخرين اهتماماً لا يعتبره أن هذا شأنٌ خاصٌّ لا يهمّ الآخرين ولا يعينهم إن عرفوا الحقيقة أم جهلوها، وهذا تفكيرٌ قاصرٌ لأن خطر الإشاعة لا يقف عند فرد أو جماعة بل الشائعة تفعل فعلها كما يفعل الهشيم بالحطب، لذلك دأب القادة أصحاب الحكمة على إصدار البيانات عقب كل شائعة خطيرة لوقف الفتنة وبث الطمأنينة وضبط النفس وكف الآثار المتوقعة وخاصة على المجال السياسي والدوليّ:

لقد حصل ما حصل في غزوة أحد بعد إشاعة خبر مقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - ووهنت الأنفس، حتى كادت الهزيمة أن تفتك بالمسلمين حتى طلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا...».

**الخاتمة والنّائج والتوصيات**

وفي الختام لا يسعني إلا أن أسجّل أبرز النّائج والتوصيات:

## النتائج:

أولاً: إن الشائعات التي رُوِّجت في المجتمع النبويّ كانت معدودة وإنما شاء الله أن تكون لتبقى درساً خالداً للاتباع وليتذكرون كيف عصفت هذه الشائعات بالسلم المجتمعيّ، وحتى يخطّ لهم منهجاً واضحاً في التعامل مع هذه الآفة المهدّدة لأمن المجتمعات.

ثانياً: بيّنت الدّراسة الدور الكبير للمنافقين في ترويح الشائعات المتعلقة بأمن المجتمعات وقد برز ذلك في حادثة الإفك متجلياً وواضحاً.

ثالثاً: كَشَفَتِ الدّراسة عن صنفٍ آخر من الذين يقعون في حبال الشائعات وهم الذين لا يتشبّهون ويتسرّعون، وفي هذه الأحاديث دعوة للتثبّت والتحريّ حتى لا يقع أهل الصلاح والفضل فيما لا يليق بهم.

رابعاً: كَشَفَتِ الدّراسة عن أكثر الوسائل التي يستعين بها مرّوجو الشائعات لتحقيق آثارها المرجوة وهي التفتّن في وسائل الإعلام واتخاذ صورٍ معينة من خلال استخراج الشائعة ونشرها وفتح الميادين لسماعها واستماعها.

خامساً: كَشَفَتِ الدّراسة عن أهمّ الآثار التي ولدتها الشائعات والتي تهدد أمن المجتمعات وسلمها من خلال بثّ القلق والتوتر وإيقاع الظلم على الأبرياء، وأيضاً ما تولّده من إثارة الفتنة والاحتراب في المجتمع الواحد، وإرباك الرأي العام، الأمر الذي يهدد أمن المجتمعات وسلمها على الصعيدين الأسريّ والمجتمعيّ.

سادساً: بيّنت الدّراسة أنّ آثار الشائعة لا تقلّ عن آثار الحروب المدمّرة والفتاكة بأمن المجتمعات وأنّها قد تحوّل النصر إلى الهزيمة والخذلان في حال عدم تدارك أمرها والتهاون في نشرها.

سابعاً: بيّنت الدّراسة عظمة المنهج النبويّ وحكمته في التّعامل مع الشّائعات لتقليل خطرهما ودرئها ما أمكن من خلال إرساء منهج التّثبت من الأخبار، والترّفق بمن وقعت عليه الإشاعة لحين البيان، مع استصّحاب الثّقة لمن هو أهلٌ لها، ومعاينة المتعمّدين الماكرين، والقيام على ضبط النّفس والتّعقل وانتهاج نهج الحكمة لتلافي مضاعفات البغضاء، والسعي للإصلاح ما أمكن لدرء الفتنة حتى مع الاضطرار لبعض التنازلات لدفع الضّرر العام، والاستعانة بالصّبر والاحتساب والثّقة بما عند الله - عزّ وجل - من نصر المظلومين، والمسامحة عند المقدرة لمن عرف من سابقهم الفضل والإحسان، مع ضرورة الإعلان والبيان لتوضيح الحقائق وكشّف الغموض.

#### التّوصيات:

- ١- ضرورة قيام الجهات المعنيّة بتعريف أفراد المجتمعات بمخاطر الشّائعات والتّحذير من أضرارها بجميع الوسائل المتاحة وخاصة وسائل الإعلام، ومؤسسات التّعليم، بكافة الوسائل المتاحة بعقد الدورات والندوات والبرامج، ونشر المطويّات والبيانات الخاصّة بها.
- ٢- ضرورة مراقبة وسائل الإعلام كونها الرائدة في نشر الشّائعات، وإيقاع العقوبة على من يكتشف بأنهم من مصادرهما.
- ٣- وفي الختام أسأل الله - عزّ وجل - أن يتقبل مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم فإن أحسنت فبفضل الله ورحمته، وأن أخطأت فإنني أسأل الله المغفرة والرحمة والله ولي التوفيق.

## المصادر والمراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢.
- الأبعاد النفسية والاجتماعية في ترويح الشائعات عبر وسائل الاعلام وسبل علاجها من منظور اسلامي: الهمص، عبد الفتاح، شلدان: فايز كمال، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، ١١م، ٢ع، سنة ٢٠١٠.
- الاشاعة وأضرارها على المجتمع وطرق وقايتها في ضوء آية الافك: زاهديان، قطب الدين، المجلة الدولية للبحوث الاسلامية والانسانية المتقدمة، المجلد ٥ العدد ٩، ط ٢٠١٥.
- أدب الدنيا والدّين: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (٤٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٧.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي الملقب بمرتضى، محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ)، تحقيق مكتب التحقيق بدار هجر، دار هجر. الطبعة: الأولى.
- الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري): البخاري: محمد بن اسماعيل، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: الهروي: محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهرى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩، تحقيق: د. محمد جبر الألفي.
- شرح صحيح البخارى، لابن بطال: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية.

- صحيح مسلم: النيسابوري: مسلم بن الحجاج أبو الحسين، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- عمدة القاري: شرح صحيح البخاري، العيني بدر الدين (٨٥٥)، دار الفكر، ط١.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي،: زين الدين محمد (ت١٠٣١)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الاولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، تحقيق خليل محمد هراس، دار الفكر - بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري، دار صادر - بيروت.
- المستدرک علی الصحیحین: الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ١٤١٢ هـ.
- مقاصد الشريعة ووسائلها في المحافظة على ضرورة العرض من خلال محاربة الشائعات: الشتري، سعد بن ناصر، ندوة أساليب مواجهة الشائعات، برعاية أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، أعمال ندوة أساليب مواجهة الشائعات، مركز الدراسات والبحوث، الطبعة الاولى، الرياض ٢٠٠١.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢.
- المنهج الاسلامي في التثبت من الأخبار والقضاء على الشائعات: الهاجري، محمد بن عبد اللطيف البرعي، الطبعة الاولى، ٢٠١٤ دار الخلفاء الراشدين، الاسكندرية.

- موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة: الشهود، علي بن نايف، (٤٤ / ١٥)، المكتبة الشاملة.
- نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها: الصويان، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، دار السليم، ط٣، ٢٠٠٠ م.

السّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة المنورة:

القيم، والمقومات، والأبعاد

أ. خديجة بوسبع

المملكة المغربية







## المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله ومن سار على نهجه واهتدى بهديه الى يوم الدين، وبعد،، فمذ نزول القرآن الكريم وأعداء الإسلام يلفقون له التهم والشبهات، ومن ذلك أنه دين الإرهاب والعنف ومناوئ للسلم والسلام.

والمنصف يعلم أن الإسلام يملك تراثاً غنياً يدحض هذه التهم التي لا أساس لها من الصحة، فهو دين يقبل بالاختلاف والتنوع، بل ويعتبرهما من سنن الله في خلقه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، فهو يقر بالتعددية الدينية، فلا يكره أحداً على الدخول فيه، تاركا لهم حرية الاعتقاد والتعبد. كل ذلك بغية تحقيق السلم المدني وإرساء التعايش السلمي بين المختلفين دينا وثقافة وحضارة.

ولنا في السنة النبوية - مجسدة في وثيقة المدينة المنورة - خير نموذج للتطبيق العملي للعلاقة الإيجابية و السلمية بين الأنا والآخر، فهي أول دستور مكتوب بعد القرآن الكريم، يقدم العلاج الشافي والكافي لتحقيق السلم المدني بين مكونات المجتمع المدني وحتى الإنساني، فقد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار من جهة، ووطد العلاقات الإنسانية بين المسلمين والأديان الأخرى - ممثلة بصفة خاصة في اليهود - من جهة ثانية.

فعن طريق الحوار الديني والحضاري عملت وثيقة المدينة على إشاعة ثقافة السلم المدني، وعلى بناء وحدة اجتماعية وسياسية، وعلى الانفتاح على المخالفين

للإسلام من أهل الكتاب وغيرهم من مشركي قريش والاعتراف بهم، والقبول بهم وفقاً لمبادئ العيش المشترك، ولقيم العدل والمساواة والتعاون، وغيرها من القيم والمقومات التي تسهم في التوعية بأهمية الأمن للجميع، والإحساس بالانتماء إلى وطن واحد.

لذا ارتأيت الكتابة في موضوع (السُّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة المنورة: القيم، والمقومات، والأبعاد) ضمن خطة بحث اشتملت على الآتي:

- المطلب الأول: مفهوم «السُّلم المدني»، «وثيقة المدينة».
- المطلب الثاني: نص وثيقة المدينة (كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود).
- المطلب الثالث: القيم المحققة للسُّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة.
- المطلب الرابع: مقومات السُّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة.
- المطلب الخامس: أبعاد السُّلم المدني في ضوء وثيقة المدينة.

لم يحظَ السُّلم المدني في السنة النبوية باهتمام كبير من الباحثين، وإن كان القليل منهم من خصص لهذه الوثيقة دراسة مثل: علي بولاج<sup>(١)</sup> في: «وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان»؛ إذ اعتبر أن وثيقة المدينة مثال واضح وجيد طُبّق في الواقع العملي فعلاً، وأُخذت كنموذج للعيش معاً بسلام.

وأيضاً د. إبراهيم الهدهد<sup>(٢)</sup> في: «السُّلم الاجتماعي طريق لبناء الوطن...» العهد المدني نموذجاً، والذي يهدف بهذا البحث إلى الكشف عن

١- وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج.

٢- السُّلم الاجتماعي طريق لبناء الوطن... العهد المدني نموذجاً، د. إبراهيم الهدهد.

معالم السياسة التي أرساها صلى الله عليه وسلم بين المسلمين أنفسهم، ومع غير المسلمين، ومع المنافقين، وكيف كان السُّلم الاجتماعي سبيلاً لتأليف القلوب، أما محمد الحسيني الشيرازي<sup>(١)</sup> فأشار إليه ضمن: «السُّلم والسلام في العلاقات الإنسانية والروحية (السلام الاجتماعي)».

وهناك من تناول السُّلم المدني بطريقة غير مباشرة ضمن التعايش السُّلمي والتعاون بين الأفراد ورعاية الحقوق التي تكفلها وثيقة المدينة للآخر المخالف، مثل: أحمد قائد الشيعبي، في كتابه: «وثيقة المدينة المضمون والدلالة»<sup>(٢)</sup>، نفس الأمر بالنسبة ل: «حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: تأصيل إسلامي لمبدأ التعايش»<sup>(٣)</sup>، لخالد عليوي جواد، فلم يختلف عنه كثيراً؛ فقد أشار للسُّلم ضمن حقوق الآخر في الوثيقة، وضمن مبدأ التعايش الذي تنادي به الأديان، ومنها الدين الإسلامي، من أجل تأسيس علاقة غير مأزومة مع الآخر.

والجديد الذي سأقدمه في بحثي هذا إن شاء الله هو: أنني حاولت أن أستنبط من ثنايا بنود وثيقة المدينة المنورة - ضمناً أو صراحة القيم - والمقومات المحققة للسُّلم المدني، والأبعاد المتوخاة منها والتي يمكن تنزيلها على أرض الواقع، وجعلها تسهم في إشاعة كل من السُّلم المدني والسُّلم العالمي.

### المطلب الأول: مفهوم «السُّلم المدني»، «وثيقة المدينة».

#### الفرع الأول: تعريف السُّلم المدني لغة واصطلاحاً.

أولاً: السُّلم لغة واصطلاحاً: السُّلم: من السَّلام وأصله السَّلامَةُ: وقد جاء بمعان منها: البراءة والتخلص من العيوب، قال ابن فارس: (سَلِمَ السَّيْنُ وَاللَّامُ

١- السُّلم والسلام، محمد الحسيني الشيرازي.

٢- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي.

٣- حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: تأصيل إسلامي لمبدأ التعايش، خالد عليوي جواد.

وَالْمَيْمُ مُعْظَمُ بَابِهِ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ؛ فَالسَّلَامَةُ: أَنْ يَسْلَمَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَاهَةِ وَالْأَذَى، وَمَنْ الْبَابُ أَيْضًا الْإِسْلَامُ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ، وَالسَّلَامُ: الْمَسْأَلَةُ<sup>(١)</sup>، وَالسَّلْمُ كَالسَّلْمِ، وَالسَّلْمُ: الْمُسَالَمُ. وَهُمَا لُغَتَانِ لِلصَّلْحِ، وَتَسَالَمُوا: تَصَالَحُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) وَحِكْمِي السَّلْمُ وَالسَّلْمُ: الْإِسْتِسْلَامُ وَضِدُّ الْحَرْبِ أَيْضًا<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإن السَّلْمَ قد تعددت معانيه، فمنها: ما جاء بِمَعْنَى السلام، وأنها أحد أسماء الله تَعَالَى، والبراءة والعافية والنجاة من العيوب، وبمعنى الاستسلام و الصلح وأنها ضد الحرب.

أما في الاصطلاح: فهو ضد الحرب، وهو وضع يسود فيه الأمن والسلام، ويشعر فيه الفرد بالأمان والسكينة والاستقرار، وهو عامل أساسي لتقدم الأمم وازدهارها، وهذا المعنى المتعارف عليه، أي: حالة أمة، أو دولة، ليست في حرب، كما أنه يعني العلاقات الودية بين الناس، وانعدام العدوانية والعنف داخل المجموعة البشرية، كما يعني الوفاق بين أعضاء مجموعة بشرية متقاربة ومتصلة الروابط<sup>(٣)</sup>.

ثانيا: المدينة والمدني لغة واصطلاحا: مدن: (مَدَنَ) بِالْمَكَانِ: (أَقَامَ) بِهِ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَلَا أَدْرِي مَا صَحَّتْهُ وَهُوَ (فَعَلَّ مَمَاتٌ، وَمِنْهُ الْمَدِينَةُ)، وَهِيَ فَعِيلَةٌ، (لِلْحَصْنِ يُبْنَى فِي أُصْطَمَةِ الْأَرْضِ، جَ مَدَائِنٌ)، بِالْهَمْزِ، (وَمُدُنٌ وَمُدُنٌ)، بِالتَّثْقِيلِ وَالتَّخْفِيفِ.

١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠- ٩١.

٢- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠- ٩١، لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٩٢- ٢٩٣. "بتصرف"، مختار الصحاح، الرازي، ١٥٣.

٣- [www.artist-dz.com/montada-f80/topic-t607.htm](http://www.artist-dz.com/montada-f80/topic-t607.htm) وانظر: مفهوم السَّلْم في الإسلام، د. إيداد كامل الزبياري، موقع الحوار اليوم، الأربعاء، ٠٧/ ١٥/ ٢٠١٥، <http://www.alhiwartoday.net/node/9787>.

والمدينة: اسمُ مدينةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، غَلَبَتْ عَلَيْهَا تَفْخِيمًا لَهَا - شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى وَصَانَهَا - وَالنَّسْبَةُ إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدَنِيٌّ<sup>(١)</sup>.  
وَمَدَنِيٌّ [مفرد]: خاصٌّ بالمواطن أو بمجموع المواطنين، عكس عسكريٌّ<sup>(٢)</sup>.

والمدينة اصطلاحاً هي: رقعة جغرافية مشتركة، ووطن للجميع مع التزام كل طائفة بحيزها المكاني، كما جاء في البند (٤٥ ب): من وثيقة المدينة: (عَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبْلَهُمْ).<sup>(٣)</sup>

والمدني هو: شخص يُعرفه القانون الدولي بأنه ليس عضواً في جيش، ولا يشارك في الأعمال العدائية في حالة النزاع المسلح، والمدنيون مميزون عن المقاتلين ويُمنحون درجة من الحماية القانونية خلال القتال أو الاحتلال العسكري.<sup>(٤)</sup>

أما «السلم المدني»، فله دلالات كثيرة، منها: إشاعة ثقافة السلام وترويجها، والتسامح والانفتاح على الآخر والاعتراف به [عن طريق ثقافة الحوار وتعزيز عملية قبول الرأي الآخر]، وتفاهم المختلفين فيما بينهم، وتجسير الهوة بين مختلف الأطياف والشرائح الاجتماعية، والإيمان بالتعددية الفكرية والسياسية والدينية، ودولة القانون والدستور، ورفض جميع أشكال العنف والتطرف في العقيدة والفكر والممارسات القمعية في المجتمع، والإيمان بمبدأ الحوار، وحرية الكلمة والتعبير.<sup>(٥)</sup>

- ١ - تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، ٣٦ / ١٥٦ - ١٥٧.
- ٢ - معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، ٣ / ٢٠٧٩.
- ٣ - السيرة النبوية، لابن هشام، ٢ / ٣٧٠. ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ٦٢، وانظر أيضاً: حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية للمشاركة في ندوة تطور العلوم الفقهية.
- ٤ - ويكيبيديا، يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٦، <https://ar.wikipedia.org/wiki>.
- ٥ - التسامح والصفح، أ.د. عبد السلام ابراهيم البغدادي، ١٩. انظر: التعددية و السلم المدني، د. عبد العظيم جبر حافظ حالة العراق، ٢٠١٥-٥-١٦، مركز المستقبل للدراسات الإستراتيجية، «بتصرف»: <http://mcsr.net/news38>

## الفرع الثاني: تعريف وثيقة المدينة في اللغة والاصطلاح.

أولاً: الوثيقة في اللغة: بمعنى الربط والشد والثبت والإحكام والعهد، (وَتَّقَ) به يَتَّقُ (ثِقَةً) إِذَا اتَّمَنَّهُ. و (الميثاقُ) العَهْدُ وَالْجَمْعُ (المَوَاقِيقُ)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ قَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَأَوْتَيْنَاهُمْ فِيهِ أَشَدَّهُ. (الْوَثِيقُ) الشَّيْءُ الْمُحْكَمُ، وَيُقَالُ: أَخَذَ (بِالْوَثِيقَةِ) فِي أَمْرِهِ أَي: بِالثَّقَةِ. وَأَخَذَ بِالْأَوْثِقِ أَي: الْأَشَدِّ الْأَحْكَمِ<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: الوثيقة في الاصطلاح العام: ويقصد بها كل أثر مكتوب أو محفور أو منقوش على الرق والكاغد والنسيج والقرطاس وغيره<sup>(٣)</sup>.

أما الوثيقة في الاصطلاح الخاص (القانوني): فيقصد بها الورقة الرسمية التي تصدر من إحدى الجهات الرسمية في الدولة، أيا كانت هذه الجهة، وعلى ذلك فالدستور وثيقة، ومختلف القوانين التي تصدرها الدولة تعدّ وثيقة، وهي تعبر عن الدولة كسلطة صاحبة السيادة والسلطان في الجماعة، وتسمى مثل هذه الوثائق وثيقة عامة، وكذلك تعدّ عقود الملكية الموثقة على يد موثق رسمي وثيقة خاصة، وكذا حجج الأوقاف والوصايا<sup>(٤)</sup>.

أما وثيقة المدينة المنورة فهي: معاهدة أو عقد أبرمه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فترة من هجرته المباركة إلى المدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار من جهة، واليهود من جهة أخرى، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم

١- سورة المائدة: ٧.

٢- مختار الصحاح، الرازي، ٣٣٢. ولسان العرب، ابن منظور، ١٠ / ٣٧١. "بتصرف".

٣- الوثيقة وأثرها في كتابة التاريخ، عبد اللطيف زكي أبو هاشم، مقال. نقلا عن حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.

٤- القانون الدولي وحقوق الإنسان - دراسات في القانون الدولي والشريعة الإسلامية، جعفر عبد السلام علي، ٢٨٧.

وأموالهم، وشرط لهم أي: حدد حقوقهم، واشترط عليهم أي: حدد واجباتهم، وقد أطلقت على الوثيقة تسميات عدة منها: الكتاب لكون نص الوثيقة ذكر هذه المفردة في فقرات عدة مثل البند (١)، والصحيفة التي اشتقت أيضاً من نص الوثيقة، منها ما ورد في البند (٣٩)، كما سماها البعض وثيقة المدينة أو دستور المدينة.

وتسمية النص بالوثيقة هو الأقرب إلى الصواب؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم) أراد من كتابته إرساء أسس تنظيمية قوية ومتمينة وثابتة لعلاقة المسلمين مع محيطهم الديني وغير الديني، الداخلي والدولي<sup>(١)</sup>.

وهي أيضاً تمثل عهداً وميثاقاً قانونياً وحقوقياً يحدد العلاقة الاجتماعية بين مختلف مكونات المجتمع الثري وضوابطها وحدودها بتفصيل يوضح الحقوق والالتزامات المترتبة لكل عنصر من عناصر المدينة<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: نص وثيقة المدينة

(كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود).

أولاً: القيمة التاريخية لوثيقة المدينة:

يقول علي بولاج: كان المستشرق الألماني «ولهاوسن - Wellhausen» أول من عرّف هذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث، وندى إلى الأستاذ محمد حميد الله - رحمه الله - وإلى بحوثه الواسعة في اشتهاار هذه الوثيقة في العالم الإسلامي، وفي معرفتنا معرفة شاملة بالظروف التاريخية وبالبيئة

١- حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: تأصيل إسلامي لمبدأ التعايش، خالد عليوي جيد، ١٥٤.  
٢- وثيقة المدينة: أساس تنظيم العلاقات المحلية والدولية والتسامح الديني، رشيد كهوس، ٢١ فبراير ٢٠١٣ الساعة ١١:٠٠، موقع أ.د. أبو اليسر رشيد كهوس. <http://www.aboulyosr.com/news127.html>

الاجتماعية عند صدور هذه الوثيقة<sup>(١)</sup>.

كان أول من سجل هذه الوثيقة هو محمد بن إسحاق (توفي ١٥١ هـ)؛ ويقال بأن ابن سيد الناس وابن كثير قاما بتسجيل هذه الوثيقة ودَرَجها في كتبهما- من دون إسناد- كما قام البيهقي بإدراج الفقرات «١-٢٣» الخاصة بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار وبيان سندها، وذكر ابن هشام (توفي ٢١٣ هـ) هذه الوثيقة في كتابه «السيرة النبوية» بصورة أكثر تفصيلاً من ابن إسحاق، وترد الوثيقة أيضاً بكاملها في كتاب «الأموال» لأبي عبيد، وفي كتاب «الأموال» لحميد بن زنجويه (توفي ٢٤٧ هـ).

وقد قام ولهاوسن بتجزئة المتن الأصلي الذي أورده ابن هشام وأبو عبيد إلى ٤٧ فقرة، ثم قام حميد الله بتجزئة بعض هذه الفقرات فبلغت ٥٢ فقرة.<sup>(٢)</sup> مع الإشارة إلى وجود بعض الاختلافات بزيادة أو نقص في أحرف أو كلمات.

وعلى أي فقد اشتهرت وثيقة المدينة بين علماء السيرة، واعتمد عليها محمد بن إسحاق؛ وذكرها ابن هشام في كتابه «السيرة النبوية» بصورة أكثر تفصيلاً من ابن إسحاق، وأشار إلى بعض فقراتها في بعض كتب السنة نحو صحيح البخاري ومسند أحمد، أما الأستاذ محمد حميد الله فيعد من أوائل من عرّف بهذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث.

١- وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج، ١٢.

٢- وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج، ١٢.



ثانيا: نص وثيقة المدينة المنورة:

«بسم الله الرحمن الرحيم (١) هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ [رسول الله] بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بِهِمْ وَجَاهِدَ مَعَهُمْ. (٢) إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ. (٣) الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَفِدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٤) وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٥) وَبَنُو الْحَارِثِ [بن الخزرج] عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٦) وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٧) وَبَنُو جُشَمٍ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٨) وَبَنُو النَّجَارِ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٩) وَبَنُو عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (١٠) وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (١١) وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفِدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. (١٢) أ. وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ. (١٢ب) وَأَنْ لَا يُحَالَفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ. (١٣) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أيديهم] عَلَى [كل] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عُدْوَانًا، أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ. (١٤) وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ. (١٥) وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ. (١٦) وَأَنَّهُ مَنْ

تَبَعْنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأَسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ. (١٧)  
وَأَنَّ سَلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا  
عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ. (١٨) وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعَقَّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.  
(١٩) وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ عَن بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. (٢٠ أ)  
وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ. (٢٠ ب) وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا  
لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ. (٢١) وَأَنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قِتَالًا عَن  
بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيَّ الْمَقْتُولِ [بالعقل]، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ وَلَا  
يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ. (٢٢) وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبًا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَآمَنَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحَدَّثًا أَوْ يُؤْوِيَهُ، وَأَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ  
لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ. (٢٣) وَإِنَّكُمْ مَهْمَا  
اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ. (٢٤) وَأَنَّ الْيَهُودَ  
يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ. (٢٥) وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ،  
لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ  
إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ. (٢٦) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. (٢٧)  
وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. (٢٨) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا  
لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. (٢٩) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. (٣٠) وَأَنَّ  
لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. (٣١) وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ  
بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ. (٣٢) وَإِنَّ جَفْنَةَ بَطْنٍ  
مَنْ ثَعْلَبَةٌ كَانَتْ فِيهِمْ. (٣٣) وَأَنَّ لِبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ الْبُرِّ  
دُونَ الْإِثْمِ. (٣٤) وَأَنَّ مَوَالِي ثَعْلَبَةَ كَانَتْ فِيهِمْ. (٣٥) وَأَنَّ بَطَانَةَ يَهُودٍ كَانَتْ فِيهِمْ.  
(٣٦ أ) وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا يَأْذَنُ مُحَمَّدٌ. (٣٦ ب) وَإِنَّهُ لَا يُنْحَجِرُ عَلَى ثَأْرِ  
جُرْحٍ، وَأَنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَيَنْفَسُهُ فَتَكَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَمْرٍ هَذَا. (٣٧)  
أ) وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ

حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصيح والنصيحة والبر دون الإثم. (٣٧)  
 (ب) وأنه لا يَأْتُمُ امرؤٌ بحليفه، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ. (٣٨) وَأَنَّ الْيَهُودَ يَنْفِقُونَ مَعَ  
 الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ. (٣٩) وَأَنْ يَثْرَبَ حَرَامٌ جَوْفَهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ.  
 (٤٠) وَأَنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرِ مُضَارٍّ وَلَا آئِمٍّ. (٤١) وَأَنَّهُ لَا تَجَارُ حُرْمَةً إِلَّا بِإِذْنِ  
 أَهْلِهَا. (٤٢) وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ، أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ  
 فَسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
 وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى اتَّقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ. (٤٣) وَأَنَّهُ لَا تَجَارُ قُرَيْشٍ وَلَا مَنْ  
 نَصَرَهَا. (٤٤) وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ. (٤٥ أ) وَإِذَا دُعُوا إِلَى صُلْحٍ  
 يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ  
 لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ. (٤٥ ب) عَلَى كُلِّ أَنَسٍ حَصَّتْهُمْ مِنْ  
 جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبْلَهُمْ. (٤٦) وَإِنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ  
 هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. مَعَ الْبَرِّ الْمُحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا  
 يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ.  
 (٤٧) وَأَنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آئِمٍّ، وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ  
 آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، وَأَنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»<sup>(١)</sup>.

وكما هو ملاحظ فإن بنود الوثيقة جاءت لإرساء السلم والأمن الإنسانيين في المجتمع المدني دون اعتبار لاختلاف الدين والقومية والعادات واللغة، فتفعيل هذه البنود لا محالة سيكون له آثار إيجابية أخرى على المسلمين وغيرهم، فهي بمعنى جامع وثيقة سلم وتعايش واستقرار في ظل دستور المدينة القائم على تقدير

١ - سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٦٨-٣٧٠. وانظر أيضا: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، من ٥٩ إلى ٦٢. وأيضا الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، جاسم العيسوي، من ٧٠ إلى ٧٥، ووثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، من ٢٠ إلى ٢٣.

الذات وقبول الآخر والإيمان بالتعددية والتنوع وترسيخ القيم والالتزام المتبادل للحقوق والواجبات.

### المطلب الثالث: القيم المحققة للسلم المدني في وثيقة المدينة المنورة

#### الفرع الأول: قيمة العدل:

أولى الإسلام عناية فائقة بالقيم، وخاصة التي تجنب الناس الحروب، وتحقق وتحافظ على السلم والصلاح والأمن، ليس فقط السلم الداخلي بل والعالمي أيضاً، وعلى رأس هذه القيم قيمة العدل.

وإذا كان السلم المدني والعالمي هو المحور الذي تدور عليه شرائع الإسلام وأحكامه، فإن السلم لا يوجد ولا يتنامى إلا في حصن العدالة، وهذا ما يقرره المنطق، ويجزم به التاريخ، ويعرفه الناس جميعاً؛ لذا فقد كان اهتمام الإسلام بالعدل، وترسيخ دعائمه، مساوياً لمدى اهتمامه بـ السلم، ومد رواقه، بل كان لا بد له منهجاً أن يراعي الأول، ابتغاء وصوله إلى الثاني؛ فبين السلم والعدالة تلازم مستمر، في الطرد والعكس. وكلما امتد سلطان العدل، امتد رواق السلم، وكلما تقلص سلطان العدل، امتد في مكانه ظلم وجور، وتقلص رواق السلم أيضاً، وتفتحت في مكانه ثغرات الهرج والمرج - أي: القتل والفتن -<sup>(١)</sup>.

وارتباط هاتين القيمتين يبرز بشكل واضح في وثيقة المدينة التي يتبغي منها الرسول عليه السلام تحقيق السلم المدني والتعايش بين الطوائف المشكلة لمجتمع المدينة المنورة، الذي ضم المسلمين واليهود والمنافقين والمشركين.

فقد كان من أبرز أسس هذه الوثيقة: «العدالة»، وتمثلت في توافق الحقوق

١ - الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، د. محمد سعيد رمضان، ٢٢٧-٢٢٨. وانظر: مفهوم

السلم في الإسلام، د. إياد كامل الزبياري، <http://www.alhiwartoday.net/node/9787>

والواجبات وتناسقها، إذ تضمنت حقوق الأفراد جميعا في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم<sup>(١)</sup>؛ ولذلك أقام الرسول صلى الله عليه وسلم صرح الدولة الإسلامية الأولى على هذا الأساس، وهذا ما عكسته بنود وثيقة المدينة، وتتجلى مظاهر ذلك في مجموعة أسس منها:

#### أ - تضامن الرأي العام - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -:

وهو ما تعبر عنه البنود (٢٢): (وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أقرَّبًا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُنْصَرَ مُحَدِّثًا أَوْ يُؤْوِيَهُ، وَأَنْ مَنْ نَصَرَهُ، أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ). والبند (٣٧): (وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَأَنْ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنْ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ).

#### ب - وحدة جهة التقاضي:

من المعالم البارزة التي أكدتها هذه الوثيقة وحدة جهة التقاضي؛ إذ يعد القضاء من الأمور المهمة لاستقامة حياة الناس وسلامتهم، فقد تضمنت بنود الوثيقة هذه الحقيقة، ومن ذلك ما جاء في البند (٤٢): (وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ، أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَتَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَابْرَهُ).

ومن ثم فقد حصرت الوثيقة السلطة القضائية في جهة واحدة بالنسبة لجميع سكان الدولة، وهذا يساعد مساعدة كبيرة على وحدة المجتمع وتحويله من مجرد مجتمع إنساني إلى مجتمع سياسي، وقد كان تولي الرسول صلى الله عليه وسلم

١ - الهدى النبوي في التعايش مع الآخر، أ.د. علي جمعة، ١٠٦.

لهذه السلطة على وفق نصوص الوثيقة عاملاً مُهمّاً، ساعد على وحدة الجهة التي تكون حَكَمًا في حلّ المنازعات والخصومات التي تحدث في المجتمع، فالقانون للجميع واحد، وتطبقه على الجميع جهة واحدة<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن العدل في التقاضي يسهم في الإحساس بالمساواة سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، ومن ثم نشر السلم المدني بينهم.

### ج - مبدأ فردية المسؤولية (شخصية العقوبة):

من المبادئ التي أكدتها الوثيقة النبوية لضمان بقاء صرح المجتمع الجديد في المدينة المنورة شامخاً مبدأ شخصية العقوبة، وأن العقوبة لا تنال إلا الجاني وحده، بعد أن كانت تتعدى لتشمل أهل الجاني وعشيرته، وقد دل على ذلك البند (٣٧): (وَأَنَّهُ لَا يَأْتُمُ امْرَأُؤُ بِحَلِيفِهِ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ). والبند (٤٦): (وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ كَأْسَبَ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ)، والبند (٤٧): (وَأَنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ)<sup>(٢)</sup>.

لقد تجاوز نص الوثيقة الإطار الثقافي للمجتمع الأهلي القائم آنذاك ذلك المجتمع الذي يجعل المسؤولية عن الجريمة التي يرتكبها شخص ما مسؤولية جماعية تلحق بأفراد عائلته وعشيرته، وربما قبيلته، من خلال جعل المسؤولية عن الجرائم والعقوبات مسؤولية شخصية، ترسيخاً للمبدأ الإسلامي القائل: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (النجم: ٣٨)<sup>(٣)</sup>.

إذن فقيمة العدالة المحققة للسلم تبرز في: أن العقوبة الجنائية تقتصر في

١- الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، د. جاسم العيساوي، ١٣٤-١٣٥.

٢- المرجع السابق، ١٤٠. انظر: حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية. د. مصطفى بن حمو أرشوم. ورقة بحثية سابقة.

٣- انظر: حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جيا، ١٦٠.

آثارها على الشخص المذنب المحكوم عليه، لكن هذا لا يمنع أحيانا من التأثير الفعلي للعقوبة على أقارب المحكوم عليه، حيث إن توقيع العقوبة على شخص يصيب في الغالب ذويه، ودائنيه، وسائر من يعتمدون عليه بالأضرار؛ ومع ذلك فمن المسلم به أن هذه الآثار لا تخل بشخصية العقوبة، وإنما هي آثار غير مباشرة لها بل وغير مقصودة.

وهذا ما صرح به «دستور» الدولة الإسلامية قبل أربعة عشر قرنا ونيف من الزمان حينما نصت البنود (٢٥) و (٣١) على: (فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ). والبند (٣٦ ب) على: (وَأَنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ) وغيرها من البنود التي نصت على تحمل كل شخص لما يصدر عنه من أفعال غير سوية، وإن تعدت آثارها المالية خاصة إلى الأهل، (وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ)؛ والنصر هنا يكون للمسلم ولغير المسلم إذا كان مظلوما؛ (وَأَنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ).<sup>(١)</sup>

وهذا يدل على أن الوثيقة تعد تنظيمًا قانونيًا حرص واضعها على تجاوز عيوب الواقع الاجتماعي والسياسي القائم؛ لتأسيس واقع جديد على أنقاضه يحترم حقوق الناس، ويحمل المسؤولية عن الجرائم والعقوبات الأشخاص الذين يشكلون حقًا تهديدًا للمجتمع السياسي.<sup>(٢)</sup>

#### د- حَدُّ الْقِصَاصِ:

يعد القصاص من القاتل والمعتدي من مظاهر إقامة العدل في المجتمع، واستعادة حقوق المعتدى عليهم، ومن ثم نشر ثقافة السلم بين المواطنين؛ لذلك أكدت الوثيقة في البند (٢١) على: (وَأَنَّهُ مَنْ أَعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيْتِهِ فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ [بالعقل] وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ

١- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي: ٤٦-٤٧.

٢- حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٦٠.

عَلَيْهِ) (١).

وكما هو ملاحظ فقد ركزت «الوثيقة» في مجال الحكم على قضيتين مهمتين هما: العدل وتنظيم القضاء، واعتبرتهما أولوية مطلقة يجب تحقيقها، ولا شك أن هذا راجع إلى إدراك الرسول صلى الله عليه وسلم لأهمية هذين الأساسين لكل مجتمع سليم، وأن غيابهما كان من أقوى أسباب القلق والاضطراب قبل الإسلام؛ لذا كان رسول الله هو القاضي الأول في الدولة الإسلامية، فحكم بما أنزل الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨) وقد اعترف اليهود - كمواطنين في الدولة الإسلامية في المدينة - بوجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سائر سكان المدينة بمن فيهم اليهود أنفسهم، إلا أنهم لم يلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً، بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة ويقضي بينهم أحبارهم» (٢).

وعلى أي نستخلص من وثيقة المدينة أنه لتحقيق السلم المدني يجب علينا بناء العلاقات مع غير المسلمين على أساس الحقوق والواجبات والأخلاق الرفيعة، ونقرر أن كل أحكام السلم مبنية على إقامة العدالة بين المسلمين وغيرهم، ومنع الاعتداء والظلم، وحماية حقوق وحريات المسلمين وغيرهم (٣).

ومن ثم فإن السلم المدني لا يتحقق إلا في حصن العدالة، وبدونها فلا وجود للسلم والسلام؛ فالعدل بين المواطنين بتطبيق القوانين على الجميع دون تمييز وإقرار المسؤولية الفردية والعقوبة الشخصية، مع عدم تحمل البعض أخطاء

١ - حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.

٢ - وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشعيبي، ٢٨ - ٢٩.

٣ - العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ٩٤. نقلاً: مفهوم السلم في الإسلام، د. إياد كامل

الزبياري: موقع سابق: <http://alhiwarmagazine.blogspot.com>.



الآخرين إلا فيما نذر من الآثار المادية وليس الجسدية، يؤدي إلى حفظ التوازن البشري؛ وبذلك تكون العدالة ممرا موصلا إلى السلم المدني الذي يعتبر مقصدا ساميا وهدفا نبيلًا لجميع الأمم والشعوب.

### الفرع الثاني: قيمة المساواة:

إذا كان العدل قيمة وثيقة الارتباط ب السلم، فإن هذا العدل لا يتحقق إلا بتطبيق القوانين على وجه يحقق المساواة بين الأفراد والجماعات، وعليه فإن المساواة من أسباب تحقيق السلم المدني في المجتمعات؛ إذ تعتبر المساواة من بين المحاور التي قامت عليها وثيقة النبي صلى الله عليه وسلم بين أهل المدينة، وذلك بضمان المساواة التامة لمواطني دولة المدينة في المشاركة الفاعلة في مجالات الحياة المختلفة، تحقيقاً لمبدأ أصيل تقوم عليه الدول الحديثة في عالم اليوم، وهو مبدأ المواطنة الكاملة، والذي لم يكن جلياً حينئذ، إلا أن دستور المدينة الذي وضعه المصطفى ضمن هذا الحق لكل ساكنيها، في وقت لم يكن العالم يعي معنى كلمة الوطن بالتزاماته وواجباته<sup>(١)</sup>.

فقد نصت الصحيفة على أن الناس أمة واحدة، ولاحظوا استخدام لفظ «الأمة»، للمساواة بين جميع الأطراف في المواطنة، فالمؤمنون والمسلمون أمة واحدة، واليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، «وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة»<sup>(٢)</sup>.

عندما جاء الإسلام حارب الطبقية بكل أشكالها وألوانها، يتضح ذلك من خلال وثيقة المدينة، حيث ينص البند رقم (١٥) على (وَأَنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ

١- نماذج التعايش مع الآخر (٧-٢٠) وثيقة المدينة.. ودستور المواطنة، د. علي جمعة، الأهرام، السبت ١١ من صفر ١٤٣٢هـ ١٥ يناير ٢٠١١ السنة ١٣٥ العدد ٤٥٣٣٠.

<http://www.ahram.org.eg/archive/The-Writers/News/58454.aspx>

٢- وثيقة المدينة أساس تنظيم العلاقات المحلية والدولية والتسامح الديني، د. رشيد كهوس، مرجع سابق.

عَلَيْهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ)، والأمان (الإجارة)، وبذلك حطم البند رقم (١٥) كل موازين الجاهلية وأعلن مبدأ المساواة<sup>(١)</sup>.

وبذلك فقد وضعت الوثيقة مبدأ أساسيا تقوم عليه العلاقات بين أهل المدينة، وتقوم كافة الدول الحديثة عليه وهو مبدأ المساواة بين الناس أمام القانون، فقد ورد في البند السالف الذكر<sup>(٢)</sup>.

فالبند أقر المساواة الاجتماعية بين المسلمين والمؤمنين، فالفقراء يساؤون الأغنياء في كل الحقوق، ومنها المشاركة في السراء والضراء من ناحيتي إعطاء الإجارة وإعطاء الأمان<sup>(٣)</sup>.

ورغم ثبوت المساواة بين المسلمين وبين بقية أطراف العقد الاجتماعي أمام القانون من حيث المبدأ، فالقانون للجميع، وليس لفئة ضد أخرى، فإنه أعطى قيمة تفاضلية للمؤمنين على الكافرين، فالكافر لا يساوي المؤمن في القتل أو النصر، فالجماعة المؤمنة لا تساوي هنا الجماعة الكافرة في حكم القانون، حتى ولو كان المرجع القانوني واحدا، كذلك لا يجوز الثأر لدم الكافر بدم المؤمن، فهو خارج عن الجماعة إذا أقدم على قتل مؤمن<sup>(٤)</sup>. فنص البند (١٤) على أنه: (وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ). لكنه أعطى اليهود حق المناصرة من قبل المؤمنين، والإنفاق معهم ما داموا محاربين<sup>(٥)</sup>. فجاء في

١- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ٥٥.

٢- القانون الدولي وحقوق الإنسان- دراسات في القانون الدولي والشرعية الإسلامية، جعفر عبد السلام علي، ٣٣٩.

٣- قراءة في دستور المدينة (مقال) حقوق الإنسان في الفكر العربي، دراسات في النصوص، وليد نويهض، ١٤٦.

٤- المرجع نفسه.

٥- القانون الدولي وحقوق الإنسان، جعفر عبد السلام علي، ٣٣٩.

البند (١٦): (وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ).

وفي البند (٣٧) السالف الذكر وفي البند (٣٨): (وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ)<sup>(١)</sup>، أما منح الأمان في حالة الحرب فقد قيده «الوثيقة» في البند رقم (١٧) الذي قرر (وَأَنَّ سَلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ). والمراد أن حالهم وصفتهم واحدة لا تختلف، بل هي على استقامة وعدل بحيث لا يطلب أحد أن يتميز عن غيره، فإذا أعلن طرف ما الحرب على المسلمين، فإن سائر المؤمنين يصبحون في حالة حرب مع الخصم، ولا يمكن لفرد منهم مهادنته؛ لأنه مرتبط بالسياسة العامة للمؤمنين، وكذلك لا يمكن أن يشترك البعض في الحرب، ويبقى البعض الآخر في حالة سلم مع العدو؛ لأن عقد السلم مسألة جماعية لا يجوز أن تنفرد بها قبيلة دون الأخرى. «فالوثيقة» في هذا البند ألزمت المسلمين بالتضامن والجماعية في حالتي السلم والحرب، وهذا ما أكد عليه البنود رقم (١٨ و ١٩) اللذان ينصان على أن الغزو في سبيل الله من جميع المؤمنين يكون على شكل مجموعات منظمة متعاونة، حيث ينص البند رقم (١٨) على (وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعَقَّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا). والمراد هنا أن عبء الحرب لا يقع على عشيرة دون الأخرى بل إن الجهاد فرض على جميع المؤمنين، وهم يتناوبون الخروج في السرايا والغزوات «فيكون الغزو بينهم نوبا، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها» حتى يشترك الجميع في الجهاد في سبيل الله، وقد زاد البند رقم (١٩) الأمر وضوحا وجلاء حينما نص على (وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَبِيءُ بَعْضُهُمْ عَن بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

١ - حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.

والبواء هنا تعني الاعتراف والمساواة، أي «اعتراف المؤمنين بالمسئولية بالتساوي فيما نال دماءهم في سبيل الله» فهم يتعاونون ويتناصرون في التعويض عن الخسائر في الأرواح والأموال ويحملون آلام بعضهم بعضا، مصداقا للآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٧١، فالمواصاة في المال وكفالة اليتامى ورعاية الثكالى أبرز سماتهم، وهذا ما أكد عليه البند رقم (٢٠) حيث ينص على (وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ) فهذا إعلان مدو بأن الإسلام وحده هو خير الهدى وأن المسلمين المنفذين له على أحسن هدى وأقومه<sup>(١)</sup>.

وعليه فقد نصت الوثيقة على المساواة في الحقوق الأمنية والثقافية والسياسية بين المسلمين وغير المسلمين من يهود ومشركين، أي: المساواة بين كل ساكني المدينة.<sup>(٢)</sup>

ومن ثم فالسنة النبوية المجسدة في وثيقة المدينة مع القرآن الكريم يمثلان سبقاتاريخيا في تحقيق السلم المدني بين مختلف مكونات المجتمع المدني آنذاك، وعلينا الاقتداء بهما في حياتنا المعاصرة ليعيش الكل في أمن وسلام.

### الفرع الثالث: التكافل والتعاون:

من القيم التي تنشر السلم بين الأفراد والمجتمعات، أو تعيد استتباب السلم قيمة التعاون والتكافل؛ هذه الأخيرة التي منحت لها حيزا كبيرا في وثيقة المدينة، لما لها من أهمية كبرى في إشاعة روح المحبة، ونبذ الكراهية والبغضاء؛ ومن ثم عيش الجميع في سلم وأمان سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، فبدءا من البند الأول من وثيقة المدينة نجد النص على أن الإسلام هو وحده الذي يجعل منهم

١ - وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشعيبي، ٥٧-٥٨.

٢ - الهوية والمواطنة، أحمد معيوف، -الجزء الثاني- ٢٥ / ٢ / ٢٠١٢ :٣١ :١٠ اميس انتمورا بحث، ليبيا

المستقبل: 19469 / news / clicked / http://www.libya-al-mostakbal.org

أمة واحدة، وعلى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم، تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة، التي ظهرت جلية وواضحة في قوله: (المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس) وهو أول أساس لا بد منه لإقامة مجتمع إسلامي حضاري متماسك من أهم سماته ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين وغيرهم بأجلى صورته وأشكاله، فهم جميعا مسئولون عن بعضهم في شئون دنياهم وآخرتهم؛ لذا نجد أن أول خطبة خطبها النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة كانت دعوة إلى التعاون والتكافل<sup>(١)</sup>.

جعلت الوثيقة في المقام الأول التكافل الاجتماعي بين المواطنين في الدولة الجديدة بمختلف عناصرها؛ المسلمة وغير المسلمة حقا من الحقوق المقررة، ومن مظاهره:

#### أ- التضامن في المسؤولية عن الجنايات:

وقد ساهمت قيمة التعاون والتضامن في الحد أو على الأقل في التقليل من الأذى بالأثر التي كانت تتسبب في نزاعات وحروب، ومن ثم فرط حبل السلم وما يتبعه من حصد الأرواح والممتلكات، ومن هنا تتجلى أهمية ارتباط قيمة التعاون والتكافل بالسلم المدني؛ ومن تجلياته في الوثيقة: فيما يتعلق بالفداء فقد تكررت عبارة (وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَائِنَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ). في بنود «الوثيقة» تسع مرات من البند (٣ إلى ١١)، مؤكدة أهمية التعاون والتكافل بين أبناء المجتمع المدني بصفة عامة، وأبناء كل طائفة من طوائف المسلمين بصفة خاصة، في إطلاق سراح أحد أعضائهم إذا وقع في الأسر<sup>(٢)</sup>.

١- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ٤٨.

٢- المرجع السابق، ٥٠.

وعليه فإن الوثيقة قد صاغت مبدأ من المبادئ التي عمّت الدولة المسلمة الجديدة وهو: مبدأ التضامن في المسؤولية بين بطون القبائل عما يحدث من أحد أفرادها من جرائم، وأقرت ما كان معروفا في الجاهلية بين القبائل من إعطاء الديات وأخذها؛ لمعالجة حالات القتل دون الأخذ بالثأر، فألزم سكان المدينة بأن يقيموا ما كان سائدا بينهم من قبل، من قيام كل بطن من بطون القبائل التي ذكرت الوثيقة اسمها بإعطاء المعاقل، وفداء من لا يستطيع منهم أن يدفع الدية تضامنا بين الجميع، وذلك ما حددته مواد الصحيفة، التي جاء فيها: «المُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَفِدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَنُو عَوْفٍ (ونفس الأمر بالنسبة لباقي القبائل: بَنُو الْحَارِثِ [بن الخزرج]، وَبَنُو سَاعِدَةَ، وَبَنُو جُشَم، وَبَنُو النَّجَّار، وَبَنُو عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، وَبَنُو النَّبَيْتِ، وَبَنُو الْأَوْسِ) عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>(١)</sup>.

وهذا التضامن في المسؤولية والتعاون على رفع الظلم لا يقتصر على حالة القتل فحسب، بل يمتد ليتناول كافة صلات البغي، أو الظلم أو الإثم أو العدوان

١- وروي عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار، على أن يعقلوا معاقلمهم، ويفدوا عانيمهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين. انظر: المسند، أحمد بن حنبل، حديث رقم: ٦٩٠٤. قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على هذا الحديث: «إسناده ضعيف. نصر بن باب: ضعيف الحديث، وحجاج - وهو ابن أوطاة -: كثير الخطأ والتدليس. وذكره ابن كثير في «تاريخه» ٣/ ٢٢٤، وقال: تفرد به، رواه أحمد، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٢٠٦، وقال: رواه أحمد، وفيه الحجاج بن أوطاة، وهو مدلس، لكنه ثقة. وتحرف فيه لفظ: «عانيمهم» إلى «غائبهم».. وقد أورد أحمد هذا الحديث ضمن مسند ابن عباس برقم (٢٤٤٣)، ثم أخرجه من حديث ابن عباس برقم (٢٤٤٤) من طريق الحجاج بن أوطاة أيضا، عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم بن بجرة، عن ابن عباس. وهذا إسناد ضعيف. والمعاقل: الديات، جمع معقلة. قاله ابن الأثير. وقال السندي: أي: عقد المواخاة بينهم، وأن يحمل الأنصار عقل المهاجرين. وبالعكس، والعاني: الأسير». انظر: حاشيته على المسند، حديث رقم: ٦٩٠٤.

أو الفساد، ولو كان المحدث أو المفسد ولد أحد المؤمنين، كما نصت على ذلك البند (١٣): (وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أيديهم] عَلَى [كل] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عُدْوَانًا، أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَكَذَلِكَ أَحَدِهِمْ). فالزمت الوثيقة جميع أفراد المجتمع بالأخذ على أيدي البغاة والمعتدين والمرتشين، وهؤلاء هم مصدر ومكمن الخطورة في المجتمع،<sup>(١)</sup> وفي هذه المادة أيضا إشارة إلى حفظ الملكية<sup>(٢)</sup>؛ فإثارة الفتن تؤدي الى القضاء على السلم المدني. ولهذا فالتكافل والتضامن من أهم القيم التي تنشر السلم المدني داخل المجتمعات أو على الأقل تعيد استتبابه.

ويشير البند (٤٤) الذي جاء فيه: (وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ) إلى مسألة التناصر (التعاقد) للدفاع عن المدينة ضد كل من أراد اقتحام يثرب؛ ليؤكد المسؤولية المشتركة للدفاع عن المدينة في حال تعرضها لخطر خارجي مفاجئ<sup>(٣)</sup>.

والتناصر الذي سبق ذكره يعتبر مظهرا من مظاهر التكافل بين المواطنين في حالة اعتداء أحد من خارج المدينة على فئة منهم، أو تعرضت المدينة لأي هجوم خارجي، وقد نص عليه البند (١٦) السالف الذكر. والتعاون في الإنفاق كما ورد في البندين (٢٤) و (٣٨)، (وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ)<sup>(٤)</sup>.

- ١- القانون الدولي وحقوق الإنسان، جعفر عبد السلام علي، مرجع سابق، ٣٣٣-٣٣٥.
- ٢- الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، جاسم العيساوي، ١٧٢. نقلا: حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.
- ٣- قراءة في دستور المدينة (مقال) حقوق الإنسان في الفكر العربي، وليد نويهيض، ١٥١.
- ٤- المواطنة في التاريخ العربي الإسلامي، هيثم مناع، ١٩.

## ب- الضمان الاجتماعي:

أكدت الوثيقة على عدم ترك المدين دون أن يساعده المجتمع على سداد دينه<sup>(١)</sup>، وذلك ما نص عليه البند: (وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ).

أما الالتزام المالي الثالث الذي نظمته «الوثيقة» فيتعلق بالمفرح أي: المثقل بالدين، الكثير العيال، والذي ليس له ولاء ولا عشيرة، وهذا يعني الجانب الاحتياطي، حيث يتعاون المؤمنون عند عجز العاقلة من القبيلة أو العشيرة عن الوفاء بالحاجة، وعلى هذا الأساس اهتمت «الوثيقة» بواجبات المؤمنين الاجتماعية نحو بعضهم بعضا اهتماما بالغا، داعية إياهم إلى التعاون والتآزر والتكافل الاجتماعي الشامل الكامل.

وهكذا بلغت الإنسانية والتعاون والمحبة غايتها في المجتمع المدني الجديد، الذي استطاع خلال فترة قصيرة القضاء على المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي صادفت المهاجرين حين وصولهم إليها فقراء بلا مال، فقد صادرت قريش أموالهم عقب هجرتهم، ووصف الله لنا هذا المجتمع الذي نشأ على الأخوة والتكافل والتراحم بقوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر: ٨-٩)<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإن هذه القيم من العدل والمساواة والتكافل والتعاون المستفادة من

١- الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، جاسم العيسوي، ص ١٧٢. وانظر: الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم ورقة بحثية سابقة.

٢- انظر: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ٥٢-٥٣.



وثيقة المدينة من أهم القيم التي أسهمت في تحقيق السلم المدني، بل وقد تجسدت على أرض الواقع حفاظا على الجنس البشري دون تمييز بين الأنا والآخر.

**المطلب الرابع: مقومات السلم المدني في ضوء وثيقة المدينة.**

**أولا: المقوم العقدي:**

اقتضت حكمة الله تعالى خلق الناس مختلفين في أشكالهم وأجناسهم وعقولهم ولغاتهم وأديانهم، وذلك من أجل التعارف والتواصل والتعاون ليس فقط بين المسلمين فيما بينهم، بل أيضا مع غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى، وهذا التنوع والاختلاف خاصة في الأديان إذا أحسن استغلاله أثمر التعايش و السلم والأمن المادي والمعنوي، ولا شك أن من بين ما يدعو إليه الإسلام قرآنا كان أو سنة، تربية المسلم على السلم والأمن في علاقته مع نفسه ومع غيره، بغض النظر عن انتمائه الديني، وهذا السلم من بين ما يقتضيه احترام التعددية الدينية، والتي تظهر بشكل جلي في بنود وثيقة المدينة، فلم يكره رسول الله أحدا على ترك دينه، بل ترك لهم حرية الاعتقاد والتعبد، هذه الحرية واحدة من حقوق الإنسان الأساسية التي يجب احترامها وتقديسها، وتحريم المساس بها من قبل أي كان، فجاءت الوثيقة لتؤكد على هذه الحرية في الفقرة (٢٥)) بالنص على: (لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ...)، وثبتت الفقرات (٢٦ - ٣٥) هذا الأمر، ليكون إقرار الحق في حرية الاعتقاد دافعا إلى تعميق الهوية السياسية الواحدة للمجتمع بصرف النظر عن تنوعه الثقافي، إذ «ترك عقد الوثيقة لليهود أن يباشروا عقائدهم الدينية اليهودية بحرية مطلقة على بعد عدة أمتار من المسجد النبوي؛ لأن يهود بني قينقاع كانوا يعيشون داخل المدينة ذاتها»<sup>(١)</sup>.

١ - حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، نبيل لوقا بباوي، ١٦٦. انظر: حقوق الآخر، خالد عليوي جواد،

فكما هو ملاحظ أن رسول الله في هذه الوثيقة لم يكتف بالسماح لليهود بممارسة دينهم بكل حرية بل أمّنهم على أموالهم وأولادهم، وعدم الإكراه في الدين كان من أهم المبادئ المقررة في وثيقة المدينة التي تعامل بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب في شخص اليهود.

فإقراره صلى الله عليه وسلم بحرية الاعتقاد والتعبد لغير المسلمين من مقومات السلم المدني داخل المجتمع المدني. وهذا الحق الذي منحه الاسلام للآخر إنما يرجع إلى تكريم الله للإنسان؛ ذلك أن حرية التدين، أو اختيار الدين، يعتبر من أرقى أنواع الحرية والاختيار وأعلاها وأسمأها، لذلك فالإكراه على الدين يناقض كرامة الإنسان من جانب، كما يناقض قيم الدين ونصوصه من جانب آخر، فحرية التدين ركيزة أساسية في المجتمع الإسلامي، وعدم الإكراه والقبول بصاحب الخيار والمعتقد (الآخر) هو استجابة لأوامر الدين والتزام بقيمه، فالمطلوب إليهم هو بيان الرشد من الغي وترك الحرية للناس، فالإكراه يضع أفئدة مزيفة ولا يحقق قناعة، ويخلق إنسانا مزيفا منقوص الإنسانية، ويزيد من مساحة النفاق والمنافقين.

وعليه فتحقيق كرامة الإنسان في توفير حرية الاختيار والمعتقد، وإلحاق الرحمة بالعالمين، في إشاعة العدل ومدافعة الظلم والفساد والعدوان، والإقرار بسنة التنوع، والاعتراف بحقيقة الاختلاف بين البشر، وأن لكل وجهة هو موليها، وإبراز القيم القرآنية، وبيان دورها في تأسيس وتأسيس المشترك الإنساني، والتركيز على القواسم المشتركة بين بني البشر، والتحول من هدر الطاقات والجهود في الحروب والنزاعات إلى تأسيس وتأسيس ثقافة السلم والتعايش والتفاهم والتعاون والحوار انطلاقا من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣) بحيث يتحول التنوع والاختلاف من نقمة إلى نعمة،

وعطاء، وإغناء للمسيرة الإنسانية، ذلك أن الناس منحدرون من أصل واحد، وأن سنة التنوع هي سنة الخلق، وأن الاختلاف المناخي والجغرافي والديمقراطي والقومي والعرقي والديني هو الطريق إلى التعاون والتكامل والتعارف والتحاور والتعايش و السلم، إذ يستحيل عقلا وواقعا أن يكون البشر بطبائعهم نسخة مكررة عن بعضهم، عندها تستحيل الحياة، وتتعطل الإيرادات، ويتوقف العمران ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨) (١).

وعليه فقد بينت الوثيقة حقيقة الحرية معرضة عن التعصب حتى ولو مع اليهود الذين أعطت لهم حقوقهم كاملة، كحق الجوار ما التزموا ببند الصحيفة؛ (٢) ومن ثم فهو دين لا يعرف العنصرية، إنه دين العدالة والمساواة والحرية والسلام الاجتماعي والرحمة مع جميع الأجناس، وقد حرصت الشريعة الإسلامية على تحقيق الوحدة السياسية للأمة، بالحفاظ على الاستقرار الاجتماعي والسياسي، والحفاظ على التنوع والاختلاف والانفتاح، على الآخرين وقبوله، وقد جعل الإسلام حقوق غير المسلمين فرضا دينيا، بحيث يحاسب المسلم على التقصير فيه (٣). خاصة وإن الإسلام في ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه، أو يقهره على الخضوع لشرائعه، ولم يقيم بمصادرة حقوقه أو تحويله بالكره عن عقائده أو المساس بأمواله وأعراضه، ودمائه، بل ترك أهل الأديان وما يدينون؛ لأن الاختلاف سنة ومن سنن الوجود» (٤).

١ - انظر: وثيقة المدينة المضمون و الدلالة، أحمد قائد الشيعبي، تقديم: عمر عبيد حسنه. ٢-٣.

٢ - انظر: <http://www.aboulyossr.com/news127.html>.

٣ - موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، ص ٥٨٣.

٤ - الشرق والغرب حوار لا مواجهة، د. إبراهيم أبو محمد، ١٤٦. وانظر: مظاهر حرية العقيدة في الشريعة الإسلامية، أحمد علي سليمان، ٤-٥.

إن مما تميز به المجتمع المدني أنه مجتمع متنوع الأطياف والأديان، ورغم هذا التنوع والتعدد فقد تمكن عليه السلام من خلال الوثيقة التآليف بين المسلمين أنصارا ومهاجرين، وبينهم وبين غيرهم من المخالفين لهم في الدين مما مكنهم من العيش بسلام وأمان.

وعلى هذا يمكن اعتبار وثيقة المدينة من أهم المشاريع النبوية التي يهدف من خلالها عليه السلام إلى اقرار الحرية سواء الدينية أو غيرها وعلى ترسيخ العدل و السلم الداخلي والخارجي بين المختلفين دينيا وسياسيا.

فالمأمول من وثيقة المدينة لا ينحصر في السلم الأهلي فقط، بل يتعداه إلى السلم الخارجي، وعليه فقد جسدت الوثيقة التطبيق العملي للسلم المدني، هذا الأخير الذي لم يكن مبنيا على العقيدة المشتركة، وإنما على أسس التعايش السلمي بين مكونات الدولة وعلى وحدة الجنس البشري وكرامته.

#### ثانيا: المقوم الاجتماعي:

أما المقوم الاجتماعي المستنبط من «وثيقة المدينة» والمحقق للسلم المدني فيتجلى في كونها تشكل العقد الاجتماعي الأول في تاريخ البشرية، والذي يعد أهم المرتكزات للمواطنة في دولة المدينة، والتي حمت السلم الأهلي من خلال حسن التعامل والتعاقد والشراكة والتكامل والتعارف والتوافق مع (الأخر)، وهو أمر يستدعي الاجتهاد والنظر والتفكير وإيجاد الصيغ الملائمة لتعامل المسلمين مع (الأخر)؛ ذلك أن (الأخر) موجود، وأن التنوع بالعقائد والأفكار والألوان والأقوام والأجناس سنة اجتماعية وكونية لا بد من التوافق معها على صيغ وقواسم مشتركة، وأن الاعتراف بوجود (الأخر) كواقع، والتعامل معه، والتوافق معه على صيغ تعاون لا يعني إقراره على ما هو، فله خياره ولا إكراه.

فقد عاش المسلمون مع غيرهم ممن يخالفونهم في العقيدة، يشاركونهم الحياة المجتمعية في رابطة إنسانية نابعة من الإسلام؛ ذلك أن دستور المدينة يقرر «أن المواطنة في الدولة الإسلامية تتسع لتشمل غير المسلمين من أبناء الوطن الأصليين، وأولئك الذين يختارون أن ينضموا إلى جماعة الإسلام السياسية».<sup>(١)</sup> ومن هنا تبرز أهمية الوثيقة التي لعبت دورا كبيرا في تثبيت السلم والتوافق بين جميع الأطراف المشكلة لمجتمع المدينة المنورة على بنود الوثيقة، ومن ثم تعتبر الحل الأمثل للقضاء على الاضطرابات والنزاعات ونزع فتيل الحرب التي كانت تنشب على أتفه الأسباب في أيام الجاهلية.

وأعذر عن عدم الإطالة في هذا المقوم؛ لأنني قد أدرجته في ثنايا البحث خاصة في مطلب القيم وفي بعدي المواطنة والأمن، فالمجتمعات لتنعيم ب السلم المدني لا بد أن يعم العدل والمساواة، وأن يتحلى الأفراد بقيم التكافل والتعاون، ويشعر الجميع بانتماء لوطن واحد، ولهذا فإني اکتفيت بالإشارة إلى هذا المقوم خشية التكرار.

### الفرع الثالث: المقوم السياسي:

إن من أسباب الفتن والتناحر التي تعيشها المجتمعات المعاصرة خاصة الصراع حول السلطة؛ فالازدواجية في الحكم وحب السلطة جعل البلدان تكتوي بنيران الحروب الأهلية التي تأكل الأخضر واليابس، بالمقابل لتحافظ البلدان على السلم المدني والاستقرار لا بد من أن يكون جميع المواطنين تحت قائد واحد وسلطة واحدة؛ فالسفينة التي تتعدد ربانيتها تغرق، وهذا ما يحدث في البلدان التي تعيش الحروب الآن؛ لذلك عملت وثيقة المدينة على تحديد الجهة التي تمثل القيادة العليا في الدولة الإسلامية من خلال النص على قيادة النبي صلى الله عليه وسلم

١ - وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، تقديم: عمر عبيد حسنه، ١٤ - ١٥. «بتصرف».

للأمة السياسية، ورئاسته للدولة، ومرجعيتها له، من خلال البند الأول الذي نص على: (هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ [رسول الله]، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ...)، والبند (٢٣) (التي نصت على: (وَإِنَّكُمْ مَعَهَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنْ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (.. يؤيد ذلك الفقرة) (٣٦ أ) (وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ)، وغيرها من البنود التي تنص على أن اليهود وجميع رعايا الدولة الذين عليهم الإقرار بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم والرجوع إليه في الأمور التي لها أهميتها في شؤون الدولة<sup>(١)</sup>).

وتحديد القيادة العليا من الأمور الحيوية التي لا بد أن تنص عليها المواثيق الدستورية، وعدم إغفال ذلك في نص الوثيقة يعزز قيمتها الدستورية المهمة<sup>(٢)</sup>؛ ومن هنا تظهر أهميتها في الاستقرار المجتمعي والسلم السياسي بل والاقتصادي؛ فإقرار الوثيقة على اعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم هو المرجع الوحيد -باعتباره يمثل القرآن الكريم والسنة النبوية- في كل خلاف، إنما هو من أهم السبل المحققة للسلم المدني عن طريق سد الباب أمام التفرق والانقسام الذي يحدث عند تعدد السلط.

وهذا لا ينفي عن حكومة النبي الصفة السياسية إلى جانب الصفة الدينية لأنه صلى الله عليه وسلم كانت له مهمة قيادية من خلال الشرع الإسلامي؛ لذا لا تناقض بين الصفة الدينية والصفة السياسية بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم، الذي كان يمثل الزعامة السياسية بأرفع معانيها، لاسيما إذا كانت هذه السياسة تمثل أرقى سياسة عرفتها البشرية؛ لأنها عملت على بناء أمة قيادية متحضرة تربطها فيما بينها المحبة والتآخي، ويسودها العدل، وتتمتع بالحرية التي تجعل من جميع رعايا

١ - المنهج النبوي في تنظيم دولة المدينة، د. جبر الهلّول، المعرفة الموجهة، دراسات إسلامية:

[http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blog-post\\_20.html](http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blog-post_20.html)

٢ - حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، د. خالد عليوي جواد، ١٥٨.

الدول عنصرًا فاعلاً في حركة الدول ونموها.

وباعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قائد دولة المدينة كانت من أولى الواجبات الملقاة على عاتقه وعي الظروف التي تعيشها المدينة وإدراكها؛ لكي يستطيع من خلالها التعامل مع الواقع في سبيل تغييره إلى الأفضل<sup>(١)</sup>، وهنا تجلت السياسة النبوية في تنظيم دولة المدينة من خلال توطيد دعائم الاستقرار السياسي، وبناء جبهة داخلية قادرة على الوقوف صفاً واحداً أمام أي عدو يهدد المدينة.

وهذا ما يمكن إدراكه من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومن كتابة وثيقة المدينة التي شملت جميع رعايا الدولة من يهود ومشركي المدينة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على الاستقرار الداخلي لدولته؛ ولأنه يعلم أن الدولة التي تفقد هذه الميزة تبقى في اضطراب دائم يمنعها من بناء ذاتها، ويضعفها عن الوقوف في وجه عدوها.<sup>(٢)</sup>

وحتى يتمكن جميع رعايا الدولة العيش بأمن وسلام أيضاً فقد عملت وثيقة المدينة على تنظيم علاقة الراعي بالرعية، وتبيين حقوق وواجبات كل المتعاقدين، والتزامهم ببنود المعاهدة التي تم ذكرها في ثنايا هذا البحث.

والظاهر منها أن اليهود أصبحوا مع المسلمين في المدينة المنورة كأمة واحدة فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل العيش المشترك على أرض المدينة المنورة محمياً من أي تصدع واختلاف، فألزم الجميع بتلك الوثيقة الواحدة وبالعيش المشترك على أرض المدينة التي كان يسكنها المسلمون وغير المسلمين<sup>(٣)</sup>.

١- قيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) السياسية والعسكرية، أحمد راتب عرموش، ١٨٦.

٢- دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة، محمد رواس قلعة جي، ٢١١. المنهج النبوي في تنظيم دولة المدينة:

[http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blog-post\\_20.html](http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blog-post_20.html)

٣- السلم والسلام، محمد الحسيني الشيرازي، ٧٨-٧٩.

وكما هو ملاحظ فإن اليهود مثلوا صورة الآخر الداخلي الكتابي المختلف عقائدياً مع الجماعة المؤمنة (الأنا)، لكنه يتشارك معها الوجود السياسي في إطار الكيان السياسي للدولة الإسلامية، فأعلن استناداً إلى الوثيقة عن قبوله المشروع السياسي للدولة، وحددت فقرات عدة في الوثيقة ماله من حقوق وما عليه من التزامات يقتضيها العيش المشترك والمصالح المتبادلة، وقد ورد ذكر اليهود في الوثيقة ٢١ مرة، وبصيغ مختلفة، ابتداءً من الفقرة (١٦) التي نصت على: (وَإِنَّهُ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ، لكون الوثيقة موجهة لموادعة اليهود أولاً، ولترسيخ أهمية الاعتراف بوجودهم، وقبول التعايش معهم ثانياً.

إن ظروف العداء الأني مع قريش كآخر خارجي معادي، لم تمنع القيادة النبوية من امتلاك رؤية إستراتيجية مستقبلية في احتمالية ظهور آخرين خارجيين خطرين على مستقبل الوجود السياسي الإسلامي، كما يفهم ضمناً من سياق الفقرة التي نصت على: (وَإِنَّ بَيْنَهُمْ - أي الجماعة المؤمنة والآخر الداخلي - النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ. فيثرب هنا تمثل الكيان السياسي للدولة آنذاك وحماية هذا الكيان لا تقتصر على الجماعة المؤمنة فقط، بل تقتضي مشاركة جميع أفراد الاجتماع السياسي بصرف النظر عن اعتقاداتهم وأفكارهم السياسية، ويمكن برؤية تحليلية معاصرة توسيع مفهوم الآخر في هذه الفئة ليشمل الآخر الدولي، والآخر الإقليمي، فتصبح الوثيقة مرتكزا جيدا للبناء الداخلي للدولة - آنذاك - بخلقها الظروف الملائمة لبناء نسيج اجتماعي متجانس قادر على تجاوز التنوعات الثقافية لحساب المصلحة العامة العليا للدولة من جهة، ومن جهة أخرى رسمت الوثيقة مسار العلاقات الدولية للدولة الإسلامية بجعلها تستند إلى قاعدة عدم العدوان أيّاً كان مصدره<sup>(١)</sup>.

١ - حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٥٥ - ١٥٦.



وعليه فإن الإقرار بهذه الحقوق الإنسانية المهمة للآخر في وثيقة المدينة يمثل علامة مضيئة على البعد الإنساني للإسلام، واتساع أفق التشريع في هذا الدين لبناء كيان سياسي إسلامي مدني يعزز السلم المدني ومبدأ التعايش بين أعضائه على اختلاف معتقداتهم الدينية، ومشاربهم الفكرية، وانتماءاتهم الاثنية، فيجنبهم الانزلاق إلى شرك العنف والتطرف والاحتراب المجتمعي<sup>(١)</sup>.

إن هذه المعاهدة قد شكلت تحالفاً عسكرياً سياسياً مع اليهود من خلال التناصر فيما بينهم على من يحارب أهل هذه الصحيفة والمقصود بهم اليهود والمسلمين معاً، وبهذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يجر اليهود إلى جانبه أو على الأقل تحييدهم والتفرغ للعدو المباشر والرئيس وهو الوثنية المكية، فكانت هذه الخطوة الأسلوب الناجح للنبي في مواجهة أعداء الدعوة في كافة مراحل الصراع، إذ كان يعمل على تجميد خلافاته مع بعض الجماعات المضادة له من أجل التفرغ للعدو الرئيس، الذي تكون خطورته أشد على النبي صلى الله عليه وسلم والجماعة المؤمنة<sup>(٢)</sup>.

كما أن المحافظة على السلم المدني داخل المدينة اقتضت ضبط ومراقبة تنقل اليهود الذي لا يكون إلا بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم احترازاً من أي مكر وخداع وخيانة من خلال تحالف اليهود مع الأعداء الخارجيين، وتقييد هذا الحق على اليهود بمنعهم من مغادرة المدينة إلا بإذن صاحب السلطة: رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد في البند (٣٦): (وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ) لا يعد تعدياً على هذا الحق، أو حرماناً لمواطنين منه، بل هو إجراء كثيراً ما تلجأ إليه الدول الحديثة لمراقبة تحرك بعض الفئات والأشخاص، سواء بمرور المحافظة على

١- المرجع السابق، ١٦٠-١٦١.

٢- دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة، محمد رواس قلعة جي، ٣٣. انظر: [http://doc-gabr-althallul.blogspot.com/2015/05/blog-post\\_20.html](http://doc-gabr-althallul.blogspot.com/2015/05/blog-post_20.html).

أمنهم، أو الحيلولة دون خطر محتمل منهم، مراعاة للمصلحة العامة، ففي هذا الإجراء النبوي المنصوص عليه في الوثيقة بموافقة اليهود «احتياط لاحتمال قيام اليهود باتصالات خارج المدينة قد تقود إلى اتفاقيات تضرب دولة الإسلام الناشئة، وبهذا يصبح أي فرد يخرج من اليهود بعد الإذن معلوما بذاته لدى القيادة، ومعلوم الجهة والهدف من الخروج»<sup>(١)</sup>.

وهذا لا يعتبر تقليصاً للحريات وإنما هو إجراء أمني تلجأ إليه البلدان للحفاظ على أمن وسلامة رعاياها والوافدين عليها، وهذا ما يؤيده السيد محمد مهدي شمس الدين في قوله: «فهو إجراء أمني قد يراد به التحفظ على علاقاتهم) أي اليهود (الخفية مع المحيط المعادي، وقد يراد منه مع ذلك حفظهم من وقوع الاعتداء عليهم بسبب تعاقدهم مع المسلمين في المجتمع الجديد<sup>(٢)</sup>» خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن مصدر القلق والاضطراب الذي يهدد المدينة يأتي من قبل اليهود؛ لما كان لهم من دور بارز في حياة المدينة قبل الهجرة، وللحقد والكراهية التي يضمرونها له ولأتباعه، ولذلك لابد من ملاحظة هذا الوجود الخطر الذي يهدد الجماعة الإسلامية والذي قد ينقلب في أية لحظة مستغلاً أقسى الظروف للتعاون مع العدو الخارجي؛ ولا يجد النبي صلى الله عليه وسلم أن من الحكمة إخراجهم من المدينة لينضموا إلى عدو المسلمين مشكلين حلفاً أمام دولة حديثة النشوء، وغير قادرة على مواجهة تلك القوة التي تجمعها مصالح مشتركة لمواجهة الإسلام وأهله بقوة مادية كبيرة من السلاح والمال والرجال التي يمتلك اليهود جلها<sup>(٣)</sup>.

- ١- حقوق الإنسان والعدالة الجنائية، محمد عبد الله ولد فرحان، ٧٠. وانظر: حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.
- ٢- في الاجتماع السياسي الإسلامي، محمد مهدي شمس الدين، ٢٧٨. وانظر: حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٦٠.
- ٣- المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى، محمد مختار الوكيل، ٣١-٣٢.

لذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتناول هذا الواقع «بحكمة النبي، وحزم القائد، وحنكة السياسي، وخبرة المربي، ليضع الحل المناسب الذي يجنب المسلمين ما يتوقع من يهود من الشر، حتى يشتد عودهم، وتقوى شوكتهم، ويصبحوا قادرين على مواجهة عدوهم، وتلخص هذا الحل في عقد معاهدة بين المسلمين من جهة، وبين اليهود من جهة أخرى»<sup>(١)</sup>.

بناء على ما تقدم، فإن سياسة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد سعت الى استيعاب جميع الأطياف المشكلة للمجتمع المدني بغض النظر عن اختلافهم الديني، ومن تم تأمين شر بعض الفئات وتجعلهم لجانها ولو بشكل مؤقت، كما تمكن عليه السلام من خلال الوثيقة من بناء السلم المدني والعدل والحرية سواء الدينية أو غيرها وحماية الأفراد والممتلكات؛ ومن هنا يبرز أن السياسة الناجحة تستطيع أن تحدد من الاضطرابات والاحتراب الداخلي، وأن تبعد التأثير السلبي من الجهات الخارجية، وبذلك تمثل مقوما مهما في تثبيت السلم المدني وتحقيق التعايش السلمي بين الأنا والآخر.

وعليه فإن السياسة المحمدية تمثل نموذجا يقتدى به في تحقيق السلم الكوني وليس المدني فقط؛ ومن هنا نستخلص أن وثيقة المدينة تجسد نموذجا راقيا في الوصول بالإنسانية بمختلف مللها إلى بر الأمان والسلام؛ لكون السلم حاجة إنسانية ماسة يسعى كل فرد للتمتع بها والحفاظ عليها.

### المطلب الخامس: أبعاد السلم المدني من خلال وثيقة المدينة

#### الفرع الأول: الأمن و السلم المدني:

إن من المقاصد التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها حفظ الكليات

١ - المرجع السابق. انظر: <http://doc-gabr-ahallul.blogspot.com>.

الخمس، وهذه الأخيرة من أهم ما تتطلبه الأمن والسلام، بل يُعدُّ الأمنُ مقصدًا من مقاصد الشريعة، فقد حصر العلماء المقاصد الضرورية في حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وصَرَّحَ الماوردي بأنَّ صلاح الدنيا وانتظام أمرها بستة أشياء، منها: أمنٌ عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف؛ فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة<sup>(١)</sup>، فبانت منه أيضًا أهميَّة الأمن والسلام، فالإسلام هو رسالة السِّلْم والسلام الذي يريد للإنسانية الرقي والتقدم والحضارة والسكينة والاطمئنان، فالإنسان غير الأمن في سره ومسكنه وحياته، لا يتمكن من أن يحقق الازدهار والنمو، بل كثيرًا ما يسبب فقدان الأمن الناشئ من الخوف ونحوه تحطيم الإنسان في أبعاده المختلفة، واستنفاد معنوياته السامية التي تحافظ على كرامته وإنسانيته<sup>(٢)</sup>.

من هنا تتبين الأهمية الكبرى للأمن في حياة الأفراد والمجتمعات، فهو الأساس لاطمئنان الإنسان وسكينته النفسية، والدافع للعمل والاجتهاد، والمساهمة في الرقي وتنمية البلدان، لذا فقد كانت من بين ما نصت عليه الوثيقة بوضوح ضرورة الحفاظ على أمن وسلامة المواطنين بمختلف أطيافهم وأديانهم؛ فساكن المدينة آمن فيها وآمن عند الرجوع إليها، وهذا ما يصرح به البند (٤٧): (وَأَنَّ مَنْ خَرَجَ آمِنًا، وَمَنْ قَعَدَ آمِنًا بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَاتَّعَمَّ).

هذه بعض فقرات معاهدة المدينة التي احتوت قبائل شتى وأديانًا شتى، وعشائر شتى، وأطبيافًا شتى، وألوانًا شتى من بدو، إلى موال، إلى مهاجرين، إلى أنصار، إلى أوس مسلمين، إلى أوس وخزرج مسلمين، وإلى أوس وخزرج

١ - أدب الدنيا والدين للماوردي، ١١١ ١١٩. وانظر: أثر تعليم القرآن الكريم في حفظ الأمن، د. عبدالقادر الخطيب، ٧-٨. نقلًا عن: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الأمن والسلام، محمد سجاد يونس، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة: 2012/2/11 : <http://www.alukah.net>

٢ - السِّلْم والسلام، محمد الشيرازي، ٤٤.

وثنيين، وإلى أوس وخزرج يهود، كل هؤلاء انتظمتهم هذه الاتفاقية، هذا من تخطيط النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا من حكمته، وهذا من منهج الله عز وجل<sup>(١)</sup> الذي أدى إلى قبول هذه الوثيقة الجماعية في ختام المباحثات التي أجراها النبي صلى الله عليه وسلم مع الأطراف الأخرى، والتي استندت إلى أخذ إجماع كل الأطراف، بهدف إيقاف الفوضى وغياب الأمن الذي تردى فيه أهل المدينة بعد ١٢٠ عامًا من القتال والبغضاء، ولم تستطع المدينة أن تصل بنفسها إلى حل واستقرار وسلام اجتماعي وسياسي مع القوى الاجتماعية فيها، فكأنها كانت تنتظر منقذًا لها، وبينما كانت هذه المدينة تتقهقر باستمرار إلى الوراء اقتصاديًا بسبب الحروب المستمرة، كانت هناك في الأفق نذر حرب جديدة، وفي هذا الوقت الحرج ظهر شخص أجنبي عنها أشار إلى طرق إمكانية العيش معًا بأمن وسلم مع كافة المجموعات الموجودة الأخرى، ودعا الجميع إلى الارتباط بالأسس القانونية التي تعطي لكل ذي حق حقه<sup>(٢)</sup>.

إن هذه الوثيقة لم تقتصر على حفظ أمن وسلامة قاطني المدينة بل تعدتها إلى حفظ حق الجار في الأمن: (وَأَنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). والحفاظ عليه كالمحافظة على النفس، حيث ورد في البند (٤٠): (وَأَنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرِ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ)<sup>(٣)</sup>.

وعليه فإن الأمن و السّلم المدني والتعايش السّلمي بين جميع رعايا المدينة المنورة من أهم ما ركزت عليه الوثيقة، لما لها من أهمية عظيمة في حياة الفرد والجماعة، بل في حياة الانسانية جمعاء.

١ - مفهوم التعايش السّلمي السيرة - فقه السيرة النبوية - د. محمد راتب النابلسي، الدرس (٤٨-٥٧):

<http://nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=9310>

٢ - وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج، ١٥.

٣ - السيرة، ابن هشام، ٢ / ٣٦٨-٣٧٠. وانظر أيضا: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، ٦٢.

والملاحظ أن السلام ارتبط بالأمن، كما في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ (الحجر: ٤٦)، ودين الإسلام هو دين الأمن والسلام، والسلام الذي جاء به الإسلام، هو سلام عام مع النفس البشرية، أي: سلام مع الذات، ومع الجماعة، والمجتمع، والعالم كله<sup>(١)</sup>.

فلا سلم بدون أمن، ولا أمن بدون سلم، إذ السلم في الإسلام حقيقة لا غبار عليها، وأما ما يروج من قبل بعض الناس من أن هذا الدين هو دين القتل والإرهاب والخوف، فكلها أكاذيب وأباطيل، لا حقيقة لها أصلاً، وهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً؛ لأن السلم في الإسلام قائم على الحق والعدل، وهو الأصل في السياسة الشرعية، لأن ذلك يحقق التعايش السلمي بين الشعوب والأمم، مع الحفاظ على استقلالية وكرامة المسلمين، والحيلولة دون تسلط الكافرين على رقابهم ومقدراتهم<sup>(٢)</sup>.

فلا سلم ولا أمن بدون عدل ومساواة، وهذه من الأمور التي أشارت الوثيقة إليها، بالإضافة إلى نص البند (٢٢) على ((وَأِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبُ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحَدَّثًا أَوْ يُؤْوِيَهُ، وَأَنْ مَنْ نَصَرَهُ، أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ)).

وأصلت بذلك تجريم ما يسمى في عصرنا: «التستر على المجرمين»، حيث منعت أن يجدوا لهم مأوى أو نصيراً، الأمر الذي قد يترتب عليه انعدام الإجرام وسط المجتمع<sup>(٣)</sup>.

١ - العلاقات الدولية بين المسلمين، د. عدنان السيد حسين، ٤٧-٤٨. انظر: مفهوم السلم في الإسلام، د. إياد كامل الزبياري، موقع سابق.

٢ - العلاقات الدولية للحكومة الإسلامية من وجهتي النظر الفقهية والسياسية، عباس الذهبي، ٣٩٦. انظر: مفهوم السلم في الإسلام، د. إياد كامل الزبياري، موقع سابق.

٣ - حقوق الإنسان والعدالة الجنائية، محمد عبد الله ولد فرحان، ٦٩.

ولا شك أن البند (١٣) السالف الذكر: (وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أيديهم] عَلَى [كل] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظُلْمًا، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عُدْوَانًا، أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَوَلَدَ أَحَدِهِمْ.) واضح في تحديد الحكم القاطع في حفظ الأمن الداخلي للدولة (المدينة) ضد البغاة، إذ أقام الحد على المخالف، فالبند ينص على وحدة الجماعة في وضع الحد القانوني على المخالفين، كذلك في رعايته وتنفيذه، كذلك يؤكد مسؤولية الدولة عن الأفراد والجماعات، والواجب المشترك في الدفاع ومواجهة الظلم، أو منع الفتنة الداخلية أو نشر العدل<sup>(١)</sup>.

كما يؤكد البند (٤٥) الذي جاء فيه: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ) على السلم والصلح لكل من رغب في ذلك، ويستثنى من حارب في الدين.

ويتضح منه أن دعوة المصالحة والمسالمة مفتوحة داخل المدينة وخارجها، ولم تخصص لفئة من دون الناس؛ إذ (لكل أناس حصتهم من جانبيهم الذي قبلهم) - كما ورد في البند (٤٥ب) - شرط أن يكون قرار المصالحة بيد أهل المدينة ومرجعها الأعلى<sup>(٢)</sup>.

وعليه فقد استطاع خاتم الأنبياء والمرسلين من خلال وثيقة المدينة المنورة من إقامة مجتمع إنساني مثالي في تحقيق الأمن و السلم المدني والتعايش السلمي.

١ - قراءة في دستور المدينة (مقال) حقوق الإنسان في الفكر العربي، وليد نويهض، ١٤٥. انظر: حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية. د. مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية سابقة.

٢ - المرجع نفسه ١٥١-١٥٢.

## الفرع الثاني: المواطنة والسلم المدني:

إن من الأبعاد التي أشارت إليها وثيقة المدينة وسعت إلى تحقيقها محاولة صهر جميع رعايا الدولة الإسلامية، في بوتقة واحدة فيما يسمى بالمواطنة؛ فحين هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وجد فيها عقائد مختلفة، وقبائل شتى، تشكلت بعد استقراره إلى فئات ثلاث في ذلك المجتمع الجديد هم: المسلمون، واليهود، والعرب المشركون، ويتألف المسلمون من المهاجرين والأنصار الذين يتألفون بدورهم من الأوس والخزرج، وهو ما يمثل نسيجا غريبا ومخالفا لتقاليد العرب وأعرافهم في ذلك الوقت في الجزيرة العربية، وفي ظل ذلك التنوع، أراد صلى الله عليه وسلم أن يؤسس دولة قوية يسودها السلام والتعاون والمشاركة بين جميع أطرافها على مختلف مشاربهم، ومن هنا جاءت وثيقة المدينة كأول دستور للدولة المدنية في العالم، يحدد ملامح دولة الإسلام الجديدة، ولا يفرق بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس<sup>(١)</sup>.

فالمواطنة في الدولة الإسلامية الأولى لم تنحصر في المسلمين وحدهم، بل امتدت لتشمل اليهود المقيمين في المدينة، واعتبرتهم «الوثيقة» من مواطني الدولة - أمة مع المؤمنين - وحددت ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، وهذا ما نراه في البند رقم (٢٥): «وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ». ولم يقف الأمر عند يهود بني عوف وحدهم، وإنما امتد لباقي قبائل اليهود، بل إن بعض بنود «الوثيقة» تنص على واجبات المشركين من أهل المدينة، مما يشير إلى أنهم دخلوا في حكم الدولة الجديدة وخضعوا لأسس تنظيمها التي وردت في وثيقتها، وأوضح هذه البنود البند رقم (٢٠ب): «وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ» وهكذا يتبين

١ - وثيقة المدينة ودستور المواطنة، علي جمعة، مقال منشور على الموقع: [www.digital.ahram.org.eg](http://www.digital.ahram.org.eg).

انظر: حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٥٧.



أن عنصر الإقليم «المدينة» والإقامة فيه عند نشأة الدولة هو الذي أعطى اليهود والمشركون حق المواطنة، وضمن لهم التمتع بالحقوق التي كفلتها «الوثيقة»، بعد أن كان هذا الحق يقوم بين القبائل على أساس صلتها أو انحدارها من أصل مشترك، كما كان في الجاهلية<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن مفهوم المواطنة يلتقي مع مفهوم الأمة، وهذه الأخيرة بمفهومها السياسي الواسع تتسع لتشمل أكثر من جماعة دينية واحدة، مما يجعل المجتمع الإسلامي سياسياً متكون من فئات عدة لها انتماءات دينية مختلفة، كما وضحت ذلك الفقرة (٢٥) السابقة، وهذا النص بسياقه السياسي جعل المواطنة ركيزة مهمة من ركائز المجتمع السياسي الإسلامي قد تتساوى مع الانتماء الديني حين يكون المجتمع السياسي كله ذا انتماء ديني واحد، فيتحد في الخارج المعاش مفهوم الأمة مع مفهوم الوطن، والدولة، والمواطنة، وقد لا تتحد هذه المفاهيم في مصداق واحد، فتكون أمتان أو أكثر في الانتماء الديني في وطن واحد، ومجتمع سياسي واحد، ودولة واحدة، فالأمة الواحدة في المعنى السياسي التنظيمي للوثيقة، تشكل مجتمعا سياسياً واحداً، مكوناً من أمتين من حيث الانتماء الديني<sup>(٢)</sup>. وقد يتكون من أكثر من أمتين في بعض الأحيان.

مع ترك الباب مفتوحاً لانضمام تنوعات ثقافية أخرى للتمتع بهذا الحق حسبما ورد في الفقرة (١): (وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ). والفقرة (٢٥) أيضاً، ويدل ذلك على أن الإسلام يقبل فكرة تأسيس مجتمع سياسي متنوع في دولة واحدة، ونظام حكم واحد، على أساس الإسلام، يتمتع الجميع فيها بحق المواطنة الكاملة، ولا يشترط لإقامة الدولة أن تكون لمجتمع إسلامي نقي خالص<sup>(٣)</sup>.

١- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ٣٢.

٢- نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين، ٥٣٥-٥٣٦.

٣- في الاجتماع السياسي الإسلامي، محمد مهدي شمس الدين، ٢٦٦. انظر: حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٥٩.

وعليه فإن مفهوم المواطنة أو ما يمكن أن يصطلح عليه بمفهوم السّلم الأهلي، ومفهوم قبول الآخر، هذه المفهومات الطارئة في العالم الإسلامي اليوم إنما أراد منها النبي صلى الله عليه وسلم تأسيس نظام عام أساسه التعايش السّلمي لكي يتحقق الاستقرار في المدينة و السّلم المدني بين مواطنيها<sup>(١)</sup>، وأن يؤسس أيضا دولة قوية يسودها السلام والتعاون والمشاركة بين جميع أطرافها علي مختلف أديانهم وأعراقهم ومشاربهم.

ومن هنا جاءت وثيقة المدينة كأول دستور للدولة المدنية في العالم يحدد ملامح دولة الإسلام الجديدة، ولا يفرق بين مواطنيها من حيث الدين أو العرق أو الجنس، فأكد «أن أطراف الوثيقة عليهم النصر والعون والنصح والتناصح والبر من دون الإثم»<sup>(٢)</sup>، وحرصت الوثيقة على أن يكون الدفاع عن حدود هذه الدولة مسئولية الجميع، مؤكدة روح المساواة والعدل والتعاون والتعايش السّلمي بين أطرافها<sup>(٣)</sup>.

ويترتب على انتماء المتعاقدين للدولة، وفقا للبنود الواردة في «الوثيقة» أن ينعم أهلها-من المسلمين وغير المسلمين- بالعصمة في أنفسهم وأموالهم، فهم جميعا آمنون بأمان الإسلام: المسلمون بإسلامهم، والذميون بسبب عقد الذمة، وهي نفس آثار انتماء الأشخاص إلى دولهم وفقا لرابطة الجنسية، بمفهومها القانوني.

كما نص عليه دستور المدينة في الفقرة الأولى والثانية من البند رقم (٢٥) الذي قرر المواطنة المتساوية لليهود وغيرهم مع المسلمين تحت لواء الدولة

١- انظر: <http://nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=9310>

٢- وتوخيا للإيجاز سأقتصر على الإشارة فقط إلى أرقام البنود (٣٧) و (٤٤) و (١٨) دون ذكرها خشية التكرار والإطالة انظر إلى المطلب الثاني والرابع: مقومات السّلم المدني في وثيقة المدينة.

٣- انظر: <http://www.ahram.org.eg/archive/TheWriters/News/58454.aspx>

الإسلامية، يعيشون معصومين دما ومالا وعرضا بحكم مواطنتهم الدائمة، وعلى من يكتسب هذا الحق أن يقوم - في نظير ذلك - بواجبات مؤداها تحقيق التكافل مع الدولة، والولاء لها، لحفظ كيانها داخليا، وفي هذا دلالة على أمرين:

**الأول:** تأصيل مبدأ حرية العقيدة، وهو من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها هذه الدولة الناشئة.

**الثاني:** مبدأ التسامح مع أهل الأديان السماوية الأخرى، وذلك بأن جعل لهم الإسلام من الحقوق وأوجب عليهم من الواجبات عين ما للمسلمين وعليهم، وليس أعدل ممن يساويك بنفسه في النصفة والعدل والحكم<sup>(١)</sup>.

وعليه استطاعت وثيقة المدينة أن توصل لمصطلح المواطنة، وأن تعالج علاقة المسلمين واليهود ومن يعيش في أرجاء المدينة تحت ما يسمى بـ السلم الأهلي أو المواطنة، التي عززت الإحساس بالهوية والانتماء لدى الأفراد والجماعات لوطن واحد، بغض النظر عن مرجعيتهم الدينية، مما يسر نشر السلم المدني في المدينة ولو بشكل مؤقت.

**الفرع الثالث: حوار الأديان، الحضارات سبيل لتحقيق السلم المدني:**

اقتضت سنة التدافع التي تقوم عليها الحياة البشرية مراعاة سنة الاختلاف والتنوع التي خلقها الله في البشر لأجل التعارف والتعايش والتفاهم، وأيضا لتحقيق سنة الله في التدافع والتكاثر والتنامي، الذي لا يمكن أن يكون إلا بالتنوع، فإن الحوار بأشكاله ومسمياته ومصطلحاته المتعددة يصبح من لوازم الحياة وضمن استمرارها وإقامة العمران والاضطلاع بأعباء الاستخلاف البشري الذي يقتضي الاضطلاع به التعارف والتعاون والتعايش والتدافع<sup>(٢)</sup>، ولنا في السنة النبوية

١ - وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، ٣٣ - ٣٤.

٢ - الحوار.. الذات، والآخر، عبد الستار إبراهيم الهيتي، <http://uqu.edu.sa/page/ar/59175>

الأسوة الحسنة في مراعاة الاختلاف والتنوع بين البشر، فكان صلى الله عليه وسلم ينزل الناس منازلهم ويراعي خصوصياتهم، فقبل أن يفتح الجسور مع أهل الكتاب من خلال الحوار الهادف لتحقيق المصالح المشتركة ودعوتهم إلى الإسلام آخى بين المسلمين أولاً.

ولقد سارع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين جميع سكان المدينة بمن فيهم اليهود بما عرف بوثيقة المدينة، فقد استطاع رسول الله أن يوحد أول طائفة من المسلمين ألا وهي الأنصار معتمداً على منهج المؤاخاة والحوار، وأيضاً على أساس البعد العقدي، كما تمكّن من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ويجمعهم في بوتقة واحدة، لينتقل إلى محاوره الآخر المتمثل في اليهود؛ فعند هجرته إلى المدينة واصل الرسول دعوته إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وإقامة الحجّة والبرهان، ووضع المجتمع الجديد أصول الحوار وقواعد التنظيم وأسس التعايش بين الجماعات والديانات<sup>(١)</sup>، فالحوار هو السبيل إلى بلوغ الهدف ووصول البشرية إلى بر السلام؛ ومستقبل الإنسانية جمعاء يتعلق بحل إشكالية التفاهم والتبادل بين الشعوب، والتركيز على التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينية المشتركة التي تحث على احترام الحياة الإنسانية والسعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام.

ولولا الحوار وإن اختلفت أسماؤه لما تحقق أي سلم اجتماعي ولا أية وحدة سياسية، ولما كانت لتقام المواثيق والمعاهدات، التي يجب أن تسجل بإرادة إنسانية حرة وبرضا الأطراف ودون أي إكراه، ويمكن القول بأن وثيقة المدينة مثال واضح وجيد طبّق في الواقع العملي فعلاً، وأتموذج للعيش معاً بسلام<sup>(٢)</sup>، وكيف تبرم المعاهدات وتعدّد المواثيق دون الحوار؟!

١ - حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، محسن بن محمد بن عبد الناظر، ١٠٣.

٢ - وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج، ١٢.

وليحقق هذا الحوار، والحوار بين الأديان عامة، مقصده في إقامة السلم المدني والتعايش السلمي يجب أن ينأى عن استهداف التوحيد بين دينين أو أكثر، وهذا يعني ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرف لعقيدة الآخر والتسليم بمبدأ الاختلاف ومبدأ حرية الاختيار، وأمر ترك المحاسبة على الاعتقاد والأعمال على السواء لله سبحانه<sup>(١)</sup>.

وبذلك تمثل وثيقة المدينة أرقى صورة للحوار الداخلي لمختلف الطوائف المكونة للمدينة التي نورها صلى الله عليه وسلم بقدمه، ومن أهداف هذه الوثيقة: الدفاع عن أمن المدينة، وأن يعيش كل أفرادها في سلام إذا التزم الجميع بتنفيذ بنود الوثيقة؛ ولذلك فإن أبعاد الحوار لا يمكن أن تُحدَّ مادام الهدف هو الوصول إلى النتائج الإيجابية وتحقيق المآرب الإنسانية ونيل المقاصد الشريفة، وإزالة أسباب الخلاف ودواعي الشحناء والبغضاء<sup>(٢)</sup>.

ومن هذه الأهداف النبيلة للحوار الديني التقريب والتقارب بين الأنا والآخر، وتحقيق السلم المدني والتعايش بينهما؛ حيث إن التعايش والتلاقي والتحاور مع الآخر في مناخ إيجابي يعني الإقرار بوجوده كفكر يتحرك على ساحة الواقع، وهذا لا يعني بالضرورة الإيمان بفكره، وفي تجارب الإسلام ما يدل على تعايش التيارات المختلفة في ظل الدولة الإسلامية الأولى، وجريان جلسات الحوار بعيداً عن روح التشنج والتعصب الفكري والانتمائي ومحاولة قسر أو إكراه الآخر على القبول بالرأي المخالف؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤) وهذا يشير إلى انفتاح

١- آفاق التعاون بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى واستشرافها بالحوار، د. محمد صدقي الدجاني، ٤٠.

٢- إشاعة ثقافة الحوار وتعزيز التسامح سبيل للتخلص من الطائفية والاختلاف، د. عبد العزيز بن عثمان

التويجري: <http://www.taghrib.org/pages/contant.php?tid=93>

الإسلام على الآخر، وأنه لا يعيش الانغلاق والجمود والانطواء على الذات، ولا يعمل على محاصرة الفكر الآخر أو إقصائه من الساحة<sup>(١)</sup>، كما أنه يساهم في بناء التعايش والتعارف والتعاون والحيلولة دون الحروب والمواجهة، وأهميته في بناء المشترك الإنساني والارتقاء بالإنسان وتحقيق كرامته واسترداد إنسانيته.

وقد أصبح حوار الأديان والحضارات أكثر إلحاحاً في الوقت الحاضر باعتباره وسيلة للتعايش السلمي والراقي الحضاري، وباعتبار الحوار هو الأسلوب المتحضر والراقي في التعامل مع جميع الآراء الثقافية والفنية والدينية لإشاعة التعايش السلمي وتجنب نشوء أزمات حضارية تزج بالإنسانية في نفق مظلم<sup>(٢)</sup>، ولنا في السنة النبوية قدوة في انتهاج الحوار الذي كان سمة مميزة طبعت المجتمع النبوي الذي كان خالياً من كل تعصب أو تطرف ومن كل عنف أو غلو مع الذات أو مع الآخر<sup>(٣)</sup>.

إن هذا الوضع يتطلب الاقتداء بالجهود النبوية من أجل تأسيس أرضية مشتركة للحوار وتقبل الآخر المخالف في الدين والاعتقاد والثقافة؛ وعليه فإن وثيقة المدينة المنورة تجسد نموذجاً رائعاً لفتح آفاق الحوار والتسامح والاحترام المتبادل وتقديس التنوع في مجتمعاتنا الإسلامية<sup>(٤)</sup>؛ لمنع انغلاقها الحضاري والثقافي على بعضها البعض وعلى المجتمعات الأخرى، تؤسس لبناء دولة مدنية قائمة على السلم المدني المجتمعي، فإدراك أن الآخر الذي نعيش معه في الإطار الوطني أو في الإطار الإنساني له حقوق مقدسة لا بد من احترامها سيفسح المجال

- ١- انظر: الخطاب الثقافي بين التأسيس والممارسة، <http://annabaa.org/nba60/khtabthkafi.htm>
- ٢- قضية الحوار الديني والحضاري، محور العولمة وتطورات العالم المعاصر، ياسين الورد، الحوار المتمدن، العدد ٢٣٩٢ - ٢٠٠٨ / ٩ / ٢ / ١٤٥٧٩٨ = aid / show.art.asp?aid=145798
- ٣- سماحة النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع غير المسلمين، حسن عزوزي، المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب. - 3086 / ... / majlisyacoub.com
- ٤- الدين كعامل مساعد وكمعيق للعمل من أجل التعايش بعد الخروج من النزاع، مارك غوين، ٣٢٨.

للتعايش معه، وسيهدم الأسوار التي تحول دون تقبله كشريك إنساني لا بد من العمل معه، فبقاء أسوار الشك والخوف من الآخر، وتهميشه ورفض الاعتراف بوجوده من شأنها غلق باب النقاش والحوار معه<sup>(١)</sup>.

لكن ثقافة الحوار وتنمية فلسفة التعايش والائتلاف من أجل تحقيق السلم المدني لا ينبغي أن تتم من جهة واحدة فتصير بحثاً عن الاندماج في الآخر وذوباناً فيه، بل لا بد لها من الاعتراف بالحق في الاختلاف فيما بين الأطراف، ولا بد أن تستمد قوتها ومصداقيتها من كون استحالة أن يكون الطرف «القوي» هو المنتج الوحيد للقيم، أو هو المحدد لما يصلح له في رسم الآخر «الضعيف»! فالقبول بالائتلاف يكون في القبول بالاختلاف على أساس التعايش بالاحترام.

ينبغي لنا كمسلمين أصحاب رسالة إنسانية حضارية أن نتذكر كثيراً هذا المبدأ المعبر عنه في نصوص القرآن الكريم والحديث بمفردات متقاربة: كالعفو، والحكمة، والدفع بالتي هي أحسن<sup>(٢)</sup>.

وقد قدمت الوثيقة مساحة كبيرة للتعامل مع أهل الكتاب ممثلاً في اليهود بشتى أنواع التعامل من التناصح والتسامح والأمن والتحاور والتعاهد والتحالف والدفاع المشترك من أجل المدينة؛ لذا يجب الرجوع إلى المصادر الأولى للتشريع الإسلامي للاستفادة منها واستخلاص الدروس والعبر التي بإمكانها حل مشكلات هذا العصر.

وعليه فإن حوار الحضارات والأديان مهمة إنسانية، وخيار منهجي، ومطلب واقعي وشرعي بما يتضمنه من اعتراف بالآخر وبحقه في الوجود؛ إذ بدونه تنعدم شروط الحياة الآمنة، وظروف السلم الأهلي والاجتماعي.

١- حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة، خالد عليوي جواد، ١٤٤.  
٢- احترام الآخر في الإسلام مدخل لثقافة السلام، عبد السلام الغرميني، ١٧٤.

وإذا كان الحوار مع «الآخر» «حوار الحضارات والأديان» ضرورة إنسانية أملت بها طبيعة الحياة المعاصرة، فإنه في الإسلام واجب شرعي وتكليف ديني ألزم الله به المسلمين حرصاً على إشاعة قيم التعاون والتسامح في إطار وحدة الجنس البشري، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣) (١).

ووعياً منا بأهمية الحوار الديني الحضاري فقد ذهب الدكتور عباس الجراري إلى أنه مهما تكن فرص نجاح هذا الحوار أو فشله، فإنه يبقى تحدياً كبيراً لا بد من اجتيازه ورهاناً لا بد من كسبه (٢).

وعليه فقد وجهتنا وثيقة المدينة عملياً ومن خلال القدوة إلى كيفية تحقيق السلم المدني؛ وأن النهج السليم في تأسيس وإدارة العلاقات بين البشر لا بد أن يكون قائماً على أساس مبدأ الحوار وحسن استخدامه مع الناس كافة أفراداً كانوا أو جماعات، أو شعوباً وحضارات، مسلمين وغير مسلمين، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣) ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وغيرها من الآيات التي تؤكد ذلك (٣).

إن الحوار الحقيقي المتزن يتأسس على فضيلة الاعتراف بالقيم الموجودة عند الغير دون حتمية رفضها مسبقاً أو البحث عن تبريرها، وهذا لا يتناقض مع مبدأ الوفاء لمجموعة من القناعات الدينية والقيم النبيلة في منظومة القيم التي ينتمي إليها الإنسان، والحوار ليس ذوباناً اضطرارياً في الآخر.

وهو أيضاً ليس إسقاطاً له منذ اللحظة الأولى والحكم عليه بالعدم، إنه

١- انظر: الحوار الذات، والآخر، <http://uqu.edu.sa/page/ar/59175>

٢- قضايا الإصلاح والتجديد والحوار الحضاري، د. عباس الجراري، ص ٧٦.

٣- الحوار هو لغة الإسلام، الشيخ فوزي الزفراق، ١١.



فقط اعتراف بمبدأ التنوع، واعتراف بوجود خصوصيات، وإيمان في النهاية بأن للتعددية تجليات في الدين والكون والحياة؛ نكران ذلك خطأ علمي واضح، وتشوّه فكري ملحوظ، وتشنّج ديني مرفوض، فقد صار الحوار من أجل قبول التعددية في مقاربة الحقيقة وخلق أرضية السلام صراعا مع الوسواس الذاتية، ومع الأوهام الشخصية.

ولاشك أن في كل الديانات والثقافات عقولا لها من الصفاء، ونفوسا لها من الفضيلة ما يمكن من خلق جسور التلاقي والتعارف ويسمح بإشاعة ثقافة السلام.

إن المسلمين في العصر الراهن مدعوون إلى التعرف الصحيح على المبادئ الرصينة التي تحكم العلاقة مع الآخر في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسيرة نبي الإسلام عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن وثيقة المدينة كانت نبراسا يقتدى به في ترسيخ ثقافة السلم المدني لدى مختلف طوائف المجتمع المدني، وما كان ليتحقق ذلك لولا الاعتراف بالآخر واحترام مقدساته وخصوصياته، كما تؤكد هذه الوثيقة والسنة النبوية عموما على صلاحية رسالة الإسلام لكل زمان ومكان وعلى كونها رسالة ربانية خاتمة، وللناس كافة.

## النتائج والتوصيات:

أولا: من النتائج المتوصل إليها في البحث ما يلي:

- إن من أوائل الخطوات التي انتهجها الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدولة الإسلامية الأولى إصدار (وثيقة المدينة) التي حددت لمجتمع المدينة رسالته في دعم الحق والخير وفي تحقيق السلم والاستقرار والتعايش، فكانت

١- احترام الآخر في الإسلام مدخل لثقافة السلام، عبد السلام الغرميني، ١٧١-١٧٢.

أسبق في إنسانيتها العالمية من القوانين والمعاهدات العالمية.

- إذا كان المسلمون وغير مسلمين من أصل واحد، فإن الجميع يسعى للمحافظة على سلامته وأمنه؛ لكون السُّلم هو حاجة إنسانية ماسة يسعى كل فرد للتمتع بها والحفاظ عليها؛ لذا فقد أعطانا الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال وثيقة المدينة دروسا في التعايش وفي السُّلم المجتمعي الخالي من الاضطرابات والفتن؛ حيث عمل على المؤاخاة بين الأوس والخزرج بهدف إنهاء الصراعات الأهلية من جهة، وآخى بين الأنصار والمهاجرين من جهة ثانية، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى عقد معاهدات ووثائق مع الآخر المخالف (اليهود، وفئة من كفار قريش) ليعيش المسلم وغير المسلم في جو يسوده السُّلم والسلام والتعايش، فهي أول تجربة سياسية إسلامية في صدر الإسلام بقيادة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لقد أنقذت المجتمع المدني الذي كان يتخبط في دوامة الصراع القبلي خاصة، ومن ثم فوثيقة المدينة تمثل نموذجا للسُّلم المدني الذي يعد من الغايات الكبرى للمجتمعات وللعيش معا في وطن واحد يحافظ على استقرار وأمن قاطنيه وسلامتهم دون تمييز بينهم، ويجعلهم يدا واحدة ضد كل عدوان خارجي.

- إن مما يمكن استخلاصه أيضا من الوثيقة لتحقيق السُّلم والتعاون بين الشعوب المتنوعة اعتقادا ومذهبا وعرقا إبعاد كل ما من شأنه إحداث الاضطرابات بل والحروب، مع حسن استثمار المشترك الإنساني، والقيم الإنسانية المشتركة، والتسامي عن التمرکز الذاتي، والقبول بالآخر واحترام مقدساته والاعتراف بإيجابياته ومحاولة التفاهم معه عن طريق الحوار المتكافئ الأطراف، ومن ثم تحقيق السُّلم المدني والعالمي.

- علينا الاقتداء بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وبمنهجه الفريد في

حسن التعامل، وهذه المسؤولية لا تقتصر على العلماء، بل تتعدى إلى الأفراد والمؤسسات عن طريق التربية والتوعية -بدءاً من أصغر خليتين في المجتمع وهما الأسرة والمدرسة، ثم باقي المؤسسات المجتمعية- على الأخلاق والمبادئ المشتركة والكونية المبنوثة أصلاً في فطرة الإنسان؛ كالحرية والعدل والمساواة والتضامن سواء مع النفس أو مع الآخر، وتشبعهم بحب الأوطان والاعتراف بوجود اختلافات بل وتناقضات فيما بين الأديان والحضارات، ومن ثم نتمكن من خلق جيل قادر على تحمل مسؤولياته في حفظ الضروريات الخمس سواء بالنسبة لنفسه أو لغيره المماثل له في الدين والحضارة، أو المخالف له؛ وذلك بغية العيش في بيئة بعيدة عن التوترات الداخلية والخارجية، ومن ثم الحفاظ على السلم والاستقرار والأمن عموماً.

- لجني الثمرات المرجوة من الحوار الديني والحضاري ينبغي احتفاظ كل من الأنا والآخر بخصوصياته مصداقاً لقوله تعالى: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» الكافرون: ٦ والتركيز على القواسم المشتركة بين الحضارات، وعلى تكافؤ الأطراف والاحترام المتبادل، وعلى نبذ التعصب والعنف، ولا بأس أن يتعايش كلا الطرفين دون ذوبان ولا أن يغير أحدهما نفسه كرها ليحقق السلم والتعايش، بل أن تكون النظرة الإنسانية الواقعية هي غاية الحوار.

- على الحوار -المستفاد من وثيقة المدينة- أن يتجه إلى توضيح سماحة الإسلام ودعوته إلى الأمن والسلام والتعايش السلمي والإخاء الإنساني والتعاون على البر، مع الحرص على فتح قنوات الاتصال للإفادة من التجربة الإنسانية في مجالاتها الواسعة، ومن ثم فإن السنة النبوية الشريفة التي جسدها وثيقة المدينة تعد نموذجاً لا مثيل لها في فتح إمكانيات جديدة لتحقيق تطلعات تحقيق السلم والأمن بالنسبة للجميع .

## ثانيا: التوصيات:

- الدعوة إلى الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية- ممثلة في الوثائق والمعاهدات النبوية، هما الحل الأمثل والعلاج الشافي لتفريق شملنا ومعاناتنا وتبعيتنا العمياء للآخر وتخلفنا؛ لأنهما وحي الله الذي يعلم ما يصلح حال عباده، وأيضا لأنهما يمثلان المصادر الأولى في التشريع، ومنابع الدين الخاتم والمهيمن على غيره من الأديان، دون أن ننسى إعادة قراءة التاريخ الإسلامي بعين تعيد الاعتبار للذات الإسلامية، ولا تنتقص من ذات الآخر لمجرد كونه آخر مخالفا للأننا، وتبني علاقة جيدة معه دون أن ننسى الواقع وما يقتضيه من تحديات؛ لتكون أساسا للحفاظ على السلم المدني بين كافة فئات المجتمع .
- على البلدان الإسلامية ألا تضع الآخر في كفة واحدة في تعاملها معه، فالأننا أنوات، والأمر نفسه بالنسبة للآخر؛ لأن فيهم من يتودد للمسلمين؛ لذا عليها أن تحسن التعامل معه، وأن تجادله بالتي هي أحسن، مع مراعاة سنة الاختلاف والتعدد الديني والفكري والحضاري ليعيش الجميع في سلم داخلي وخارجي .
- لكي يتحقق السلم المدني في هذا العصر لابد من تعرف الأننا لذاتها والمصالحة أولا معها، فكيف يمكن الحوار والتعايش مع الآخر ونحن نعيش الحروب الأهلية حيث التمزق والتشتت وانعدام الأمن شرقا وغربا؟ لذا إن لم نوفق في التسالم مع أنفسنا ومحاورتها فلن ننجح في محاوره غيرنا والتعايش معه في سلام .

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- احترام الآخر في الإسلام مدخل لثقافة السلام، عبد السلام الغرميني.
- آفاق التعاون بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى واستشرافها بالحوار، محمد صدقي الدجاني، مجلة الإسلام اليوم، العدد ١٢.
- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: تأصيل إسلامي لمبدأ التعايش، خالد عليوي جباد، جامعة كربلاء- كلية القانون، مجلة رسالة الحقوق، السنة الرابعة، العدد الثاني، ٢٠١٢م.
- حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، مصطفى بن حمو أرشوم، ورقة بحثية للمشاركة في ندوة تطور العلوم الفقهية في عُمان بعنوان الفقه الإسلامي، المشترك الإنسان والمصالح تحت محور حقوق الإنسان في المواثيق الدولية والفقه الإسلامي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة - الجزائر ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.
- الحوار الذات، والآخر، عبد الستار إبراهيم الهيتي، سلسلة كتاب الأمة (٩٩) مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ط١، ٢٠٠٤م، المحرم ١٤٢٥هـ، السنة الرابعة والعشرون، العدد: ٩٩.
- حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، محسن بن محمد بن عبد الناظر، ط١: ١٤٠٩-١٩٨٩، دار النشر والتوزيع الكويت.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة، محمد رواس قلعة جي، ط١، بيروت، ١٩٨٨.
- السلم الاجتماعي طريق لبناء الوطن... «العهد المدني نموذجًا»، إبراهيم الهدهد، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي (السلم الاجتماعي وقراءة القضايا المتعلقة به قراءة إسلامية)، كلية العلوم الإسلامية في جامعة صلاح الدين إقليم كردستان في الفترة من ١ إلى ٣ / ٤ / ٢٠١٤م.

- السُّلم والسلام، محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم للتحقيق للطباعة والنشر والتوزيع ط ١: ٢٠٠٥ م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: جمال ثابت، محمد محمود، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة ط / ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.
- الشرق والغرب حوار لا مواجهة، إبراهيم أبو محمد، نشر مكتبة الأديب كامل كيلاني، سنة ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- قضايا الإصلاح والتجديد والحوار الحضاري، عباس الجراري، مجلة الإحياء، العددان ٣١-٣٢، ذو القعدة ١٤٣٠ هـ / نوفمبر ٢٠٠٩ م، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط ٣: ١٤١٤ هـ.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، ط ٥: ١٣٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- مختار الصحاح الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت صيدا، ط ٥: ١٤٢٠ هـ.
- مظاهر حرية العقيدة في الشريعة الإسلامية، أحمد علي سليمان، المؤتمر الدولي، المنعقد بالجامعة الحرة بأمرستردام - هولندا، خلال الفترة من ٢٤ - ٢٦ أغسطس ٢٠٠٩ م.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط ١: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- المواطنة في التاريخ العربي الإسلامي، هيثم مناع، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مبادرة فكرية ١٠.
- موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

- الهدى النبوي في التعايش مع الآخر، علي جمعة، مجلة حراء، العدد ٣٤-٣٥، شوال ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، الرابطة المحمدية للعلماء.
- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشيعبي، كتاب الأمة السنة ٢٥، (العدد): ١١٠، ذو القعدة ١٤٢٦هـ / كانون أول) ديسمبر-٢٠٠٥ (كانون ثاني) يناير ٢٠٠٦م، مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر.
- وثيقة المدينة المنورة وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، علي بولاج، مجلة حراء، السنة الأولى - العدد ٣، ٢٠٠٦.
- الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، جاسم محمد راشد العيساوي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الشارقة ط ١، ١٤٢٧ / ٢٠٠٦.

#### المواقع الإلكترونية:

- <http://www.aboulyossr.com/news127.html>
- [www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=145798](http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=145798)
- <http://www.alhiwartoday.net/node/9787>
- <http://www.ahram.org.eg/archive/TheWriters/News/58454.aspx>
- <http://www.alukah.net> - <https://ar.wikipedia.org/wiki>
- <http://annabaa.org/nba60/khtabthkafi.htm>
- [http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blo-post\\_20.html](http://doc-gabr-alhallul.blogspot.com/2015/05/blo-post_20.html)
- [majlisyacoub.com/.../3086](http://majlisyacoub.com/.../3086) - <http://mcsr.net/news38>
- <http://nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=9310>
- <http://www.libya-al-mostakbal.org/news/clicked/19469>
- <http://uqu.edu.sa/page/ar/59175>
- <http://www.taghrib.org/pages/contant.php?tid=93>





المشترك الحضاري وأثره في تعزيز قيم التعايش  
(قراءة من خلال الحديث النبوي الشريف)

أ. د. إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري  
جامعة أم درمان الإسلامية - السودان





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين، ، وبعد:

فيمثل المشترك الحضاري المدخل الأهم في هذا العصر، عصر العولمة والتقارب الزماني والمكاني الذي أصبح فيه العالم وكأنه قرية واحدة، وأخذت الشعوب والحضارات يؤثر بعضها في بعض وتنتقل الأفكار والقيم والعقائد بسرعة من مكان إلى مكان، عبر الوسائل والوسائط التي بلغت الغاية في التطور والنمو.

إن هذا التطور السريع المذهل إذا نظرنا إليه من زاوية إيمانية، نرى قدرة الله تعالى الباهرة وحكمته العظيمة الماضية في عمارة الأرض وتوفير مقتضيات العمران، وتسخير هذا الكون لحياة الإنسان والانتقال به من طور إلى طور، وأمره بالإصلاح فيه من بعد أن استخلفه على الأرض وعلمه الأسماء ليتعرف على المسميات، والتعامل معها لتحقيق أعلى درجات العمران في الأرض؛ يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ (البقرة: ٣٠) ..

وقد أهل الإنسان بالقيم الإرشادية والعمرانية للتصالح مع نفسه وبيئته، ومن حوله؛ قال تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقٰٓئِكُمْ ۗ﴾ (الحجرات: ١٣) ..

وقد راعى الخطاب النبوي الشريف أسمى معاني الهداية والإرشاد، وهو

التجلي الواقعي والعملی لمقاصد القرآن خلقاً ومنهجاً؛ حيث تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ: فيما روي عن سعد بن هشام بن عامر. قال: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبَرَنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ قُلْتُ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُتَبَّلَ، قَالَتْ: لَا تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

وبالتأمل في نص هذا الحديث، نجد أن رسول الله ﷺ ضرب أعظم مثل في إظهار القيم الحضارية القرآنية الدالة على الهدى المعنوي والمادي في الإعمار والإصلاح، وتأسيس المثل والقيم العليا التي ينادي بها دعاة الحضارة اليوم. ومع تمدد البلدان وتوسع العمران، وتنوع الثقافات والتقاليد، ظهرت مجموعة من المشتركات التي مثلت مدخلاً لبناء الحضارة والعمران الإنساني، وهذه المشتركات هي التي ميّزت الخطاب الرباني بأبعاده الإنسانية، كما بينها النبي ﷺ في سنته المطهرة. ويساعد الاهتمام بهذا المشترك الحضاري في بناء حياة يتحقق فيها الأمن والاستقرار من منظور إيماني، ووفق مقصد إيماري يحفظ الحقوق، ويحافظ على الخصوصيات، ويقلل من مظاهر الغلو والتطرف، ويكف دواعي الحرب والعدوان.

وإنما يتحقق ذلك من خلال النظر المنهجي في أحاديث الرسول ﷺ القائل: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحِمَةٌ مُهْدَاةٌ»<sup>(٢)</sup>؛ والرحمة هي العطف والرافة والاشفاق،

١ - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ، حديث رقم: ٧٤٦، وأحمد في مسنده (واللفظ له)، حديث رقم: ٢٥٢٤٠.

٢ - أخرجه الدرامي في المقدمة، باب كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، حديث رقم: ١٣، عن أبي صالح مرسلًا، ووصله الحاكم في المستدرک، كِتَابُ الْإِيمَانِ، هو صلى الله عليه وآله وسلم رحمة مهداة، حديث رقم: ١٠١، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا فَقَدْ اِحْتَجَّاجًا جَمِيعًا بِمَا لِكَ بْنِ سَعِيدٍ، وَالتَّفَرُّدُ مِنَ الثَّقَاتِ مَقْبُولٌ». ووافقه الذهبي.

لأنه ﷺ رحمة للعالمين، ولذلك كانت أمته أمة مرحومة، ففاضت رحمتها لتعم الآخرين.

والشكر لكلية الدراسات الإسلامية -بدبي- على إهدائنا هذه السانحة المباركة للمشاركة في الندوة القيمة، ولفت أنظار الفقهاء وأهل العلم إلى هذا الموضوع الحيوي المهم، في إطار حفظ الأمن وتحقيق التعايش الذي باتت مهاداته واضحة جلية. وإسهاما مني في هذا العمل الطيب الهادف أشارك بهذا البحث بعنوان «المشترك الحضاري وأثره في تعزيز قيم التعايش قراءة من خلال الحديث النبوي الشريف». وسوف أتناول محاوره بالتفصيل من خلال هذا البحث.

ويهدف هذا البحث إلى الآتي:

- ١- التعريف بالمشترك الحضاري وماهيته وفق الرؤية الإسلامية.
- ٢- التأسيس على المشترك الحضاري لتحقيق الأمن والاستقرار في عالمنا اليوم.
- ٣- التعويل على المنهجية الإسلامية من خلال الحديث النبوي ووفق المقاصد الكلية لمعالجة مشكلات الحضارة اليوم.

وتنبع أهميته من خلال الآتي:

- ١- تناول قضية تتصل يقيم الشرع ومقاصد التشريع حكماً ومعتقداً وأخلاقاً.
- ٢- لفت الأنظار لحقائق الوحدة الحضارية التي بينتها أحاديث الرسول ﷺ.
- ٣- المشاركة بفعالية في نسج قماشة الحضارة الإنسانية اليوم على منوال الإرشاد النبوي العظيم.

و يمكن التعبير عن مشكلة البحث من خلال الأسئلة الآتية:

١- ما المقصود بالمشترك الحضاري؟

٢- ما هي معطيات المشترك الحضاري في أحاديث الرسول ﷺ.

٣- هل يمكن التعويل على المشترك الحضاري لإصلاح الواقع العالمي اليوم.

وأنحو المنهج الاستقرائي التحليلي في بحثي، وذلك بالنظر في الحديث النبوي وفق معانيه، وبيان مسار تنزيل الإرشاد النبوي وتتبعه إلى واقعنا اليوم، بالتعويل على القيم المشتركة بين الجنس البشري.

وهناك العديد من الكتب والرسائل التي تناولت قضايا الحضارة بصورة عامة والحضارة الإسلامية وخصائصها، غير أنني لم أحصل على دراسة تناولت هذا الموضوع وفق المنهج والقضايا التي تناولتها هذه الورقة البحثية، جمعاً بين قضايا المشترك الحضاري وأثرها في تحقيق قيم التعايش وسط المجتمع الإنساني.

وشمل البحث الآتي:

المبحث الأول: مفهوم المشترك الحضاري وأهميته.

المبحث الثاني: المشترك الحضاري قضايا البيئة والعلاقات الإنسانية.

المبحث الثالث: المشترك الحضاري وتحديات الاختلاف والتعدد.

الخاتمة والنتائج والتوصيات.

## المبحث الأول: مفهوم المشترك الحضاري وأهميته

ولبيان مصطلح المشترك الحضاري وتوضيح أهميته نبدأ أولاً بتعريف الحضارة، ثم نشير إلى المشترك بين الحضارات الإنسانية، ومن ثم ننظر في الأهمية.

### أولاً: مفهوم الحضارة في اللغة:

عند رجوعنا لمصادر اللغة العربية: نجد أن لفظ حضارة قد ورد في تلك المصادر؛ فقد جاء في تاج العروس الحاضرة والحضرة والحضرة والحضر هي المدن، القرى، الريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار<sup>(١)</sup>، وجاء في المعجم الوسيط: الحضارة بكسر الحاء وفتحها بمعنى الإقامة في الحضر<sup>(٢)</sup>. وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر. وفي القاموس المحيط الحضارة ضد فعل غاب، والحاضرة والحضارة خلاف البادية<sup>(٣)</sup>.

فيمكننا من خلال التعريفات الواردة أعلاه إجمال معنى الحضارة من الناحية اللغوية بأنها الإقامة الثابتة المستقرة في المدن والقرى، ويقابلها البداوة. وسوف نستعرض ورود اللفظ في اللغة الإنجليزية ما دمنا نتحدث عن المشترك الحضاري. فلفظ حضارة كما قال علماء اللغة civilization مشتق من civitas في اللاتينية بمعنى المدينة أو من civis بمعنى مساكن المدينة أو civilis بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة؛ حيث تنشط الحياة عادة في المدن<sup>(٤)</sup>.

١- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي، باب: حضر، ١١ / ٤٠.

٢- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وآخرون، باب الحاء، ١ / ١٨١.

٣- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، فصل: الحاء، ١ / ٣٧٦.

٤- انظر: فلسفة الحضارة، أحمد محمود صبحي، ٣.

وهناك كلمات ذات صلة قد ترد في السياق نفسه مثل كلمة الثقافة culture، وقد تستعمل مرادفة للحضارة، غير أن كلمة ثقافة اكتسبت دلالتها من نسق المعارف وتطورت دلالتها، واللفظ مأخوذ من الجزر اللاتيني والذي يعني إصلاح الشيء وتهذيبه ليكون صالحاً؛ ومن هنا أتى لفظ Agriculture ليدل على إصلاح الأرض وزراعتها، واتسع اللفظ ليدل على تهذيب العقل وهكذا أصبحت عبارة culture تدل على طريقة شعب ما ومجموعة أنظمتة ونظرته إلى الحياة والكون<sup>(١)</sup>.

ثانياً: مفهوم الحضارة اصطلاحاً:

إن ورود لفظة حضارة في القواميس اللغوية لا يدل بالضرورة على وجود هذا المصطلح في الاستعمال العربي من قبل، وبالمفهوم السائد الآن، وهذا لا ينفي الإشارة إلى معنى الحضارة ومفهومها من خلال عبارات واشتقاقات تفيد المعنى وتوضِّحه، وتقارب ما هو قائم اليوم.

وقد كتب ثلة من علماء المسلمين عن الحضارة والتاريخ، ومن أشهرهم العلامة ابن خلدون<sup>(٢)</sup> الذي ينسب إليه نقل فلسفة التاريخ عند المسلمين من التعبير البطولي إلى التعبير الحضاري، وظهر هذا المعنى في مقدمته الشهيرة التي وضعها لكتابه الكبير: (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر).

ويمكننا أن نعرف الحضارة اصطلاحاً، بأنها: نسق من الأفكار والعلوم والمعارف التي تُرشدُ إلى حياة الإنسان، وتمكنه من تحقيق التطور وال عمران الكوني، من خلال جهد له حوافره ومقاصده.

---

١- يُنظر: أسس مفهوم الحضارة في الاسلام، سليمان الخطيب، ٢٤.  
٢- هو: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤرخ مصنف، نشأ في تونس، ثم رحل إلى مصر، وتولى قضاء المالكية فيها، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، رحمه الله. يُنظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد العكري الحنبلي، ٧/ ٧٦-٧٧.



أما مفهوم الحضارة عند المُحدِّثين، فيعرفها أصحاب المعاجم «بأنها مظاهر الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي في الحضرة». ومن ثم، يكون تعريف ابن خلدون أسلم منطقاً، وأشمل مفهوماً، وأدق تحديداً.

ويستخلص من هذه التعريفات أن الحضارة عبارة عن إنتاج الإنسان الاجتماعي الواعي؛ حيث تتجلى في هذا الإنتاج خصائصه الفكرية، والوجدانية، والسلوكية. ويتسع هذا المفهوم لكل ما يتصل بالروح، والفكر، والفلسفة، والأخلاق، والقانون، والفنون، فضلاً عن الجانب المادي من العمران، وما ينتجه العلم التجريبي والاختراع، مما يتصل بجميع مرافق الحياة، كالصناعة والزراعة، والطب، والهندسة، وما إليها مما يكون عوناً على تيسير العيش، ورغد الحياة.

### ثالثاً: مفهوم المشترك:

«المُشْتَرَك» اسم مفعول من الاشتراك؛ وجاء في المعجم الوسيط: أشركه في أمره أدخله فيه، شاركه، كان شريكه، تشاركاً، اشتركا. واشترك الرجلان فإن كلا منهما شريك الآخر، والشريك المشارك غيره، والمشارك ما يكون شراكةً بين طرفين<sup>(١)</sup>. يقصد -إذا- بالمشارك الحضاري نسق القيم والمثل الجامعة بين البشر لتحقيق قيم الإصلاح والعمران الكوني، والموحدة لجهودهم نحو المقاصد الإنسانية الكبرى.

### رابعاً: أهمية المشترك الحضاري:

إن الحديث عن أهمية المشترك الحضاري حديثٌ عن ممسكات الوحدة والتآلف والتعاون بين أبناء الجنس البشري على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وسحناتهم استناداً على الجامع الخُلُقِي والخُلُقِي.

١ - يُنظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وآخرون، ١ / ٤٨٠.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول الرسول ﷺ: «النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»<sup>(١)</sup>. يدل الحديث على الأصل المشترك بين بني آدم. وعن أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»<sup>(٢)</sup> وهذا النص الشريف يشير أيضا إلى أهم العناصر المشتركة والموحدة لبني الإنسان؛ فالرب واحد، والأصل واحد.

وقوله ﷺ: «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَبَابٍ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طِفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلُؤُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالذِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ»<sup>(٣)</sup>. وفي هذا بيان خطل التقييد الذي يؤسس العلاقة على العنصر أو اللون أو النسب ذلك أن هذا التأسيس يضر بالعلاقات ويمس القيم المشتركة.

وقوله ﷺ لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ سَبَّ الرَّجَالَ سَبُّوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَاطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَالْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا

١ - أخرجه الترمذي في أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب، حديث رقم ٣٩٥٥، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». وأبو دواد في كتاب الأدب، جزء: ٤ صفحة: ٤٩٢ باب في التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ، حديث رقم: ٥١١٦.

٢ - أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: ٢٣٩٧٢.

٣ - أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٧٥٨٦.

تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»<sup>(١)</sup>. وهذا بيان للأخلاق التي ينبغي أن يلتزمها الإنسان مع أخيه، وإن كان يعمل تحت إمرته ويخدم له. ويتضمن تحذيراً واضحاً من أخلاق الجاهلية، وفيه دليل على أنها تمس وحدة الجنس البشري لأنها تمس الجامع الموحد.

ومن هنا يتضح لنا أن المشترك الحضاري يشمل الجانبين الخُلقي والخلقي؛ فالناس كلهم خلق الله والناس جميعهم مستخلفون في الأرض. يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ (البقرة: ٣٠) وقد كان الاستخلاف لأبناء آدم على اختلاف ألوانهم وسحناتهم ومعتقداتهم بحكم بُنُوَّتِهِمْ لآدم. وداخل هذا الإطار، تختلف الواجبات والتكاليف، وتظهر قيم الإصلاح والعمران.

وتتضح أهمية المشترك الحضاري من خلال الآتي:

#### ١- تحقيق مبدأ المساواة في الإنسانية:

إن مبدأ المساواة الإنسانية من المبادئ المشتركة بين الناس، وقد أبرزتها سنة النبي ﷺ، وهذا المبدأ يتأسس على التكريم الذي بينه القرآن الكريم؛ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠). وقد أشار هذا النص إلى عناصر التكريم، وهي: تمكين الإنسان من العيش في الأرض وامتلاك وسائل تنميتها وإصلاحها، وتوظيف المركوب برّاً وبحراً في نموه الحضاري.

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارئها إلا بالشرك، حديث رقم: ٣٠، ومسلم (واللفظ له) في كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه، حديث رقم: ١٦٦١.

وتحقيق هذا المبدأ يقتضي حسن التعامل، ونشر قيم المودة، والرحمة، والتعاقد، والتكافل الاجتماعي بين الناس، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَضَعَهُ فِي الْأَرْضِ حَيَّةً لِأَهْلِ دِينِنَا، وَأَمَانًا لِأَهْلِ ذِمَّتِنَا»<sup>(١)</sup>. وهذا يؤكد معنى العصمة للدماء والأموال لشركاء الحياة من غير المسلمين. ومن ذلك ما ورد من حث على حفظ الدماء والأموال وعصمتها؛ يقول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٢)</sup> ويقول ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لَوَاءَ غَدْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>، وهو قد غدر بإنسان وإن لم يكن مسلمًا، وخلق الغدر من أقبح الأخلاق، وهذا واضح في تعزيز القيم المشتركة بين الناس من أجل تحقيق الاستقرار والطمأنينة.

## ٢- تحقيق مبدأ التعاون:

لقد عززت السنة النبوية مبدأ التعاون بين الناس، وذلك بحكم اشتراكهم في الحياة مما يتطلب تعاونهم فيما يستوجب ذلك، وقد نظرت الشريعة الإسلامية إلى المقاصد الكبرى للخلق، ونجد مثالاً لذلك فيما ورد في سيرة الرسول ﷺ، وإرشاده في فقه المعاملات.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَرَأَيْتُهُ مُتَغَيِّرًا قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرًا؟ قَالَ: مَا دَخَلَ جَوْفِي مَا يَدْخُلُ جَوْفَ

١- المعجم الكبير، الطبراني، حديث رقم: ١٠٣٩٢. وإسناده جيد، رجاله ثقات رجال مسلم، غير الفضل بن سهل، قال الحافظ: «صدوق».

٢- أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، حديث رقم: ٣١٦٦.

٣- أخرجه ابن ماجه في أبواب الديات، باب من أمن رجلاً على دمه فقتله، حديث رقم: ٢٦٨٨، وبنحو ابن حبان في كتاب الجنائيات، ذكر الزجر عن قتل المرء من أمنه على دمه، حديث رقم: ٥٩٨٢، ولفظه: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا».

ذات كبد منذ ثلاث قال: فذهبت فإذا يهودي يسقي إبلاً له، فسقيت له، على كل دلو تمر، فجمعت تمرًا، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «من أين لك يا كعب؟»، فأخبرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتحبني يا كعب؟» قلت: بأبي أنت، نعم، قال: «إن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى معادنه، وإنه سيصيبك بلاء، فأعد له تحفًا» قال: فقدته النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما فعل كعب؟» قالوا: مريض، فخرج يمشي حتى دخل عليه، فقال له: «أبشر يا كعب»، فقالت أمه: هنيئًا لك الجنة يا كعب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من هذه المتألية على الله؟» قال: هي أمي يا رسول الله، قال: «ما يدريك يا أم كعب؟ لعل كعبًا قال ما لا ينفعه، أو منع ما لا يعنيه»<sup>(١)</sup>. والشاهد في علاقة الإجارة، وهي بين مسلم ويهودي، وهي إجارة على عمل بين طرفين اختلفت عقائدهم. وقد أجاز الرسول ﷺ هذه الإجارة، ومعلوم أن من أوضح العلاقات التي تتجلى فيها الأخلاق بين الناس، ويتم فيها تبادل المنافع، علاقات التجارة والإجارة، وهي العلاقات التي تتأسس على القيم الفطرية التي عززها الإسلام من صدق وأمانة وغيرها.

عن زيد بن أسلم أن رجلاً كان يطلب النبي صلى الله عليه وسلم بحق، فأغلظ له، فقال: فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهودي للتسليف منه، فأبى أن يسلفه إلا برهن، فبعث إليه بدرعه، وقال: والله، إنني لأمين في الأرض، أمين في السماء.!!<sup>(٢)</sup>، وهذا باب واسع في فقه المعاملات، يتضح من خلاله إعلاء مبدأ التعاون من خلال فقه المعاملات وتبادل المصالح، ودل هذا الحديث على طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم، ولم يقابل الرسول ﷺ طلب اليهودي إلا بالاستجابة مع ما هو معلوم من أمانة الرسول ﷺ ومكانته، ويأتي هذا دليلاً آخر على تعزيز المشترك بين الناس في معاملاتهم.

١ - المعجم الأوسط، الطبراني، ٧/ ١٦٠، حديث رقم: - حديث حسن.

٢ - أخرجه عبدالرزاق في المصنف، كتاب البيوع، باب الرهن والكفيل في السلف، حديث رقم: ١٤٠٩١.

### ٣- معالجة مشكلة التمايز العنصري والعدوان بسبب المعتقد:

من أكبر مهددات تعزيز المشترك القيمي والحضاري بين الناس التمايز العنصري والعدوان بسبب العنصر والجنس؛ لقد نظر الإسلام إلى الواقع الإنساني برؤية متميزة وأفق رحب، فلم يمنع إنساناً حقه بسبب دينه أو معتقده وإن خالفه، ولم يقسر الناس على اعتناقه.

ومن ذلك حكمه ﷺ على اليهود بما جاء في التوراة. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنِيَا، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِنِ زَنَى مِنْكُمْ، قَالُوا: نَحْمُمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا، فَقَالَ: لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ، فَقَالُوا: لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، ﴿فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَوَضَعَ مَدْرَاسَهَا الَّذِي يَدْرُسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا، وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَزَعَّ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجَمًا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَجُنُّ عَلَيْهَا، يَقِيهَا الْحِجَارَةَ﴾<sup>(١)</sup>. وفي هذا دلالة على حكم الرسول ﷺ عليهم بما ورد في كتابهم ولم يجبرهم ﷺ على حكم آخر، ولم يسفه لهم ما يتحاكمون إليه، وهذا الذي يقوي الثقة ويجلي معاني الأمانة، وهي من القيم المحترمة بين عامة الناس.

ومن ذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ

١- أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة آل عمران، ﴿قُلْ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، حديث رقم: ٤٥٥٦، ومسلم في كتاب الحدود، بَابُ رَجْمِ الْيَهُودِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الزَّئِنِ، حديث رقم: ١٦٩٩.

فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرَ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: أَكَانَ فِيْمَنْ صَعِقَ فَافَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَنْتَى اللَّهَ<sup>(١)</sup>. وَلَا شَكَّ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ أَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ، وَلَكِنَّهُ أَدَبَ النُّبُوَّةَ وَأَخْلَقَ الرِّسَالَةَ، وَمَنْهَجَ الرَّحْمَةِ، وَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامَ عَلَى حِفْظِ دِمَاءِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَعِصْمَةِ الْحُقُوقِ وَالْأَعْرَاضِ؛ يَقُولُ ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>. وهذه حماية من الرسول ﷺ للمعاهدين في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وقوله ﷺ: «إِذَا مَرَّتْ بِكُمْ جَنَازَةٌ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ أَوْ مُسْلِمٍ، فَقومُوا لَهَا فَلَسْتُمْ لَهَا تَقومُونَ، إِنَّمَا تَقومُونَ لِمَنْ مَعَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ»<sup>(٣)</sup>؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الملائكة تتبع جنازات غير المسلمين، وهذا يقرر مبدأ إكرام الإنسان بحكم إنسانيته وأدميته. وقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٤)</sup>. وقوله ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ، وَلَا أَكْلَ ثَمَارِهِمْ إِذَا

١ - أخرجه البخاري في كتاب الأشخاص والخصومات، باب ما يُذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، حديث رقم: ٢٤١١، ومسلم، في كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٣٧٣.

٢ - أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة، حديث رقم: ٣٠٥٢.

٣ - أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٩٨٠٠.

٤ - أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، حديث رقم: ٣١٦٦.

أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>؛ كل ذلك يدل على حرمة الدماء والأموال، ومراعاة الوضع النفسي، والضابط الأخلاقي الذي يحيط الحياة ويحفظها، ويعزز قيم المشاركة، ويقوي دواعي التعاون، والتآلف مع حفظ الخصوصيات.

### المبحث الثاني: المشترك الحضاري وقيم العمران الكوني

يشارك الناس في العيش على ظهر الأرض وفي هذا الكون، فإن تواصلوا على حفظ قيم الإصلاح والعمران تحقق لهم الأمن والسلام والاستقرار، وإن خالفوا وقع الفساد والاحتراب؛ ويتضح ذلك في الآتي:

#### أولاً: البيئة الكونية والإطار الجامع:

هذا الكون هو الإطار الجغرافي الذي يحمل الناس على اختلاف آرائهم وأجناسهم، وكل يشترك فيه وينعم به. ومن القضايا المهمة في هذا العصر قضية المحافظة على البيئة الكونية طيبة نقية محمية من أسباب المرض والفساد والتدمير والهلاك، من بعد أن انتشرت مظاهر الفساد البيئي الكوني وأسبابه، وتتمثل في انبعاث الغازات السامة والنفايات المهلكة، وانتشار الأسلحة التقليدية وغير التقليدية المدمرة.

ونجد سنة الرسول ﷺ حافلة بالأحاديث الهادية إلى حفظ الحياة والمحافظة على الأحياء؛ فقولته ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتِ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»<sup>(٢)</sup>؛ لأنه بفعل الخير وتعليمه لهم تتحقق المحافظة على سلامة البيئة الكونية، فيحيا الإنسان في

١- أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفني والإمارة، باب في تعشير أهل الدِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتَّجَارَةِ، حديث رقم: ٣٠٥٠.

٢- سنن الترمذي، الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، حديث رقم: ٢٦٨٥. قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ».



أمن وسلامة، بل يمتد ذلك ليشمل الحيوان والحشرات من حيتان وغمل. والواقع الآن يثبت أن الفساد البيئي يسبب الإضرار بالحياة على كافة مستوياتها؛ فتتضرر الحيتان في البحار، والطيور في الهواء، مثلما يتضرر الإنسان.

وفي مجال الإصلاح البيئي: وهو من المشتركات - يجعل الرسول ﷺ من تجليات الإيمان المحافظة على سلامة البيئة؛ حيث يقول: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»<sup>(١)</sup>؛ فجعل الرسول ﷺ الإيمان يمتد من شهادة الحق شهادة أن لا إله إلا الله، ثم جعل من الإيمان إمطة الأذى عن الطريق، وهذا يتضمن المحافظة على البيئة الصحية، ثم الحياء وهو محافظة على البيئة الأخلاقية.

ومن المشترك الحضاري المحافظة على البيئة الإحيائية بحيواناتها ومكوناتها الطبيعية؛ فعن عطاء بن دينار، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَ الدَّوَابِّ كَرَاسِيٍّ لِأَحَادِيثِكُمْ، فَرُبَّ رَاكِبٍ مَرْكُوبَةٌ هِيَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَأَطْوَعُ لَهِ وَأَكْثَرُ ذِكْرًا»<sup>(٢)</sup>، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِيَّايَ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لَتَبْلَغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكُمْ»<sup>(٣)</sup>. وفي المحافظة على الحيوان محافظة على البيئة الإحيائية، وهي حق مشترك.

عن الحسن بن سعد، عن عبد الرحمن عن عبد الله، قال: «نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلًا، فَانْطَلَقَ إِنْسَانٌ إِلَى غِيْضَةٍ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا بَيْضَ حُمْرَةٍ، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ تَرِفُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُؤُوسِ أَصْحَابِهِ

- ١ - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، بابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ، حديث رقم: ٩، ومسلم (واللفظ له)، كتاب الإيمان، بابُ شُعْبِ الْإِيمَانِ، حديث رقم: ٣٥.
- ٢ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، باب في الوقوف على الدابة، حديث رقم: ٢٦٤٨٦.
- ٣ - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الوقوف على الدابة، حديث رقم: ٢٥٦٣.

فَقَالَ: أَيُّكُمْ فَجَعَ هَذِهِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا أَصَبْتُ لَهَا بَيْضًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرُدُّهُ»<sup>(١)</sup>. يدلُّ هذا الحديث على الرحمة بالطائر ومراعاة حاله، وهذا يشهد على ما قدمنا من اهتمام بالبيئة الإحيائية، وفي المحافظة عليها محافظة على سلامة الكون الإطار الجامع لحياة الناس.

وماله صلة وثيقة بحفظ البيئة ورعايتها حماية الغطاء النباتي ويدل على ذلك، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ الْقِيَامَةَ وَفِي يَدِهِ فِسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»<sup>(٢)</sup>. والشاهد في الحديث الترغيب على الزراعة والغرس، دون النظر إلى الشواغل والمتغيرات، مهما كان أثرها، والغطاء النباتي هو الذي يؤثر على الغلاف الجوي، كما أثبت ذلك العلم الحديث، وبصلاحه تنصلح البيئة، ولا شك أن في ذلك خيرًا لجميع البشر. ويقول ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةَ صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»<sup>(٣)</sup>، وهذا نهى عن القطع الجائر للنباتات، ودلالة واضحة على الاهتمام بالغطاء النباتي، لماله من أثر على إحسان البيئة وإصلاحها ويتضح ذلك عند معرفتنا بمكانة الجهاد في الإسلام.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَرِيمُ الْبَيْرِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا مِنْ حَوَالِيهَا كُلِّهَا، لِأَعْطَانَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ، وَابْنُ السَّبِيلِ أَوَّلُ شَارِبٍ، وَلَا يَمْنَعُ فَضْلُ مَاءٍ لِيَمْنَعَ بِهِ الْكَلَاءُ»<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ٣٩١٢، والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم: ٣٨٢. إسناده صحيح.

٢- أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٣١٠٠، قال الالباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

٣- أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، أبواب السلام، باب في قَطْعِ السِّدْرِ، حديث رقم: ٥٢٣٩.

٤- أخرجه البخاري في كتاب كتاب الشرب والمساقاة، باب مَنْ قَالَ إِنَّ صَاحِبَ الْمَاءِ أَحَقُّ بِالْمَاءِ حَتَّى يَرَوْى لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ، حديث رقم: ٢٣٥٣. ومسلم، كتاب البيوع، باب تَحْرِيمِ بَيْعِ فَضْلِ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ بِالْفَلَاةِ، وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِرَعْيِ الْكَلَاءِ، وَتَحْرِيمِ مَنَعِ بَدَلِهِ، وَتَحْرِيمِ بَيْعِ ضَرَابِ الْفَحْلِ، حديث رقم: ١٥٦٦، وأحمد في المسند (واللفظ له)، حديث رقم: ١٠٥٥٥.

والخلاصة في ذلك: فإن الحديث النبوي حوى ما يمثل منهجية كاملة لحفظ البيئة وحمايتها، وهي البيئة التي يشترك الناس في الحياة عليها، والاستفادة من خيراتها. والبيئة هي الوطن المشترك لعامة الناس، وتتضح هذه الأهمية في بروز ما يعرف بالاتفاقيات الدولية في هذا العصر، والتي أكدت مفهوم الوحدة الكونية وتأثرها بعضها البعض، فأنت لتوحد الرؤية الإنسانية حول المحافظة على البيئة.

ثانيًا: القيم المؤسسة للعلاقات الدولية:

لقد تجلت القيم العليا للروابط الإنسانية في منهج الرسول ﷺ وهو يقدم الدعوة ويرشد الناس ويرسل رسله يبلغون عنه دعوة الحق، وقد بين هذا الجهد نسقًا قيميًا وأخلاقيًا يمثل قاعدة للعلاقات الدولية، ويتضح ذلك في الآتي:

إرسال الوفود:

نستطيع أن نقرأ قيم العلاقات الدولية وقواعدها من خلال الوصايا التي وصى بها الرسول ﷺ جنوده ومبعوثيه. فلقد لبث الرسول ﷺ زهاء عشرة سنين متصلًا بأمم وديانات مختلفة معادية للإسلام طورًا، أو مسالمة طورًا آخر، بالإضافة إلى حدوث حروب الردة والبلغاة والخوارج، والفتوحات الإسلامية في فارس والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا، مما اقتضته الظروف التي واكبت نشر الدعوة الإسلامية، كل ذلك كان له أثر كبير في تحديد الكثير من معالم الرؤية الإسلامية للتعامل الدولي بين المسلمين وغيرهم.

لم يكن الإسلام حضارة عنصرية، لأن الدعوة الإسلامية - كما أسلفنا - في جوهرها دعوة عالمية لا تعرف التقييد العنصري ولا تقبله، ومن ثم اندفعت الدعوة الإسلامية بتبليغ الرسالة من مشارق الأرض ومغاربها؛ ذلك لأن الدولة الإسلامية تميزت بخصائص معينة ما كان يمكن أن تعود للتفوق أو الانكفاء الداخلي، وقد

وحد الإسلام داخل أطره الحضارية بين الأمم والشعوب المختلفة بحضاراتها وعاداتها وتقاليدها، ونجد مثلاً على ذلك في الجمع بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وأبي بكر العربي، حتى يقول عمر بن الخطاب منوهاً بمكانة بلال رضي الله عنه: «كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا. يَعْنِي بِلَالًا»<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

### القيم الإنسانية في حالات الحرب:

إن اتضحت قيم الإسلام في مراعاة الحقوق، وحفظ كرامة الإنسان، وقيم الحضارة والعمران في أوقات السلم، فإن الإسلام قد وضع أساساً قيمياً وأخلاقياً عند نشوب الحروب. ويتجلى ذلك في الوصايا التي كان الرسول ﷺ يوصي بها جيوش المسلمين؛ فعن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أو صاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»<sup>(٣)</sup>، وكف عنهم وقد جعل القتال في سبيل الله من أجل قيم الرسالة، محذراً من القتال تحت رايات الجاهلية؛ حيث يقول: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ

١ - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر رضي الله عنهما وقال النبي صلى الله عليه وسلم سمعتُ ذف نعليك بين يدي في الجنة، حديث رقم: ٣٧٥٤.

٢ - أنظر: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام - سليمان الخطيب - ص ٢٣ وما بعدها - مصدر سابق.

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، حديث رقم: ١٧٣١.

يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقَتَلَ فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي  
يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِدِي عَهْدِ عَهْدِهِ، فَلَيْسَ  
مَنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>، ويقول ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٢)</sup>. وذلك حتى لا يصبح القتال ممارسة جاهلية لا يضبطها خلق ولا  
دين، وإنما تأسس الجهاد على ضوابط فقهية دقيقة وأمينة، وأحاطتها السنة النبوية  
بالضوابط والمحددات.

ويقول ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ  
مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>. وهذا يدل على قيم الوفاء  
بالعهد والصدق في الالتزام بالمواثيق؛ فعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال:  
«بِعَثْنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: إِنِّي لَا  
أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحِسُّ الْبُرْدَ، أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ  
فَارْجِعْ»<sup>(٤)</sup>.

من خلال هذا الاستقراء للحديث النبوي، نجد أن الرسول ﷺ قد بين منهجًا  
واضحًا في العلاقات الدولية، وهي علاقات لا تنفصل عن الأصول الجامعة  
والموحدة بين الناس، وإن اختلفت أجناسهم أو عقائدهم أو أماكنهم، وهذا هو

١ - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر يلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعوة إلى الكفر،  
حديث رقم: ١٨٤٨.

٢ - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا، حديث رقم: ١٢٣.

٣ - أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة،  
حديث رقم: ٣٠٥٢.

٤ - أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم: ٢٤٣٨٠، حديث صحيح.

المدخل الحق من المنظور الحضاري للبناء والإصلاح الكوني الذي أتى به الإسلام .

ثانيًا: التواصل ومبادئ العمران:

لا يتصور استقرار للحياة وتطورها ونموها دون بناء شبكة قوية من العلاقات بين الناس، وكما قال الشاعر:

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ

بَعْضٌ لِبَعْضٍ - وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا - خَدَمٌ<sup>(١)</sup>.

وقد بينت سنة المصطفى ﷺ الأسس القيمية والأخلاقية التي يمكن من خلالها أن تحقق المشتركات الجامعة لتطوير العلاقات الإنسانية وتحسينها، وجعل ذلك مدخلًا للعمران والنماء الحضاري، وربما ضاق الواقع بآخرين فيبحثون عن القيم الإنسانية حيثما كانت. ويتجلى ذلك في بعض المواقف من سيرة الرسول ﷺ الآتي ذكرها:

الهجرة وسعة القيم الإنسانية:

تمثل الهجرة من مكان إلى مكان صورةً من صور النشاط الإنساني، ولا شك أن المهاجر من وطنه وبيئته يفعل ذلك وهو مدفوع بالبحث عن البديل الأفضل في سلم العدل والإحسان، فعندما اشتد الأذى بالمؤمنين في مكة، أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، قائلاً لهم: «إِنَّ بَأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلَكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحُقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»<sup>(٢)</sup>.

إن في أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهي هجرتان، ما

١ - هو أبو العلاء المعري أحمد بن عبد الله بن سليمان المتوفى سنة ٤٤٦ هـ المشهور. انظر: سر الفصاحة، الخفاجي، ١ / ٧١.

٢ - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، بَابُ الإِذْنِ بِالْهَجْرَةِ، حديث رقم: ١٧٨٠٧.

يدل على أن رابطة الدين بين المتدينين ولو اختلفت دياناتهم هي أقوى وأوثق من رابطتهم مع الوثنيين والملحدين؛ فالديانات السماوية في مصدرها وأصولها الصحيحة متفقة في الأهداف الاجتماعية الكبرى، كما هي متفقة في الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وهذا ما يجعل وشائج القربى بينها أوثق من أية وشيجة من قرابة أو دم أو موطن مع الإلحاد والوثنية والكفر بشرائع الله.

وقد عوّل الرسول ﷺ على قيمة العدل، وهي قيمة إنسانية فطر الإنسان على احترامها وتقديرها، لكي تستقيم الحياة بل لا تستقر إلا بها، بل كانت القيم الفطرية الأولى هي التي فتحت القلوب والأذان والعقول للاستماع لدعوة الرسول ﷺ، فقد وصفه أهل مكة بالصادق الأمين.

ولا تنجح العلاقات بين الناس إلا إذا تأسست على الصدق والأمانة، والرسول ﷺ يدعو ويحث على الصدق والأمانة، كما جاء في الحديث: «أَضْمِنُوا لِي سِتًّا أَضْمِنَ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اتَّيَمَنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

### المشترك القيمي والعدل الإنساني:

لقد تعرض الرسول ﷺ لحروب ومكائد هدفت إلى تشويه صورة الإسلام والتزهيد فيه، ومحاولة إلصاق التهم به زورًا وبهتانًا، كما فعل المشركون، غير أن إعلاء مبادئ الصدق والعدل والأمانة، وهي المبادئ التي أتى بها الرسول ﷺ، وهي أيضًا المبادئ الفطرية التي يحترمها كل عاقل، بل تمثل ميزانًا يشترك الناس في احترامه، كانت ناصرًا ومؤيدًا للرسول ﷺ ضد دعاوى أعدائه، فعندما سأل هرقل عن بعض القيم في حياته، وما يدعو إليه ﷺ، وذلك في الحوار الذي دار

١ - أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ٢٣٢٠٠، وابن حبان (واللفظ له)، في صحيحه، كتاب البرِّ والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم: ٢٧١.

بينه وبين أبي سفيان، وقد أخبر فيه عن صدق الرسول ﷺ وعن أمانته وعن من تبعه، وعندما وجد تلك القيم الإنسانية العالية شهد له بالرسالة؛ فعن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس، أخبره أن أباسفيان بن حرب أخبره: «أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا مُجَارًا بِالشَّامِ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ، فَاتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءٍ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عِظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بَتْرُجْمَانَهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجَمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنِ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَنْ مَلَكَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَاشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضِعْفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدُرُ؟ قُلْتُ: لَا. وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أَدْخُلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سَجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ، فَقَالَ لِتَرْجَمَانَ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبٍ



قَوْمَهَا. وَسَأَلْتِكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلِ قَبْلِهِ. وَسَأَلْتِكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَنْ مَلَكَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَنْ مَلَكَ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَأَلْتِكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرَفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَأَلْتِكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ اتَّبَاعُ الرَّسُلِ. وَسَأَلْتِكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتِكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ. وَسَأَلْتِكَ هَلْ يَغْدُرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرَّسُلُ لَا تَغْدُرُ. وَسَأَلْتِكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمِي هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ»<sup>(١)</sup>.

ونجد الإشارة إلى المشتركات الإنسانية المحققة للاستقرار والعمران في العلاقة التي أنشأها الرسول ﷺ بين أهل المدينة من مسلمين ويهود وغيرهم، وذلك من خلال النصوص الدستورية التي حوتها صحيفة المدينة والتي عززت مبدأ المواطنة والوفاء بالعهد<sup>(٢)</sup>. وقد امتد أفق الدعوة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية لمخاطبة العالم بقيمها وهدايتها، وتجلي ذلك في رسائل الرسول

١ - أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٧.

٢ - السيرة النبوية، لابن كثير، ٢ / ٢٣٣.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ إِلَى كَسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>. وكان خطابه أدعواكم بداعية الإسلام، وهي دعوة للسلام والأمن، وكان يخاطبهم بأجمل الصفات عندهم، فقد خاطب رسول الله ﷺ هرقل كما جاء في صحيح البخاري «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسَلِمُ تَسَلَّمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ»<sup>(٢)</sup>؛ فالدعوة إلى الإسلام وهو دين السلام، ووصفه لهرقل بعظيم الروم حفظاً لمكانته، ثم السلام على من اتبع الهدى، وكأنه يشير إلى مطلق الهدى وهو الإسلام، والدعوة الرحبة للإسلام، والخطاب لا يشبه خطاب الملوك والزعماء فلا تهديد ولا وعيد.

### المبحث الثالث: المشترك الحضاري وتحديات الاختلاف والتعدد

إن قضية الأخلاق والتعدد في الألوان والعقائد والمذاهب من القضايا التي شغلت الناس وما زالت، وعجزت كثير من المذاهب والحضارات من أن تحسن التعامل معها، وانهزمت بعض القيم الوضعية أمام مشكلة اللون على سبيل المثال. وظهرت نعرات التفرقة العنصرية والتمايز اللوني مثلما ظهرت النزاعات، واشتعلت الحروب بسبب الاختلاف المذهبي والديني، وكانت الحروب الصليبية دليلاً واضحاً لذلك، وما زال العالم حتى اليوم يعاني من تلك الآثار، على الرغم من المحاولات الجادة لمعالجة تلك المشكلات بإصدار القوانين، والاتفاقيات

١- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، بابُ كُتِبِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مُلُوكِ الْكُفَّارِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حديث رقم: ١٧٧٤.

٢- أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٧.

الدولية الرامية لتحقيق الأمن والسّلم العالميين، وهنا يظهر تميز الخطاب القرآني الذي يجعل من الاختلاف سنة قدرية ومدخلاً للتعارف الانساني؛ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣). ويقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَزْنُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

ولقد اهتمت السنة النبوية بوضع منهج رباني دقيق في كيفية التعايش بين المسلمين وغيرهم، ومراعاة واقع التعدد، ولتحقيق مقاصد الخلق، وإن وقع الاختلاف بين الناس؛ ذلك أنه من أهم مقاصد الخلق التعاون والانتظام والإصلاح؛ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١).

جاء في تفسير القرطبي: «واختلف من المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما: الكفار الذين لم يعبدوه، يدل عليه قوله «وإن كنتم في ريب» (البقرة: ٢٣). الثاني أنه عام في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها. وهذا حسن. قوله تعالى: «اعبدوا» أمر بالعبادة له. والعبادة هنا عبارة عن توحيدِه والتزام شرائع دينه. وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال: طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام»<sup>(١)</sup>.

إن نعمة الخلق نعمة تشمل الرزق الطيب والتكريم والحماية والرعاية، والدين الإسلامي في شريعته الغراء يستصحب ذلك، ونجد المثال الواضح في أحاديث الرسول ﷺ، وهي تهدي إلى حسن التعامل، وتنمية العلاقات بين المسلمين وغيرهم، مع حفظ الخصوصيات.

١ - تفسير القرطبي، ١ / ٢٢٥.

ومن الأخلاق العظيمة في معاملة غير المسلمين وأثره عليهم ما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يهودياً، كان يُقال له جريجرة كان له على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنائير، فتقاضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: يا يهودي، ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا اجلس معك»، فجلس معه فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتهدّدونه ويتوعّدونه، ففطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «ما الذي تصنعون به؟» فقالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيره»، فلما ترحل النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وقال: شطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: «محمد بن عبد الله مولده بمكة، ومهاجره بطنية، وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا متزي بالفحش، ولا قول الحنا» أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، هذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله، وكان اليهودي كثير المال<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانت المعاملة الكريمة مدخلاً لبناء العلاقات الإنسانية ونصرة الدين.

عن حميد، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله: ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقرؤا المجوس على نكاح الأمهات والبنات؟ وذكر أشياء من أمرهم قد سماها. قال: فكتب إليه الحسن: أما بعد، فإنما أنت متبع ولست بمبتدع والسلام<sup>(٢)</sup>.

١ - رواه الحاكم في المستدرک، کتاب آیات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في دلائل النبوة، ذكر خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم: ٤٢٦٥.

٢ - الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ٤٥.

ومما يتجلى فيه عدم الإكراه على الإسلام، قصة عيسى بن يونس بن أبي اسحاق الهمداني عن أبيه عن جده عن ذي الجوشن «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ أَهْلِ بَدْرَ بَابِنَ فَرَسَ لِي، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ بِابْنِ الْقَرْحَاءِ لَتَتَّخِذَهُ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَقِضَكَ بِهِ الْمُخْتَارَةَ مِنْ دُرُوعِ بَدْرٍ فَعَلْتُ. فَقُلْتُ: مَا كُنْتُ لِأَقِضَكَ الْيَوْمَ بَعْدَهُ، قَالَ: فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا ذَا الْجَوْشَنَ، أَلَا تُسَلِّمُ فَتَكُونُ مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: لَمْ؟ قُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُ قَوْمَكَ قَدْ وَلَعُوا بِكَ، قَالَ: فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَنْ مَصَارِعِهِمْ بِدْرٍ. قَالَ: قُلْتُ: [قَدْ] بَلَغَنِي. قَالَ: قُلْتُ: إِنْ تَغَلَّبَ عَلَيَّ مَكَّةَ وَتَقَطَّنَهَا، قَالَ: لَعَلَّكَ إِنْ عَشْتَ أَنْ تَرَى ذَلِكَ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: يَا بِلَالُ، خُذْ حَقِيْبَةَ الرَّحْلِ فَرِوْدُهُ مِنَ الْعَجْوَةِ. فَلَمَّا أَنْ أَدْبَرْتُ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ مِنْ خَيْرِ بَنِي عَامِرٍ، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لِبَاهِلِي بِالْغُورِ إِذَا أَقْبَلَ رَاكِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ أَيْنَ؟ قَالَ: مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ النَّاسُ؟ قَالَ: قَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قُلْتُ: هَبْلَتْنِي أُمِّي، فَوَاللَّهِ لَوْ أَسْلِمَ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ أَسَأَلَهُ الْحِيْرَةَ لَأَقَطَعْنِيهَا»<sup>(١)</sup>.

ويعطي الشرع حقوق الإحسان للجار وإن لم يكن على شريعة الإسلام، فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ، فَجَارٌ لَهُ حَقٌّ، وَهُوَ أَدْنَى الْجِيرَانِ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانَ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَجَارٌ مُشْرِكٌ، لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانَ، فَجَارٌ مُسْلِمٌ، لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثُ حُقُوقٍ فَالْجَارُ ذُو الرَّحْمِ، لَهُ حَقُّ الرَّحْمِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَأَدْنَى حَقِّ الْجَوَارِ أَنْ لَا تُؤْذِيَ جَارَكَ بِقِتَارٍ قَدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>.

١ - أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ١٦٢١١.

٢ - أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم: ٢٤٥٨.

وفي مخالطة غير المسلمين، عن حيوة بن شريح، قال: سمعت ربيعة بن يزيد الدمشقي، يقول: أخبرني أبو إدريس عائذ الله، قال: سمعت أبا ثعلبة الخشني، يقول: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنا بأرض قوم من أهل الكتاب نأكل في آنتهم، وأرض صيد أصيد بقوسي وأصيد بكلبي المعلم، أو بكلبي الذي ليس بمعلم، فأخبرني ما الذي حل لنا من ذلك؟ قال: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ قَوْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ تَأْكُلُ فِي آنِيَّتِهِمْ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَّتِهِمْ فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاعْسَلُوهَا ثُمَّ كُلُوا فِيهَا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ صَيْدٍ، فَمَا صَدَّتْ بِقَوْسِكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، ثُمَّ كُلْ وَمَا صَدَّتْ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، ثُمَّ كُلْ وَمَا صَدَّتْ بِكَلْبِكَ الَّذِي لَيْسَ مُعَلَّمًا فَادْكُرْ ذَكَاتَهُ فَكُلْ»<sup>(١)</sup>.

الخلاصة: يتضح لنا من خلال النظر في هذه الأحاديث الشريفة، أن الرسول ﷺ هدى إلى بناء علاقة إيجابية بين المسلمين وغيرهم في حالات السلم والأمن، بل وضع منهجاً ربانياً سامياً في حالة الحرب، وذلك رعاية لإصلاح الكون حتى يتسم بالأمن والطمأنينة، وتتعزيز قيم المشاركة وفق المنظور الحضاري والمقصد الإنساني.

وربما كانت الحروب أصدق معبر عن اختلاف الناس حين يدخلونها، وهنا كان تميز الإسلام، ومن ذلك عن العرباض بن سارية السلمي، قال: «نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ، وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا، فَأَقْبَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَلَيْسَ أَنْ تَذُبُّوا حُمْرَنَا، وَتَأْكُلُوا ثَمْرَنَا، وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا؟ فَغَضِبَ يَعْنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ، ثُمَّ نَادِ: أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،

١ - أخرجه مسلم، كتاب الذبائح والصيد، باب ما جاء في التصيّد، حديث رقم: ٥٤٨٨.

وَأَنْ اجْتَمَعُوا لِلصَّلَاةِ . قَالَ : فَاجْتَمَعُوا ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَةٍ ، قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْرِمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ، أَلَا وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ ، وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمَثَلُ الْقُرْآنِ ، أَوْ أَكْثَرُ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ ، وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ ، وَلَا أَكْلَ ثَمَارِهِمْ إِذَا أُعْطَوْكُمْ الَّذِي عَلَيْهِمْ<sup>(١)</sup> . والنص واضح في حفظ الحقوق ورعايتها .

وعن الحسن أن الأسود بن سريع قال : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ ، فَأَفْضَى بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذَّرِيَّةِ ، فَلَمَّا جَاؤُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذَّرِيَّةِ ؟ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا كَانُوا أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : أَوْهَلْ خِيَارُكُمْ إِلَّا أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهَا لِسَانُهَا<sup>(٢)</sup> . وهذا إنصاف ونصٌّ بينٌ في حماية ذراري غير المسلمين .

### الخاتمة والتوصيات:

في ختام هذه الورقة التي تناولت المشترك الحضاري وأثره في تعزيز قيم التعايش قراءة من خلال الحديث النبوي، اتضح لنا أن هذا المشترك موصول ببناء الحضارة الإنسانية وفق الرؤية الإسلامية التي أعطت الإنسان كرامته وحفظت له حقوقه، ودعته إلى إقامة العلاقات المركزية بينه وبين الآخرين على الحق والعدل والصلاح، ويشمل ذلك البيئة من حوله باعتبارها الإطار الجامع والموحد لسعي الإنسان، ويظل الإنسان هو المعزز لهذه القيم الربانية، ذلك أنه بحكم بنوته لآدم

١ - أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، بابٌ في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة، حديث رقم: ٣٠٥٠.

٢ - أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٥٨٢٨.

- عليه السلام - قد جعله الله خليفة على الأرض، وزوده بالقدرات العلمية والمعرفية والأخلاقية، ليقوم برسالته ويؤدي دوره لتحقيق الاستقرار والطمأنينة، ومقتضيات الاستخلاف، من خلال مبدأ التعاون، وذلك أن الناس يختلفون في قدراتهم، وإمكانياتهم وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وسحناتهم وإثنياتهم؛ فإن ذهبوا مذهب التعارض والتباغض والعدوان، فإن الكون يتحوّل ساحة للحروب والعراك والتباغض والتنافس غير المحمود.

وإن ذهبوا المذهب الحق الذي أتت به الأديان السماوية - وخاتمتها الإسلام -، تعززت القيم الإنسانية الفطرية، وهو مذهب احترام الخصوصيات والتعاون الإيجابي، من خلال ما تعارفنا عليه بالمشترك الحضاري الذي تم تحديده في المباحث التي تناولت: مفهوم المشترك الحضاري وأهميته، والمشترك الحضاري قضايا البيئة والعلاقات الإنسانية، والمشترك الحضاري وتحديات الاختلاف والتعدد.

إن هذه القيم، وإن أتت بها الأديان، وحفظها وأقام بنيانها الإسلام، فإن الإنسان العاقل، ومن خلال تطوره الحضاري يشعر بأهمية ذلك، وقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ مجلية لهذه المعاني من خلال سنته الطاهرة وهي التطبيق العملي الذي هدى إليه الدين وأرشد إليه الرسول ﷺ.

إن ربط هذه المعاني بالحديث النبوي يقررها ويقويها ويجعلها قضية دين ومعتقد، ثم تصبح مدخلاً ليستيقن الناس أن الله خالق الإنسان ومدبر الأكوان قد أنزل وحيه على نبيه ﷺ لينعم الإنسان بالأمان والسلامة، وأن لكل إنسان حقوقاً وعليه واجبات، تمثل مدخلاً لتعزيز المشترك الحضاري، وتحقيق التعايش من بعد ذلك.



أهم النتائج التي توصلت إليها الورقة:

- ١- ضرورة الانتباه للمشارك الحضاري الجامع باعتباره مدخلاً لتحقيق الوحدة الإنسانية بين الخلق.
- ٢- إن قيم الحضارة ومبادئ الاستخلاف التي تجلت في أحاديث الرسول ﷺ تمثل مشتركاً قوياً لاثبات عظمة الإسلام وكمال شريعته.
- ٣- لا يتحقق الصلاح الكوني إلا من خلال معرفة نسق الحقوق والواجبات، بما يحقق العدل، ويقوّي القيم، وينفي الظلم.
- ٤- مثل الحديث النبوي ذخيرة حية، وزاداً نافعاً، ومددٌ فقهياً، لبناء نظرية متكاملة لتحقيق الأمن والسّلم العالميين، وفق مرتكزات المشترك الحضاري.

التوصيات: خلّصتُ من ثم للتوصيات الآتية:

- ١- الاهتمام بالدراسات المنهجية التي تعرّف بالمشارك الحضاري، وذلك من خلال سنة رسول الله ﷺ.
- ٢- إبراز المشترك الحضاري الجامع، وطرحه أمام المؤسسات الإقليمية والدولية، ليمثل قاسماً مشتركاً للوحدة وقيم الأمن والسّلم.
- ٣- تضمين قضايا المشترك الحضاري المناهج الدراسية، لتعزيز قيم الوسطية بين أبناء الأمة.
- ٤- إبراز المنهج الإسلامي الأصيل في بناء الحضارة والمحافظة عليها من خلال الدراسات المعمقة في الحديث النبوي.
- ٥- عقد المؤتمرات الدولية وإقامة المؤسسات العالمية التي تدعو إلى تأسيس قيم المشترك الحضاري من منظور إسلامي.

## المراجع

- الجامع لأحكام القرآن، المعروف تفسیر القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.
- المعجم الكبير، لأبي القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، عتاب بن شمير الضبي.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- المعجم الصغير لأبي القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، ط ١، ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.
- المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ.
- المصنف، لأبي بكر عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣.
- السنن الكبرى، لأبي بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجِردِي الخراساني، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

- السنن الصغرى للنسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٦، ١٩٨٦.
- السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، الناشر: دارالمعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٦ م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار، دار الدعوة.
- الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، أبحاث الندوة العالمية للشباب، المجلد الثاني الإصدار (٣) ١٩٧٩ م.
- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ٨، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.
- أسس مفهوم الحضارة في الاسلام، سليمان الخطيب، القاهرة، الزهراء للأعلام العرب، ١٩٨٦.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- جامع المسانيد والسُّنن الهادي لأقوم سنن، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: د عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.
- كنز العمال في سنن الأقوال، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالملكي الشهير بالمتقي الهندي، بكري حياي، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة ط ٥، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

- كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي البغدادي، تحقيق: خليل محمدهراس، دارالفكر، بيروت.
- مسند الشاميين، لأبي القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ١، ١٤٠٥، ١٩٨٤.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.
- معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله صالح علوان، دار السلام للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨٤ م.
- مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، المحقق: خليل شحادة، دارالفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.
- موسوعة حقوق الانسان في الإسلام، خديجة النبراوي، دار السلام للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- مسند البزار المنثور باسم البحر الزخار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ١، ٢٠٠٩ م.
- سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دارالمغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٢ هـ، ٢٠٠٠ م.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

- سنن ابن ماجه، لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب لزوم الجماعة.
- فلسفة الحضارة، أحمد محمود صبحي، مؤسسة الثقافة الجامعية.



الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء  
وتطبيقاتها وأثر ذلك على السلم المدني

د. صالح عبدالكريم  
جامعة الجميرا - الإمارات العربية المتحدة







## المقدمة

الحمد لله الذي بين الأحكام، وجعل العمل بها سبيلا لسعادة الأنام، وطريقا للاستقرار والسلام، أحمدته وأشكره وأثني عليه بأعطر الكلام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك العلام، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بدر التمام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعلام، ومن تبعهم بإحسان يرتجي حُسن الختام، أما بعد:

فقد حرصت الشريعة الإسلامية على غرس قيم الاعتدال والوسطية، ونشر السماحة والسلم بين البشرية؛ فهي نهج الاعتدال في جميع أبواب الحياة بين طرفي الغلو والجفاء، وهي وسطية في العقائد والعبادات، والسلوك والمعاملات، وهي سمحة مبرأة من جفاء التفريط، وغلو الإفراط، وهي دين السلام والأمان، والاستقرار والاطمئنان، وما أجمل وصايا النبي صلى الله عليه وسلم التي تجلي هذه القيم والمبادئ في قوله: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفُرُوا»<sup>(١)</sup>.

ولما تنكب كثير من الناس عن هذه القيم النبيلة، والمبادئ العظيمة، إلى ظلمات التطرف الأهوج، والفكر السقيم الأعوج، ظهرت فتن الإرهاب والتكفير، ومحن الترويع والتفجير؛ فسفكت الأنفس البريئة، وشوهت صورة الشريعة، واستحلت الدماء المعصومة، واستبيحت الأعراض المصونة، وشاع الخوف في كثير من البلاد، وتشتت فئام من العباد!!

١ - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم: ٦٩.

ولذلك كان من الواجب على العقلاء العالمين، والحكماء المعتدلين: أن تتضافر جهودهم الصادقة، وأن تتوافر كلماتهم الناصحة؛ لبيان خطورة ذهاب الأمن وحلول قرن الإرهاب، وبذل الأسباب لحماية فكر الشباب، ودحض أبرز الشبهات المهمة، وإنقاذ الأمة من الفتن المدلهمة؛ من خلال المؤتمرات العلمية النافعة، والمقالات التأصيلية الراسخة، والمحاضرات التوعوية الناجحة.

وما هذه الندوة العلمية الدولية الثامنة إلا حلقة مضيئة، ودرية مستنيرة؛ لوضع النقاط على الحروف في قضية مهمة، وأطروحة تخدم الأمة، في تقرير حقيقة السلم المدني، وبيان ما يتعلق به من التأصيل العلمي، وتجفيف منابع الإرهاب الوحشي.

ولما رأيت إعلان الندوة، ومحاورها المهمة؛ تآقت نفسي للمشاركة العاجلة، والإسهام بالكتابة النافعة، فاخترت لنفسي موضوعاً مهماً للغاية، وحريراً بالعناية، ووسمته ب: «الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقاتها وأثر ذلك على السلم المدني».

لم تتناول الدراسات السابقة هذا الموضوع بمباحثه ومطالبه التي سيأتي ذكرها في خطة البحث، إلا أن بعضها تناول جوانب من هذا البحث، والكتب العامة حول الولاء والبراء بذكر أدلته وأقسامه وأحكامه كثيرة، لكن ما يتعلق منها بأسباب خلل الفهم للأدلة وعلاجه وآثاره قليل، وهي مجرد مقالات وليست من قبيل البحوث المحكمة، ولا تخدم أصالة موضوع السلم المدني.

وجاء هذا البحث ليعرض الموضوع بشموليته: من بيان أسباب الخلل في فهم نصوص الولاء والبراء وتطبيقاتها، مع بيان الآثار والعلاج، والتركيز على بعض الأحاديث التي حصل فيها نشاز فهم لدى طوائف من التيارات الغالية، وبالأخص ما يتعلق بالسلم المدني.

وهناك أسباب كثيرة دفعتني للكتابة حول هذا الموضوع منها:

أولاً: عدم الاطلاع على كتابة وافية تناول هذا الموضوع الجلل.

ثانياً: أهمية تصحيح المفاهيم المغلوطة التي هي شرارة الانحراف، وبداية الإرهاب.

ثالثاً: كثرة الخلل الذي وقفت عليه حول مصطلح الولاء والبراء لدى التيارات الغالية.

لهذه الأسباب وغيرها اخترت هذا الموضوع.

من هنا انتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، فجاء على النحو التالي:

أما المقدمة، فذكرت فيها فكرة عامة عن البحث، والدراسات السابقة، وأسباب اختيار البحث، وخطة البحث، ومنهجية البحث، وأما التمهيد فضمنته: مفهوم الولاء والبراء لغة وشرعاً وأهميته، وجعلت المبحث الأول حول: أسباب الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها، والمبحث الثاني حول: نماذج من صور خلل الفهم لأحاديث الولاء والبراء وتطبيقها، والمبحث الثالث حول: آثار الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها على السلم المدني وعلاجه، وأما الخاتمة فقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات، وأنهيت البحث: بفهرس المراجع والمصادر العلمية التي تمت الاستفادة منها، وفهرس الموضوعات.

وقد سلكت في كتابة هذا البحث المنهج الاستقرائي النقدي التالي:

أولاً: قسمت البحث إلى ثلاثة أقسام على طريقة عرض المشكلات والظواهر؛ فجعلت القسم الأول للأسباب والمبررات، والثاني للصور والنماذج، والثالث للآثار والعلاج.

ثانيا: أطلت النفس في المبحث الأول والثاني لأنهما بيت القصيد من البحث .  
ثالثا: قمت بعزو الآيات القرآنية إلى سورها، مع ذكر رقم الآية، واسم  
السورة .

رابعا: عزوت الأحاديث إلى مصادرها الأصلية، مع التوثيق بذكر الكتاب  
والباب والرقم، مع بيان درجة الأحاديث الواردة خارج الصحيحين .  
خامسا: ذكرت بيانات المرجع في الهامش بتقديم اسم الكتاب ثم المؤلف،  
وأخرت بيانات الطبع لفهرس المصادر والمراجع .  
سادسا: قمت بعمل فهرس للمصادر، والموضوعات .

ثم بعد هذا البحث الذي بذلت فيه وسعي وطاقتي أسأل الله تعالى الإعانة  
فيما توخيت من الإبانة، وإن كنت قد أصبت فذلك من فضل الله، وإن كنت قد  
أخطأت فمن زلات النفس فأستغفر الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،  
والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه الغر الميامين،  
ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

## التمهيد

مفهوم الولاء والبراء وأهميته:

ضبط المفاهيم الشرعية والمصطلحات العلمية يعين على تصور المسائل  
التأصيلية، والولاء والبراء من المصطلحات المتأخرة بهذا التركيب، وإن كانت  
المضامين والمعاني والمفردات المتعلقة بها كثيرة في نصوص الكتاب والسنة .

أولا: الولاء والبراء لغة:

الولاء في اللغة هو القرب، قال ابن فارس: «الواو واللام والياء أصل صحيح

يدل على قرب، من ذلك الوَلِيُّ: القرب، يقال: تباعد بعد ولي، أي قرب، وجلس مما يليني، أي يقاربني»<sup>(١)</sup>، وجاء في مختار الصحاح: «والولي ضد العدو يقال منه «تولاه» وكل من ولي أمر واحد فهو وليه..... والموالاتة ضد المعادة»<sup>(٢)</sup> وجاء في لسان العرب: «لن» ولاية بالفتح «أكثر ما تستعمل في المعنى المصدرية وهو القرب في الدين أو الإعانة والنصرة»<sup>(٣)</sup>.

وأما البراء في اللغة من التباعد، قال ابن الأعرابي: «برئ إذا تخلص، وبرئ إذا تنزه وتباعد»<sup>(٤)</sup>، وقال البيضاوي: «أصل تركيب البرء لخلوص الشيء من غيره»<sup>(٥)</sup>، وفي معجم تهذيب اللغة: «برئ: إذا تنزه وتباعد»<sup>(٦)</sup>، وأصل هذه الكلمة كما قال ابن فارس: «فأصلان إليهما ترجع فروع الباب: أحدهما الخلق، يقال برأ الله الخلق... والأصل الآخر: التباعد من الشيء ومزايلته: من ذلك البرء، وهو السلامة من السقم»<sup>(٧)</sup>.

وعلى هذا يتبين أن الولاء هو القرب وما يدخل ضمنه من مظاهر المحبة والنصرة والإعانة، والبراء هو البعد وما يدخل ضمنه من مظاهر البغض والمجانبة والمعادة.

#### ثانياً: الولاء والبراء شرعاً:

محبة ونصرة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحبة كل

- ١- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ١١٠٤.
- ٢- مختار الصحاح للرازي، ٧٣٦.
- ٣- لسان العرب لابن منظور، ٤٠٧/١٥.
- ٤- المصدر السابق، ٣٥٦/١.
- ٥- تاج العروس للزبيدي، ٧٦/١.
- ٦- معجم تهذيب اللغة للأزهري، ٣٢٤/١.
- ٧- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ١٢٨.

عمل يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبغض ومعاداة كل من حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبغض كل عمل لا يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وفق الشريعة<sup>(١)</sup>.

فالمعنى الشرعي مستمد من أصله اللغوي، فيرجع إلى جانب الحب والبغض الذي يرتبط بالولاء والبراء وينتج عنه إلى جانب الموافقة والمخالفة والمناصرة والمعاداة، يقول ابن تيمية: «أصل الموالاتة هي المحبة، كما أن أصل المعاداة البغض»<sup>(٢)</sup>، وقال السعدي في تفسيره: «وأصل الولاية: المحبة والنصرة»<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: أهمية الولاء والبراء:

الولاء والبراء من أخطر أبواب المعتقد، وهو أحد أبواب التكفير التي انطلق منها الخوارج قديماً، ومن سار على طريقهم في عصرنا، وحصل خلل عظيم في فهمه، نتج عنه أحكاماً جائرةً، يقول الشيخ ابن عثيمين: «وهذه المسألة من أدق المسائل وأخطرها ولا سيما عند الشباب؛ لأن بعض الشباب يظن أن أي شيء يكون فيه اتصال مع الكفار فهو موالاتة لهم وليس كذلك»<sup>(٤)</sup>.

كما أن الولاء والبراء من العبادات القلبية التي تظهر آثارها على الجوارح، يقول ابن القيم: «براءة الخليل وقومه من المشركين ومعبودهم ليست تركاً محضاً بل تركاً صادراً عن بغض ومعاداة وكرهية، هي أمور وجودية، هي عبودية للقلب يترتب عليها خلو الجوارح من العمل؛ كما أن التصديق والإرادة والمحبة والطاعة

١- ينظر: حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة للدكتور عصام السناني، ٤٤، ومجموع فتاوى العقيدة لابن عثيمين، ٣ / ١١، ومعجم ألفاظ العقيدة لأبي عبد الله عامر عبد الله فالج، ٤٤٢.

٢- قاعدة في المحبة لابن تيمية، ١٩٨.

٣- تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ٤٤٦.

٤- لقاءات الباب المفتوح لابن عثيمين، ٣ / ٤٦٦.

من عبودية القلب يترتب عليها آثارها في الجوارح»<sup>(١)</sup>.

بل إن الولاء والبراء من أوثق عرى الإيمان وأصوله، قال تعالى: ﴿ تَكْرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَيْسِقُونَ ﴿ (المائدة: ٨٠، ٨١)، وفي سنن أبي داود من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في منهج الأنبياء عند دعوة أقوامهم تقرير هذا الأصل بجلاء وتفصيل، كحال إبراهيم عليه السلام مع قومه، وحال نبينا صلى الله عليه وسلم مع المشركين، والسنة زاخرة بنصوص الولاء والبراء وتقريرها في مواضع كثيرة، ولكن الإشكال في الفهوم التي حادت عن الصواب، وأخذت من هذه النصوص أدلة لزعة الأمن وسفك الدماء، وسوء التعامل والجفاء، ولم تأت هذه الفهوم المعوجة إلا بسبب الشطط في قواعد معروفة عند أهل العلم حول فهم الدليل وطريقة التنزيل كما سوف يأتي في المبحث الأول.

### المبحث الأول: أسباب الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها

كل خلل وغلط، وانحراف وشطط يرتبط بسبب ومنطلق، فغالب الانحرافات الفكرية لها مناط أصيل نشأ منه الخلل، ودراسة أسباب الخلل يسهل علاج الخطأ، كما ييسر بيان هشاشة الشبهة التي يتعلق بها صاحبها، وسلامة الفهم نعمة عظيمة، وخصلة بديعة تحقق الكثير من المصالح وتدرأ الكثير من المفسدات، وسوء الفهم

١- شفاء العليل لابن القيم، ١ / ١٧٠.

٢- أخرجه أبو دواد في سننه، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم: ٤٦٨١، وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: ٥٩٦٥.

سبب لاضطراب الموازين، وخلل المنهج، وشدوذ الرأي، قال ابن القيم: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله، التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام»<sup>(١)</sup>، وبالنظر لأبرز الأسباب التي نتج عنها الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها فهي ترجع لخمسة أسباب تفصيلها في المطالب التالية:

### المطلب الأول: النظرة المجتزأة والانتقائية للأحاديث

الأحاديث النبوية خرجت من مشكاة واحدة فهي تكمل بعضها البعض، وتآلف ولا تختلف، وخرجت في سياق وسباق ولحاق محدد تُدرك في ضوءه، فالنظر الصحيح للأحاديث يكون من خلال النظرة الكلية التناسقية لها مع مراعاة سائر النصوص ومتعلقاتها في الباب، قال الإمام أحمد بن حنبل: «الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضاً»<sup>(٢)</sup>، وكم من فهم خاطئ نشأ بسبب إغفال بعض النصوص والأخذ ببعض الآخر وعدم رد المتشابه للمحكم، وكم من نشاز فهم نشأ بسبب عدم الالتفات للمخصصات والمقيدات والسياق اللغوي وأسباب الورود<sup>(٣)</sup>.

فالنظر الجزئي والانتقائي والمبتور للأحاديث دون التكامل والإعمال الشامل سبب لكثير من الفهوم والتطبيقات الخاطئة في أحاديث ونصوص السلم المدني، وعلى سبيل المثال نجد أن طوائف من الجماعات الغالية أخذت بنصوص قتال الكفار على الإطلاق؛ مثل قوله: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

١- إعلام الموقعين لابن القيم، ١ / ٨.

٢- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، ٣٧٠.

٣- يقول ابن القيم في ذلك: «السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم؛ فمن أهمله، غلط في نظره، وغالط في مناظرته». بدائع الفوائد، لابن القيم، ٤ / ٨١٥.



يُحْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا  
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ (التوبة: ٢٩)، وقوله: ﴿ يَتَّيَبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَنِيلُوا الَّذِينَ  
يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٣)،  
فأخذوا بهذه النصوص في تقرير وجوب قتل الكفار مطلقا دون قيد، في حين  
أن الشريعة وأحكامها قد قيدت هذا الإطلاق وخصصت عمومها ببيان حال الكافر  
إما حربي، أو معاهد، أو مستأمن، أو ذمي، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا  
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا  
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: ٩١)، وقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَاتَيْنَا عَهْدَئِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ  
لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَمْ أَحَدًا فَأْتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾  
(التوبة: ٤). وفي السنة الصحيحة: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ  
رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(١)</sup>.

وفي الآيات والحديث تقييد لمطلق القتل للكافر الذي قالت به بعض الجماعات  
الغالية، ونشأة الفهم الباطل هنا كان بسبب النظرة المجتزأة والانتقائية للنصوص،  
وعدم إعمال جميع النصوص في سياق واحد، والاقتصار على طرف واحد من  
النصوص.

ومثله أيضا جعل نصوص الموالاتة نسقا واحدا، والحكم على كل صورة من  
الموالاتة بأنها كفر، وإغفال النظر إلى مجموع النصوص في المسألة.

ونظر أهل العلم إلى نصوص الكتاب والسنة في موالاتة الكافر وبينوا أن  
الموالاتة لها ثلاث صور:

الصورة الأولى: الموالاتة المكفرة، وهي التي تسمى في القرآن بالتولي؛ كما  
قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١)، وهذا بمعنى أن يحب الكافر

١ - أخرجه البخاري، كتاب الجزية، بابُ إثم من قتل معاهداً بغير جرم، حديث رقم: ٣١٦٦.

لكفره، وأن ينصر الكافر لأجل دينه، ولأجل كفره، وكأنه رضي بإعلاء الكفر على الإسلام.

الصورة الثانية: الموالاة المحرمة التي لا تصل إلى الكفر، وهي مودة تحصيل مصلحة دنيوية خاصة للمتولي والمظاهر، وهي التي جاءت في قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ (المتحنة: ١)، فوصفهم بإلقاء المودة مع وصف الإيمان، لأن الفعل لم يصدر محبة للكفر، ولا رغبة في ظهور الكفر على الإسلام، وإنما لأجل الدنيا، ومن هذا القبيل قصة الصحابي حاطب بن بلتعة البدري<sup>(١)</sup>، الذي أراد أن يفضي بسر النبي صلى الله عليه وسلم للكفار؛ لأجل قرابته من الكفار، فاستفصل منه النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يحكم عليه بالكفر بعد معرفة السبب.

الصورة الثالثة: الموالاة المباحة، وهي التي تكون بسبب الخوف من الكفار ونحوه، شريطة أن تكون في الظاهر دون الباطن، ومنه ما جاء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ تَقَنَةً﴾ (آل عمران: ٢٨).

### المطلب الثاني: فهم الأحاديث بعيداً عن مقاصد الشريعة

إن المتأمل في كثير من الأقوال المغلوطة لدى بعض الجماعات الغالية يدرك البعد عن مقاصد الشريعة وتصوراتها في فهم النصوص، ولا يخفى على المطلع أن الأحكام الشرعية أحكام مقاصدية، ترجع لحكم وغايات عظيمة، يستحضرها العالم والمجتهد والمفتي في عرض المسائل؛ «وباستقراء أدلة كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة يوجب لنا اليقين بأن أحكام الشريعة منوطة بحكم، وعلل

١ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح وما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٤٢٧٤، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم: ٢٤٩٤.

للصلاح العام للمجتمع والأفراد»<sup>(١)</sup>.

وغياب هذا الفهم يفتح أبوابا من الفساد والشرور، ويُهلك الحرث والنسل، ويُفسد التعايش، ويزعزع السلم المدني؛ قال الشاطبي: «لما ثبت أن الأحكام شرعت لمصالح العباد وكانت الأعمال معتبرة بذلك، لأنه مقصود الشارع، فإذا كان الأمر في ظاهره وباطنه على أصل المشروعية فلا إشكال، وإن كان الظاهر موافقا والمصلحة مخالفة فالعمل غير صحيح وغير مشروع؛ لأن الأعمال المشروعة ليست مقصودة بنفسها، وإنما قصد بها أمور أخرى هي معانيها، وهي المصالح التي شرعت لأجلها»<sup>(٢)</sup>، وقال الطاهر بن عاشور: «المقصد العام من التشريع فيها - يعني كليات الشريعة وجزئياتها - هو حفظ نظام الأمة، واستدامة إصلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه»<sup>(٣)</sup>، وقال علال الفاسي: «والمقصد العام للشريعة؛ هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار إصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما يكلفون به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»<sup>(٤)</sup>.

وعلى سبيل المثال تجد من يدعو لإخراج المشركين من جزيرة العرب مطلقا، وسد باب وجودهم وخلطتهم، قد غاب عنه جوانب مقاصدية عظيمة من الدعوة إلى الله تعالى، ورؤية محاسن أهل الإسلام، من التسامح وورقي الأخلاق، ومعاني الإحسان، والتي أثبت التاريخ والواقع أثرها في ولوج فئام من الكفار

١- مقاصد الشريعة لابن عاشور، ١٨٠.

٢- الموافقات للشاطبي، ٢ / ٢٦٨.

٣- مقاصد الشريعة لابن عاشور، ٢٢٩.

٤- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي، ٤٥.

دين الإسلام أفواجا.

ومثله أيضا إيجاب الجهاد على الأمة دون النظر إلى حال الأمة، من حيث القوة والضعف والمصلحة والمفسدة، في حين أن أهل العلم يقررون المسألة على ما يدور عليها من مصلحة ومفسدة.

فالنظر للنص الشرعي بعيدا عن المرامي المصاحية والأهداف المقاصدية لا شك أنه يورث جملة من التصورات والفهوم الخاطئة.

قال ابن تيمية: «إن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين وتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين، باحتمال أدناهما.

فتجلى أن السيئة يمكن الصبر عليها من أجل النظر لدفع ما هو أسوأ منها إذا لم يدفع إلا بها، أو تحصيل ما هو أنفع من تركها إذا لم يحصل إلا بها، والحسنة تترك في موضعين: إذا كانت مفوتة لما هو أحسن منها، أو مستلزمة لسيئة تزيد مضرتها على منفعة الحسنة»<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثالث: إهمال فهم السلف للأحاديث

لقد ميز الله تعالى سلف الأمة من الصحابة الكرام بفقهِ التأويل وشهود التنزيل، مما جعل لفهمهم ميزة على بقية الفهوم في إدراك الخطاب الشرعي، فمن أدرك غلاف الحال وشهد الوقائع كان أدري بدلالة النص لا سيما مع ضميمته قوة اللغة وسعة الإدراك وتوقد الذهن، وفرصة سؤال المعصوم صلى الله عليه وسلم وطرح ما يشكل عليه آنذاك، والوقوف على أقوال الصحب الكرام في فهم النصوص وتفسيرها مما يقرب المرء إلى الصواب والحق، والبعد عن فهمهم

١ - بيان الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية، ٤ / ٣٣٢.

وإغفاله يؤدي غالباً إلى نشأة فهوم سقيمة.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه في مناقشته للخوارج: «أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَمَنْ عِنْدَ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَهْرِهِ، وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup>.

قال الشاطبي رحمه الله: «فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل»<sup>(٢)</sup>.

وتأمل لفهم الصحابي فيما روي عن زياد بن كسيب العدوي قال: «كُنْتُ مَعَ أَبِي بَكْرَةَ تَحْتَ مَنْبَرِ ابْنِ عَامِرٍ، وَهُوَ يَخْطُبُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُ رِقَاقٍ، فَقَالَ أَبُو بَلَالٍ: انظُرُوا إِلَى أَمِيرِنَا يَلْبَسُ ثِيَابَ الْفَسَاقِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ: اسْكُتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ»<sup>(٣)</sup>، حيث جعل تعيير الحاكم ولمزه من إهانة السلطان، وتجدد اليوم بعض التيارات الغالية يرى أن التعيير من إنكار المنكر والشجاعة في الحق والصدع به، ولو وقفوا عند الأحاديث وفق أفهام السلف لما وقعوا في كثير من الفهوم المغلوطة.

١ - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الخصائص، ذَكَرُ مَنَاطِرَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ الْحُرُورِيَّةَ، وَاحْتِجَاجَهُ فِيمَا أَنْكَرُوهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٨٥٧٥، وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند، حديث رقم: ٣١٨٧، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند حديث رقم: ٧١١.

٢ - الموافقات للشاطبي، ٣ / ٧٢.

٣ - أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْخُلَفَاءِ، حديث رقم: ٢٢٢٤، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وأحمد، مسند أبي بكر رضي الله عنه، حديث رقم: (٢٠٤٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجال أحمد ثقات»، ٥ / ٢١٨.

## المطلب الرابع: الغلو في الأهواء والعقل والاعتداد بالرأي

إن الأحاديث النبوية الصحيحة يتلقاها المؤمن بالتسليم والرضا، ولا يرددها لأنها تخالف أهواء النفس، فكم ممن جعل النص تابعا لهواه، وربما اعتقد ثم استدل، ولوى أعناق النصوص لتوافق الهوى عنده، وأحدث القياسات الفاسدة، وجمد على الآراء المارقة، وحرف الدلالات، ولعب بالمعاني لتتواءم مع الخلفيات المسبقة، فالنظر للأحاديث بحاجة للتجرد التام، واستعداد القبول ولو خالف الهوى الذي يسير عليه الشخص أو العاطفة.

قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي: «التسليم للسنن لا تعارض برأي ولا تدفع بقياس»<sup>(١)</sup>، وقال أبو القاسم الأصبهاني في ذكر سبب انحراف بعض الطوائف: «لأنهم رجعوا إلى معقولهم، وخواطرهم، وآرائهم، فطلبوا الدين من قبله، فإذا سمعوا شيئا من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولهم، فإن استقام قبلوه، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردوه، فإن اضطروا إلى قبوله حرفوه بالتأويلات البعيدة، والمعاني المستكرهة، فحادوا عن الحق وزاغوا عنه»<sup>(٢)</sup>. قال ابن تيمية: «الرأي الذي يهدم الإسلام ويحلل الحرام ويحرم الحلال ما عارض الكتاب والسنة، أو ما كان عليه سلف الأمة»<sup>(٣)</sup>. وقال أيضا في ذكره لوجوه الدلالة الصحيحة: «من الوجوه الصحيحة: أن ما نطق به الكتاب وبينه، أو ثبت بالسنة الصحيحة، أو اتفق عليه السلف الصالح، فليس لأحد أن يعارضه معقولا ونظرا أو كلاما وبرهانا وقياسا عقليا أصلا، بل كل ما يعارض ذلك فقد علم أنه باطل علما كلياً عاما»<sup>(٤)</sup>.

١- الجامع في السنن والآداب والمغازي لابن أبي زيد، ١١٧.

٢- الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني، ٢ / ٢٣٧.

٣- بيان الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية، ٤ / ١٩٤.

٤- بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية، ١ / ٢٤٧.

وعلى سبيل المثال في أحاديث طاعة ولاة الأمر الكثيرة ذهبت بعض الجماعات الغالية إلى أنها خاصة بالإمام الأعظم، ولا يدخل فيها حكام المسلمين اليوم، وهذا محض تأول ورأي وافق هوى عندهم، مخالف لما أجمع عليه العلماء من أن النصوص عامة في الإمام الأعظم وحكام الأقطار، وأن تعدد السلاطين في البلدان مما اقتضاه الحال، قال الشوكاني: «ثم استمر المسلمون على هذه الطريقة حيث كان السلطان واحدا وأمر الأمة مجتمعاً، ثم لما اتسعت أقطار الإسلام ووقع الاختلاف بين أهله، واستولى على كل قطر من الأقطار سلطان؛ اتفق على أنه إذا مات بادروا بنصب من يقوم مقامه، وهذا معلوم لا يخالف فيه أحد بل هو إجماع المسلمين أجمعين منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغاية مما هو مرتبط بالسلطان من مصالح الدين والدنيا»<sup>(١)</sup>.

#### المطلب الخامس: عدم ضبط تحقيق المناط

تحقيق مناط الحكم الشرعي وتنزيله على ما يناسبه من وقائع من دقائق مسائل العلم، وكما هو معلوم عند أهل الأصول أن التدرج الصحيح يكون بتنقيح المناط ثم تحقيق المناط، والنظر في تحقق الصفات في الفرع الذي ينزل عليه الحكم، أو تطبيق القاعدة الكلية على فروعها الجزئية، وعملية القيام بالتنزيل تحتاج إلى أهلية وأدوات وآلات، وكم من أوصاف عامة نزلت في غير وجهها الصحيح.

وعلى سبيل المثال حديث «وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا حُشِرَ مَعَهُمْ»<sup>(٢)</sup>، وسوف يأتي بعد قليل، جاء فيه الوعيد على الحب القلبي الديني للكافر المقترن بحب نصرتهم وغلبتهم، وتمني ظهورهم مما هو مقرر في باب الولاء والبراء، ففهم البعض منه إدخال الحب الفطري والحب الدنيوي، وأدخل فيه صور الإحسان،

١ - السيل الجرار للشوكاني، ٤ / ٥٠٤.

٢ - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم: ٦٤٥٦، قال المنذري في الترغيب والترهيب: إسناده جيد. حديث رقم: ٤٦٠٠.

فحدث الخلل في تحقيق المناط وسوء التنزيل والتطبيق، ومن المقرر عند أهل العلم عدم دخول حب الرجل المسلم لزوجته النصرانية، أو الوالد لولده والعكس مع اختلاف الدين بين المسلم والكتابي، ومثله صور الإحسان في المعاملة الدنيوية.

### المبحث الثاني: نماذج من صور خلل الفهم لأحاديث الولاء والبراء وتطبيقها

تعددت صور الفهوم الخاطئة حول نصوص الولاء والبراء، فكم من آية وحديث قد فهم على خلاف الصواب فيه، وبحثنا حول نصوص السنة دون الآيات، وسوف نستعرض أبرز ما استدلل به بعض الجماعات الغالية من الأحاديث التي فهمتها وطبقتها بصورة غير صحيحة، لا سيما ما له تأثير على السلم المدني، وهي على سبيل المثال لا الحصر لأن المقام لا يتسع لحصر جميع الأحاديث التي حصل الشطط في فهمها وتطبيقها في هذا الباب.

### المطلب الأول: الخلل في فهم أحاديث المعاهدات والعلاقات الدولية

من المسائل الخطيرة التي اتخذتها الجماعات الغالية سبباً للتكفير وجواز قتل المعاهدين والمستأمنين في بلاد المسلمين عقد الاتفاقيات والأحلاف والمعاهدات الدولية، حيث قرروا بطلان هذه العقود من عدة وجوه؛ منها أنها تخالف نصوص الولاء والبراء العامة، كحديث «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنْعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»<sup>(١)</sup>، وأحاديث النهي عن محبة الكفار؛ كحديث: «وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا حَشِرَ مَعَهُمْ»<sup>(٢)</sup>، وعموم الآيات في عدم الصلح والموادعة كقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ (محمد: ٣٥)، وقرروا أن هذه العقود تنازل عن العقيدة، وضعف براء مع الكفار، كما قرروا أن العقود الدائمة باطلة ولا بد من التوقيت.

١ - أخرجه أبو دواد، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم: ٤٦٨١.

٢ - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم: ٦٤٥٦، قال المنذري في الترغيب والترهيب: إسناده جيد. حديث رقم: ٤٦٠٠.



وهذا الفهم كان نتيجة النظرة الجزئية الانتقائية للنصوص، وإعمال بعض النصوص على حساب النصوص الأخرى. والرد على هذه الشبهة من خمسة وجوه:

**الوجه الأول:** من الأحكام التي قررتها الشريعة، وسطرها الأئمة في كتب الفقه: جواز المعاهدات والهدنة والمصالحة مع الكفار، والأصل في هذه المسألة هو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١)، مثله قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧)، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (النساء: ٩٠)، وغيرها من الآيات.

**الوجه الثاني:** إن السنة قد دلت على جواز عقد الهدنة مع الكفار، وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم حلف المطيين، ودعا إلى الوفاء بأحلاف الجاهلية الخيرة: «أوفوا بحلف الجاهلية، فإنه لا يزيدُه يعني الإسلام إلا شدة، ولا تُحدِثُوا حلفاً في الإسلام»<sup>(١)</sup>، وكتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهودا وعاهدهم، قال الشافعي: «وهادن النبي صلى الله عليه وسلم ناسا، ووادع حين قدم المدينة يهودا على غير ما خرج أخذه منهم»<sup>(٢)</sup>.

**الوجه الثالث:** إن هذه العقود والذم التي تعقد بين المسلمين والكفار ترجع لنظر ولي الأمر، وتقديره للمصالح العامة وما يرجع بالخير على المسلمين ودفع الشر؛ كما قال ابن تيمية: «ويجوز عقدها مطلقا ومؤقتا، والمؤقت لازم من الطرفين يجب الوفاء به ما لم ينقضه العدو، ولا ينقض بمجرد خوف الخيانة في أظهر قولي

١ - أخرجه الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الحلف، حديث رقم: ١٥٨٥، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".

٢ - الأم للشافعي، ٤ / ١٨٨.

العلماء، وأما المطلق فهو عقد جائز يعمل الإمام فيه بالمصلحة»<sup>(١)</sup>، فالروابط بين الدول الإسلامية والدول الكافرة تقوم على ما يكون بينها من مصالح ومنافع، وبيان ذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر.

**الوجه الرابع:** إن دخول الكافر بلاد الإسلام، بعقد أمان من الإمام أو نائبه، معتبر شرعا ويكون مؤقتا أو مؤبدا، وهو إما أن يكون عاما لعدد غير معين، أو خاصا لعدد معين، ويجوز أن يتولاه آحاد المسلمين، لحديث: «قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أُمَّ هَانِي»<sup>(٢)</sup>، وحديث: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»<sup>(٣)</sup>؛ قال ابن حجر: «قوله: ذمة المسلمين واحدة أي أمانهم صحيح، فإذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له»<sup>(٤)</sup>.

**الوجه الخامس:** عقود المصالحة والهدنة من عقود الأمان، وعقد الأمان لا يجوز فيه الخيانة، و«الأمان إذا أعطي أهل الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم»<sup>(٥)</sup>، ومن الوعيد الشديد الذي جاء في إخفار هذا العهد قوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٦)</sup>، قال ابن عبد البر «ولا خلاف علمته بين العلماء في أن من أمن حربيا بأي كلام لهم به الأمان، فقد تم له الأمان، وأكثرهم يجعل إشارة الأمان إذا كانت

١- الفتاوى الكبرى، ٥/ ٥٤٢.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، بَابُ الصَّلَاةِ فِي الثُّوبِ الْوَاحِدِ مُلْتَحِفًا بِهِ، حديث رقم: ٣٥٧.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالبَدْعِ، حديث رقم: ٧٣٠٠، ومسلم، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا، وَشَجْرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، حديث رقم: ١٣٧٠.

٤- فتح الباري، ٤/ ٨٦.

٥- المغني لابن قدامة، ١٠/ ٤٢٩.

٦- أخرجه البخاري، كتاب الجزية، بَابُ إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، حديث رقم: ٣١٦٦.

مفهومة بمنزلة الكلام»<sup>(١)</sup>.

## المطلب الثاني: الخلل في فهم أحاديث الاستعانة بغير المسلم في دفع العدو

من الأحاديث التي حملت على غير وجهها وجعلت من مسلمات الولاء والبراء الأحاديث الواردة في الاستعانة بغير المسلم في قتال المشركين أو قتال المسلم الصائل، وأن ذلك من مظاهرة الكفار مطلقا وهدم لعقيدة الولاء والبراء، بل بلغ الأمر ببعضهم لتكفير من جوز الاستعانة بغير المسلم في هذا الباب، دون النظر لاختلاف الفقهاء وتفصيلهم في المسألة، واستدلوا بعموم حديث عائشة في قول النبي صلى الله عليه وسلم لرجل مشرك أراد أن يلحق بهم ويقاتل معهم في بدر: «فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»<sup>(٢)</sup>، ومثله حديث أبي حميد الساعدي في طلب نفر من بني قينقاع القتال مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «مُرُوهُمْ فَلْيَرْجِعُوا، فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»<sup>(٣)</sup>.

١ - الاستذكار لابن عبد البر، ١٤ / ٨٧.

٢ - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، بَابُ كَرَاهَةِ الْأَسْتِعَانَةِ فِي الْغَزْوِ وَبِكَافِرٍ، حديث رقم: ١٨١٧، وأبو داود في السنن كتاب الجهاد، بَابُ فِي الْمُشْرِكِ يُسْهِمُ لَهُ، حديث رقم: ٢٧٣٢، والترمذي في سننه كتاب السير، بَابُ مَا جَاءَ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ يَغْزُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ هَلْ يُسْهِمُ لَهُمْ؟، حديث رقم: ١٥٥٨، وابن ماجه في سننه كتاب الجهاد، بَابُ الْأَسْتِعَانَةِ بِالْمُشْرِكِينَ، حديث رقم: ٢٨٣٢.

والحديث غريب تفرد به مالك، وقد أعله بعض الحفاظ؛ للاختلاف على مالك، وخال الفضيل ابن أبي عبدالله، فهو ليس من المكثرين، وليس له عند السبعة غير هذا الحديث، ولم تنقل تقويته إلا عن أبي حاتم حيث قال عنه: «لا بأس به» تهذيب الكمال، ٢٣ / ٢٧٥، وقال عنه الترمذي: «حسن غريب»، ٤ / ١٢٨. وللحديث شواهد، وعامة العلماء ومنهم مسلم تلقوه بالقبول لرواية الإمام مالك الحديث عن الفضيل كما هي عادة المحدثين في أسانيد أهل المدينة. انظر: علل ابن أبي حاتم، ١ / ٦٤٢.

٣ - أخرجه الطبراني في الأوسط (واللفظ له)، حديث رقم: ٥١٣٨، والبيهقي في السنن كتاب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْأَسْتِعَانَةِ بِالْمُشْرِكِينَ، حديث رقم: ١٧٩٥١، وصححه الحاكم في المستدرک، كتاب الجهاد، لا نستعين بالمشركين على المشركين، حديث رقم: ٢٥٦٤، وإسناده ضعيف لجهالة سعد بن المنذر. انظر تهذيب التهذيب، ٢ / ٢٧٨.

والخلل نتج بسبب عدم إدراك فقه التنزيل وتحقيق المناط في هذه المسألة، كما سيتبين في تضاعيف الكلام، من أن الخلاف لا يندرج تحت مسائل الولاء والبراء. والرد على هذه الشبهة من ثلاثة وجوه:

**الوجه الأول:** إن هذه المسألة من مفردات مسائل الفقه، ولذلك تذكر في أبواب الجهاد، ولا تذكر في أبواب العقيدة.

**الوجه الثاني:** إن هذه المسألة مما جرى فيه الخلاف بين الفقهاء، ومن رأى عدم الاستعانة بالكفار لم يصف المخالفين له بمولاة الكفار أو التهوين من شأنها، قال ابن المنذر في «باب ذكر الاختلاف في المشرك يستعان به على العدو» بعد اختيار عدم جواز الاستعانة بهم: «فإن استعان بهم إمام أعطوا أقل ما قيل، وهو أن يرضخ لهم شيئاً، إذا لا نعلم حجة توجب أن يسهم لهم»<sup>(١)</sup>.

وقد اختلف الفقهاء في جواز الاستعانة بغير المسلمين في موطنين:

**الموطن الأول:** الاستعانة بهم على قتال أهل الحرب: فذهب الحنفية والشافعية والحنابلة في رواية مشهورة في مذهبهم - وهي رواية عن الإمام مالك - إلى جواز الاستعانة بغير المسلم عند الحاجة، واشترط الشافعية والحنابلة أن يعرف الإمام حسن رأيهم في المسلمين ويأمن خيانتهم، وزاد الشافعي أن يكون بالمسلمين قلة وبالمشركين كثرة مع كون حكم الإسلام هو الغالب عليهم، وتكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر، وأما المالكية فالرواية الأولى على ما تقدم عن الإمام مالك بالجواز مطلقاً، والثانية: المنع مطلقاً، لكن يجوز أن يكونوا في خدمات الجيش، والثالثة: وهي المعتمدة عندهم: منع الاستعانة بالمشرك، لكن لا يمنع إذا خرج من تلقاء نفسه.<sup>(٢)</sup>

١ - الأوسط لابن المنذر، ١١ / ١٧٧.

٢ - انظر: المغني لابن قدامة، ١٣ / ٩٨، والتمهيد لابن عبد البر، ١١ / ١٢٣، والإفصاح لابن هبيرة، ٢ / ٢٨٦.

الموطن الثاني: الاستعانة بهم على قتال البغاة: فذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى تحريم الاستعانة بالكفار في قتال البغاة؛ لأن القصد كفهم، والكفار لا يقصدون إلا قتلهم، فإن دعت الحاجة إلى الاستعانة بهم جاز بشرط أن يكون حكم أهل العدل هو الظاهر؛ لأن أهل العدل يقاتلون لإعزاز الدين، والاستعانة على البغاة بهم كالاستعانة عليهم بأدوات القتال<sup>(١)</sup>.

الوجه الثالث: من قال بجواز الاستعانة قد استدل بأدلة كثيرة سواء كانت بطريق المطابقة أو التضمن أو الالتزام، وهي منثورة في مدونات الفقه، وأورد نذرا يسيرا منها على سبيل الإجمال:

أولاً: دخول قبيلة خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش وفيهم مشركون، وقاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم العيون المأمونة من الكفار للتجسس على الكفار الحربيين، وهذا يدل على جواز الاستعانة بهم في الجهاد وفق شروط معينة؛ كما فعل صلى الله عليه وسلم في الحديبية؛ ففي الحديث: «وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُرَاعَةَ»<sup>(٣)</sup>. قال ابن القيم في فوائد قصة الحديبية: «ومنها أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك...»<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: إخبار النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان عن قتال المسلمين والروم معا في صلح بينهم لعدو من ورائهم مما يدل على جواز الاستعانة بالكفار المعاهدين على قتال الكفار الحربيين؛ كما في الحديث: «سَتَصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا

١ - انظر: المبسوط للسرخسي، ١٠ / ١٣٤.

٢ - سيرة ابن هشام، ٣ / ٤٤١.

٣ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، بَابُ غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، حديث رقم: ٤١٨٠.

٤ - زاد المعاد لابن القيم، ٣ / ٣٠١.

أَمْنَا، فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وِرَائِكُمْ، فَتَنْصَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ...»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: شهود كثير من المشركين غزوة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم في جيشه، فمنهم من لم يدخل الإسلام، ومنهم من أسلم بعد وحسن إسلامه؛ ففي الحديث: «لَمَّا كَانَ يَوْمَ حَنِينٍ، أَقْبَلْتُ هَوَازِنَ وَغَطَفَانَ وَغَيْرَهُمْ بِنَعْمِهِمْ وَذَرَارِيَّهُمْ، وَمَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَمِنَ الطَّلَاقِ»<sup>(٢)</sup>. قال الصنعاني: «وقد استعان يوم حنين بجماعة من المشركين تألفهم بالغنائم»<sup>(٣)</sup>.

خامساً: استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بالمنافقين في غزواته خاصة يوم أحد؛ ففي الحديث: «لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ، رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَقَتَيْنِ: فَرَقَةٌ تَقُولُ: نَقَاتْلُهُمْ، وَفَرَقَةٌ تَقُولُ: لَا نَقَاتْلُهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ وَقَالَ: إِنَّهَا طَيْبَةٌ، تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ حَبْثَ الْفِضَّةِ»<sup>(٤)</sup>، ونقل الشوكاني الإجماع على جواز الاستعانة بالمنافق<sup>(٥)</sup>.

وهذا يجلي أن الخلاف معتبر وقوي بين الفريقين، والمسألة فقهية خلافية لا يترتب عليها ولاء وبراء كما ظن بعض من أساء فهم هذه الأحاديث.

- ١- أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، بابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ مَلَا حِمِ الرُّومِ، حديث رقم: ٤٢٩٢، وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم: ٤٢٩٢.
- ٢- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، بابُ غَزْوَةِ الطَّائِفِ، حديث رقم: ٤٣٣٧، ومسلم، كتاب الزكاة، بابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرٍ مِنْ قَوِيٍّ إِيمَانُهُ، حديث رقم: ١٠٥٩.
- ٣- سبل السلام للصنعاني، ٤ / ١٣٤٦.
- ٤- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، بابُ غَزْوَةِ أُحُدٍ، حديث رقم: ٤٠٥٠، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم: ٢٧٧٦.
- ٥- نيل الأوطار للشوكاني، ٨ / ٤٤.

## المطلب الثالث: الخلل في فهم حديث إخراج المشركين من جزيرة العرب

من الأحاديث التي حصل اللبس والخلط في بيانها وتفسيرها: ما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند موته بثلاث: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ...»<sup>(٦)</sup>، فذهب بعض من غلا إلى أن بقاء المشركين والكفار ومساكنتهم ومجاورتهم للمسلمين في جزيرة العرب بأي صورة مصادم لعقيدة الولاء والبراء، وأنه يجب إخراجهم وتطهير الجزيرة منهم، ولو من آحاد الناس! بل قال بعضهم بجواز قتلهم وقتالهم!

ونتج الخلل في الفهم هنا بسبب عدم تصور مقاصد الشريعة، وقواعد المصالح والمفاسد، والكليات الشرعية، وما يرجع لولاية الأمر وما هو من عمل الآحاد، وما قصده الشارع من مسألة الإخراج، إلى جانب الفهم من غير إدراك دلالة السياق. ومناقشة هذه الشبهة حول هذا الحديث العظيم من خلال خمسة وجوه:

**الوجه الأول:** من المهم جدا تصور مفهوم جزيرة العرب<sup>(٧)</sup> والاختلاف فيه، وعدم إطلاق القول دون معرفة حدوده، والسؤال ما هو حد جزيرة العرب الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراج المشركين منه؟

قد اختلف في تحديد جزيرة العرب اختلافا كبيرا، فقال ابن شهاب: جزيرة العرب المدينة، وقال المغيرة بن عبد الرحمن: مكة والمدينة واليمامة واليمن، وقال

٦- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ، حديث رقم: ٣٠٥٣.

٧- سميت جزيرة العرب لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أطرافها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر. معجم البلدان للحموي، ٥٦/٣.

الهيثم بن عدي: ما بين العذيب<sup>(١)</sup> إلى حضرموت، وقال الأصمعي: هي ما لم يبلغه ملك فارس من أقصى عدن إلى أطراف الشام، وقال أبو عبيد: من أقصى عدن إلى ريف العراق طولاً، ومن جدة وما والهنا من الساحل إلى أطراف الشام عرضاً، وقيل غير ذلك<sup>(٢)</sup>.

«لكن الذي يمينع المشركون من سكناه منها الحجاز خاصة، وهو مكة والمدينة، وما والاهما، لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب، لاتفاق الجميع على أن اليمن لا يمينعون منها مع أنها من جملة جزيرة العرب، وهذا مذهب الجمهور، وعن الحنفية يجوز مطلقاً إلا المسجد، وعن مالك يجوز دخولهم الحرم للتجارة، وقال الشافعي: لا يدخلون الحرم أصلاً إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين الخاصة<sup>(٣)</sup>».

قال ابن تيمية: «ويمنعون من المقام في الحجاز وهو: مكة والمدينة واليامة وفدك وتبوك ونحوها، وما دون المنحني وهو عقبة الصوان من الشام كمعان<sup>(٤)</sup>».

وهذا يوضح أمراً مهماً جداً وهو أن تحديد جزيرة العرب المقصودة في الحديث يختلف عن التحديد المصطلح عليه جغرافياً، وأن جمهور العلماء على أنها بلاد الحجاز<sup>(٥)</sup>، ومنهم من قصرها على مكة والمدينة وما ولاها، فكيف يخل بالسلم المدني ويعمد للقتل والتدمير على مسائل خلافية؟!

١- العذيبُ: تصغير العذب وهو الماء الطيب، وهو ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنتان وثلاثون ميلاً، وقيل: هو واد لبني تميم وهو من منازل حاج الكوفة، وقيل: حد السودان، انظر معجم البلدان للحموي، ٦ / ٣٠٤.

٢- انظر: المصدر السابق، ٣ / ٥٦.

٣- فتح الباري لابن حجر، ٧ / ٦١٦، وينظر نحوه في التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن، ١٨ / ٢٨٦.

٤- الاختيارات لابن تيمية، ٥٤٧.

٥- انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم، ١ / ٣٧٧.



**الوجه الثاني:** إن الخطاب في الحديث ليس لآحاد الناس وإنما لولاية الأمر؛ كسائر الأمور العامة من الجهاد والإجلاء وإقامة الحدود، ولو نظرنا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه نجد أنه لم يخرج اليهود، ولم يطالبه عمر رضي الله عنه ولا غيره من الصحابة بذلك؛ وعليه فلا يحق لأفراد الرعية التدخل فيما هو من خصائص ولاية الأمر؛ وإلا أصبحت البلاد فوضى.

**الوجه الثالث:** إن هذا الإخراج مقيد بأصناف معينة أو صفات معينة كالإقامة المطلقة ونحوها؛ ودليل ذلك أن عمر رضي الله عنه لم يخرج كل كافر من المدينة، بل هناك من المماليك الكفار، وكذلك الصناع ونحوهم لم يخرجوا منها حتى إن أبا لؤلؤة المجوسي - وهو الذي قتل عمر رضي الله عنه كان مقيما بالمدينة -.

ومثله بقاء اليهود بخيبر ومعاملتهم عليها بنصف ما يخرج منها؛ لحاجة المسلمين إليهم في القيام باستغلال تلك المزارع وإصلاحها.

ومن الأدلة على سبيل الالتزام أن الله أباح تزوج الكتابية، ومن لازم ذلك أن من تزوجها من أهل المدينة فسوف يجعلها تقيم معه فيها.

**الوجه الرابع:** لو قررنا أن إخراجهم يرجع لولاية الأمر وفق ضوابط معينة، نقول: إن المراد إخراجهم مع حماية أموالهم وأعراضهم ودمائهم إلى أن يخرجوا كما فعل عمر رضي الله عنه، وليس المراد سفك الدماء والأذى وإتلاف الأموال بدعوى تحقيق الولاء والبراء كما يصنعه من لا يفقه من الغلاة.

**الوجه الخامس:** إنه حتى بعد إخراجهم وكذلك غيرهم ممن ليسوا في الجزيرة يجوز دخولهم إليها بإذن الإمام لمصلحة<sup>(١)</sup>. قال ابن الملقن: «فإن استأذن في دخوله أذن الإمام أو نائبه فيه إن كان فيه مصلحة للمسلمين كرسالة وحمل

١ - انظر: تأملات في قوله «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» للدكتور عبدالمحسن العبيكان، ٤٣ - ٤٦.

ما يحتاج إليه»<sup>(١)</sup>. وقال الشيخ ابن باز: «أما الكفار فلا يستخدمهم أبداً إلا عند الضرورة الشرعية؛ أي: التي يقدرها ولاة الأمر، وفق شرع الإسلام وحده»<sup>(٢)</sup>. وقال الشيخ ابن عثيمين: «استخدامهم للحاجة إليهم بحيث لا نجد مسلماً يقوم بتلك الحاجة جائز، بشرط أن لا يمنحوا إقامة جائزة»<sup>(٣)</sup>.

### المبحث الثالث: آثار الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها على السلم المدني وعلاجه.

تبين من النماذج السابقة خطورة آثار الخلل في فهم الولاء والبراء وتطبيقها على السلم المدني، فهي نذير شر لكثير من انحرافات الغلو والتطرف، وما من داء إلا وله علاج، ومجرد معرفة الأسباب دون التطرق للعلاج لا يحقق المراد في هذا الباب، ولذلك سوف نتعرض للآثار والعلاج في المطلبين الآتين:

المطلب الأول: آثار الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها على السلم المدني.

إن شيوع الفهم الخاطئ لأحاديث السلم المدني المختلفة، سواء في أبواب حمل السيف والجهاد، أو الحدود والعقوبات، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الولاء والبراء له آثار مخيفة، ومهددات كبيرة للسلم المدني على مستوى العالم.

والخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها على وجه الخصوص له آثار سيئة عديدة، ومن هذه الآثار على سبيل المثال:

١- التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن، ١٨ / ٢٨٨.

٢- مجموع فتاوى ابن باز، ٣ / ٢٨٦.

٣- مجموع فتاوى ابن عثيمين، ٣ / ٤٢.

أولاً: انتشار فكر التكفير في المجتمعات، وهو نواة التفجير، فمن خلال سوء فهم قواعد التعامل مع الآخرين، وجهل معالم دين الإسلام في صور التسامح والإحسان للغير، يظن من لديه خلل في الفهم أن هذا من التنازل عن العقيدة، ويلجأ إثر ذلك لتكفير المتسامح مع الآخرين.

ثانياً: استهداف وإيذاء المسلمين والمعاهدين والمستأمنين في بلاد المسلمين، تحت شعار قتال الكفار مطلقاً، وإخراج المشركين من جزيرة العرب، مما يؤدي إلى ذهاب الأمن، وسفك الدماء، وإفساد التعايش السلمي مع الآخرين، وكل ذلك ناتج بسبب الخلل في الأخذ بعموم النصوص دون النظر إلى المقيدات والمخصصات في النصوص الأخرى.

ثالثاً: تشويه صورة الإسلام النقية التي بُنيت على السلم والرحمة والتسامح، فكم من فهم خاطئ أثمر تطبيقاً باطلاً، كان له أثر في نقل صورة سوداء عن الإسلام، ظنا منهم أن الإسلام يمثل هذه الفهوم الخاطئة في هذه الأحداث والمواقف، حتى رُمي أهل الإسلام بالغدر والخيانة، وعدم التزام العهود.

رابعاً: إخراج الدول المسلمة والتضييق عليها ببعض التصرفات التي لا تمت إلى الإسلام بصلّة، فكم من ضغوط أمنية واقتصادية أحاطت ببعض الدول الإسلامية نتيجة تطبيقات كانت وليدة فهوم مغلوطة لدى بعض الغلاة والمتطرفين، تجاه من دخل بعهد أمان إلى بلاد المسلمين.

خامساً: توسع دائرة الغلو والتطرف لدى الشباب، لا سيما حينما يجد ما يسنده من تأويل خاطئ، وفهم منكوس، يظن أنه الصواب والحق، فيتعصب له ويدعو إليه غيره، ومع ضعف التأصيل العلمي الصحيح وسوء الفهم يترعرع الغلو وينتشر.

## المطلب الثاني: طرق علاج الخلل في فهم أحاديث الولاء والبراء وتطبيقها

ما ذكرناه في مبحث الأسباب يسهل الطريق إلى معرفة سبل العلاج، وآليته، وهو من الجهد المشترك بين الأفراد والمؤسسات المختلفة، ولعل من أبرز صور العلاج ما يلي:

### أولاً: النظرة التكاملية للنصوص

إن النظرة التكاملية والتناسقية للنصوص الشرعية من أبرز صور علاج خلل الفهم، فالنصوص الشرعية متكاملة، ولبعضها البعض موضحة ومجلية، والقاعدة في هذا الباب «إعمال النصوص أولى من إهمالها»، فالأحاديث ينظر لها من خلال الآيات وبقية الأحاديث، كما ينظر إلى سياقاتها ودلالاتها، وأسباب ورودها، ومقيداتها ومخصصاتها، حتى تظهر الصورة الكلية الجمالية للدلالة النصوص، وهذا يقتضي احترام التخصص، والرجوع إلى العلماء الراسخين العارفين، لا سيما في الدقائق والنوازل العظام، قال الحافظ ابن كثير في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩): «وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة، ويدل على صحة كون سؤال العلماء واجبا، وامثال فتواهم»<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: التجرد من الأهواء عند النظر في الأحاديث

من الأسس المهمة عند المسلم الاحتكام إلى الكتاب والسنة، ثم الحذر من مضادة النصوص الواضحة البينة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥)، أي «نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق

١ - تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٤٦.

وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا»<sup>(١)</sup>.

ومن وصية النبي صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن سارية: «فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»<sup>(٢)</sup>، فيه حث على الاتباع والبعد عن الإحداث والابتداع. قال أبو القاسم الأصبهاني: «وليس العلم بكثرة الرواية وإنما الاتباع والاستعمال، يقتدي بالصحابة والتابعين، وإن كان قليل العلم»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك لا بد من غرس أصل الاتباع والتجرد، وعدم معارضة النص بمجرد الهوى والعاطفة، فكم من نصوص عطلت بسبب العواطف، مع أن المواقف العاطفية لا تغير الأحكام الشرعية، وكلما عظم جانب الاستسلام للنص وتعظيم السنة كلما قلت الأهواء والمحدثات والأقوال الرديئة، وكان سببا في علاج هذه الفهوم الغوية.

### ثالثا: الربط بين النصوص ومقاصد الشريعة

من تأمل في كثير من الأخطاء التي شاعت عند الجماعات الغالية يدرك مدى غياب مقاصد الشريعة لديهم في فهم المسائل وتطبيقها، والشطط في تقدير المصلحة والمفسدة، وعدم تصور القواعد المهمة؛ مثل قاعدة «درء المفسد مقدم على جلب المصالح»، وقاعدة «الشريعة أتت لتحقيق المصالح وتكثيرها ودرء المفسد وتقليلها».

١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ٢٠٢.

٢ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: ٤٦٠٧، وسكت عنه، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم: ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث رقم: ٤٣، قال ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر: «صحيح رجاله ثقات»، ١ / ١٦٣.

٣ - الحجة في بيان المحجة للأصبهاني، ٢ / ٤٣٧.

فالأعمال مختلفة متفاوتة من جهة المصلحة والمفسدة، وإدراك ذلك مهم في التحصيل والتكميل أو التعطيل والتحجيم؛ قال ابن القيم: «فالأعمال إما تشتمل على مصلحة خالصة أو راجحة، وإما تشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة، وإما أن تستوي مصلحتها ومفسدتها، فهذه أقسام خمسة منها أربعة تأتي بها الشرائع»<sup>(١)</sup>.

والمصالح في نفسها تتفاوت عند العلماء ولها درجات في الأهمية وفي التقديم عند التعارض؛ قال الأمين الشنقيطي: «ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع السماوي ثلاث وهي: درء المفسد، المعبر عنه في الأصول بالضروريات، وجلب المصالح، المعبر عنه في الأصول بالحاجيات، والجري على مكارم الأخلاق وأحسن العادات، المعبر عنه في الأصول بالتحسينيات والتمتات»<sup>(٢)</sup>. فمعرفة مقاصد الشريعة له ثمرات مباشرة في علاج الخلل في فهم النصوص، من ذلك: أولاً: مقاصد الشريعة تمكن من فهم النصوص وتفسيرها بشكل صحيح عند تطبيقها على الوقائع واستنباط الأحكام منها.

ثانياً: تعين على ترجيح ما يحقق المقاصد ويتفق مع أهدافها في جلب المصالح ودرء المفسد.

ثالثاً: صدور الأحكام التي تتوافق مع الإطار العام للشريعة في العلل والأحكام والمرامي الكلية والجزئية<sup>(٣)</sup>.

وعليه فمن العلاجات المهمة بيان أن هذه الشريعة مقاصدية لها حكم وأسرار وعلل؛ تستصحب في معرفة المسائل، وأن غياب هذه المقاصد يفتح أبواب

١- مفتاح دار السعادة لابن القيم، ٢/ ٢٩٨.

٢- المثل العليا للشنقيطي، ١٣٠.

٣- انظر: مدخل عام لدراسة مقاصد الشريعة للدكتور عبد الإله القاسمي، ١١.

الفتاوى البعيدة عن روح الشريعة وأهدافها وغاياتها.

فالفقيه والمستدل يحتاجان إلى معرفة مقاصد الشريعة، ومراعاة الكليات الشرعية الضرورية، ومعرفة المصالح المرسله، وقواعد سد الذرائع، ومعرفة المآلات، وغيرها من الأسس التي يُبنى عليها الفقه في صورة بهية نقية خالية من غريب المسائل ونشازها.

رابعاً: معرفة حدود العقل مع النقل.

مكانة العقل في الإسلام كبيرة، ومنزلته رفيعة، فهو مناط التكليف، ومن أعظم النعم والتشريف، وقد امتن الله به على الإنسان، لأنه يميز به بين النافع والضار، ويدرك به التكليف الشرعية، ويتدبر به الآيات القرآنية، ويفهم به الأحاديث النبوية، ويجتهد به في أموره الدنيوية، فهو واسطة لا غنى للإنسان عنها في إدراك أمور دينه ودنياه، ولا شك أن العقل السليم لا يتعارض من النص الصحيح، قال ابن تيمية: «ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط»<sup>(١)</sup>، ولا يفهم من مكانة العقل في الإسلام أنه مُبرر لمعارضة النص، فالعقل له حدود مع النقل، لا يُقدم عليه، ويعتمد العقل على النقل في الفهم الصحيح، والعقل وسيلة للتدبر الحسن في فهم النقل.

وإدراك هذا التكامل بين العقل والنقل يُسهّم في علاج الشطط الذي نشأ في أفراد العقل بالفهم على حساب النقل الصحيح الصريح.

خامساً: معرفة فقه التنزيل والتكييف

التكييف الصحيح وفقه التنزيل ومهارة تحقيق المناط من أسس السلامة في

١ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، ١/ ١٥٤.

التعامل مع النصوص، وهو باب دقيق وليس مشاعراً لأحد الناس، ولا هو من قبيل الطحن في الماء، بل هو علم مستقل برمته، يحتاج إلى صفات دقيقة، ولا ينبغي أن يخوض فيه كل أحد، بل يُترك لأهل الاجتهاد والتخصص، ويلزم المرء الورع في هذا الباب ومعرفة قدره .

قال ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقهاء فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

---

١ - إعلام الموقعين لابن القيم، ١ / ٨٧.



## الخاتمة

### أهم النتائج والتوصيات

الحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، والصلاة والسلام خير البرية، وسيد البشرية، وعلى آله وصحبه وبعد:

فقد وصلنا بعد هذا التطواف السريع بين أروقة هذا البحث إلى نهاية المطاف؛ بفضل الله ولطفه وتوفيقه، وقد ظهر لي من خلاله جملة من النتائج؛ سأورد أهمها بإذن الله:

**أولا:** إن حقيقة الولاء في اللغة هو القرب وما يدخل ضمنه من مظاهر المحبة والنصرة والإعانة، وحقيقة البراء في اللغة هو البعد وما يدخل ضمنه من مظاهر البغض والمجانبة والمعادة، وقد جاء المعنى الشرعي مستمدا من أصله اللغوي، فيرجع إلى جانب الحب والبغض الذي يرتبط بالولاء والبراء وينتج عنه إلى جانب الموافقة والمخالفة والمناصرة والمعادة.

**ثانيا:** إن الولاء والبراء من أهم العبادات القلبية وتتبعها أعمال الجوارح المرتبطة بها، وهو من أوثق عرى الإيمان؛ وقد ظهر في منهج الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وهو باب من أبواب العقيدة قد زلت فيه أقدام، وحادت فيه أفهام.

**ثالثا:** إن الخلل الذي ظهر في فهم أحاديث الولاء والبراء يرجع لأسباب مهمة تكمن في النظرة المجتزأة للنصوص، وغياب فهم مقاصد الشريعة، والغلو في الأهواء والآراء والعقول، وعدم ضبط تحقيق المناط وطريق التنزيل والتكييف الصحيح.

**رابعا:** إن العلاج لهذا الخلل إنما يكون بتعزيز جوانب الاستسلام للنص، والتجرد للشرع، والبعد عن الأهواء، ومعرفة حدود العقل، واحترام التخصص،

والنظرة التكاملية، ومراعاة مقاصد الشريعة، ولزوم الأسس والقواعد التي تُستصحب في الاستدلال.

خامسا: إن الآثار المترتبة على خلل الفهم لأحاديث الولاء والبراء جسيمة على السلم المدني، ومؤرقة لأمن الدول والمجتمعات، حيث تضم في طياتها ركاما من صور الغلو والتطرف والتكفير وسفك الدماء والإرهاب والتعصب للآراء.

ومما أوصي به في ختام هذا البحث ما يلي:

أولا: ضرورة إفراد مؤتمرات للمحاور الجزئية في إشكاليات الفهم والتطبيق؛ كأن يخصص مؤتمر كامل لأحاديث الولاء والبراء وتأصيل هذا الباب، وآخر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها.

ثانيا: تخصيص ندوات حول فقه الفتن، وبيان الأسباب والصور والعلاج من خلال النصوص الشرعية، وربطها بالأحداث العصرية.

ثالثا: قيام فريق من الباحثين بإعداد رسالة علمية تجمع الأحاديث التي حصل خلل في فهمها مما يتعلق بباب السلم والتسامح، والرد على أبرز الشبهات في هذا الباب.

## فهرس المصادر

- أحكام أهل الذمة، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٣٨٣م تحقيق صبحي الصالح.
- الاختيارات، لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية.
- الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، ط ١، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، تحقيق أسامة بن إبراهيم.
- الإفصاح عن معاني الصحاح، لأبي المظفر يحيى بن هبيرة، المؤسسة السعيدية بالرياض.
- الأم، لأبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق محمد زهري النجار.
- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، ط ١، ١٤٠٥هـ، تحقيق صغير أحمد حنيف.
- بيان الدليل على بطلان التحليل، لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية، المكتب الإسلامي، ط ١، تحقيق حمدي السلفي.
- بيان تلبيس الجهمية، لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية، طبعة مجمع الملك فهد، ١٤٢٦.
- تاج العروس، لأبي فيض السيد محمد مرتضى الزبيدي، دار الفكر، تحقيق علي سيرى، ٢٠٠٥م.
- تأملات في قوله أخرجوا المشركين، لعبدالمحسن العبيكان، دار الإمام أحمد، ط ١، ٢٠٠٨م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء بن إسماعيل بن كثير، دار الحديث بالقاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، ط ١، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، تحقيق أسامة بن إبراهيم.

- تهذيب التهذيب، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المؤيد بالرياض، ط ١، تحقيق خليل شيخا وعمر السلامي وعلي بن مسعود.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج يوسف المزي، مؤسسة الرسالة، ط ١، تحقيق بشار عواد.
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لأبي حفص عمر بن علي المعروف بابن الملقن، دار النوادر، ط ١، ٢٠٠٨ إصدار وزارة الأوقاف القطرية تحقيق دار الفلاح.
- تيسير الكريم المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، إحياء التراث الإسلامي بالكويت، ط ٢، ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الرسالة، ط ٣.
- الجامع في السنن والآداب، لأبي محمد عبدالله ابن زيد القيرواني، مكتبة البخاري بقطر، ط ١.
- الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراية، ط ٢، ١٩٩٩م.
- حقيقة الولاء والبراء، لعصام بن عبدالله السناني، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت، ط ١، ٢٠٠٨م.
- زاد المعاد، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ط ٢، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنبوط.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، دار الجيل ببيروت، ١٤٠٠هـ، تحقيق محمد الخولي.
- سنن ابن ماجه، لأبي عبدالله محمد بن يزيد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، عناية مشهور حسن، ط ١.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، عناية مشهور حسن، ط ١.

- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد البيهقي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، عناية مشهور حسن، ط ١.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد الترمذي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، عناية مشهور حسن، ط ١.
- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، عناية مشهور حسن، ط ١.
- سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام، مكتبة المنار بالأردن، ط ١، تحقيق همام سعيد ومحمد أبو صعيلىك.
- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي الشوكاني، دار الحديث، ط ١.
- شفاء العليل، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الفكر، ١٩٧٨، تحقيق محمد بدر النعساني.
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٨ م.
- صحيح مسلم، لمسلم بن حجاج النيسابوري، دار قرطبة، ط ٢، ٢٠٠٩ م.
- علل الحديث، لأبي محمد بن أبي حاتم الرازي، مكتبة الرشد، ط ١، تحقيق محمد الدباسي.
- الفتاوى الكبرى، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٧ م.
- فتح الباري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار أبي حيان، ط ١، ١٩٩٦ م.
- قاعدة في المحبة، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة، تحقيق محمد رشاد سالم.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، اعتنى به أمين عبد الوهاب ومحمد الصادق، ط ٣.

- لقاءات الباب المفتوح، لمحمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة بالإسكندرية.
- المبسوط، محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، ط ١.
- المثل العليا، لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة الجامعة الإسلامية.
- مجموع فتاوى ابن باز، لعبدالعزیز بن عبد الله بن باز، جمع محمد الشويعر، مؤسسة الحرمين الخيرية بالرياض، ط ٤.
- مجموع فتاوى ابن عثيمين، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، ط ٢، ٢٠٠٢ م.
- مجموع فتاوى العقيدة، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الجيل ببيروت، ط ٢، ١٩٩٣ م.
- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، دار الحديث بالقاهرة، تحقيق محمود خاطر.
- مدخل عام لدراسة مقاصد الشريعة، لعبدالإله القاسمي، دار الكتاب المغربي، ط ١، ٢٠١٥ م.
- المستدرک، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١ هـ، تحقيق مصطفى عطا.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان الطبراني، دار الحرمين بالقاهرة، تحقيق طارق عوض الله وعبدالمحسن الحسيني.
- معجم البلدان، لأبي عبد الله ياقوت الحموي، دار إحياء التراث ببيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- معجم ألفاظ العقيدة، لأبي عبد الله عامر عبد الله فالح، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٩٩٧ م.
- معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد الأزهری، دار المعرفة ببيروت، تحقيق رياض زكي، ط ١.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار الفكر ببيروت، ط ١، ١٩٩٤ م.
- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لأبي محمد عبد الله بن قدامة، دار عالم الكتب بالرياض، ط ٣، تحقيق عبد الله التركي.

- مفتاح دار السعادة، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مقاصد الشريعة، لمحمد بن طاهر العاشور، طبعة وزارة الأوقاف القطرية، تحقيق محمد ابن الخوجة.
- مقاصد الشريعة ومكارمها، لعلال الفاسي، الرابطة المحمدية للعلماء، ط ١، تحقيق إسماعيل الحسني.
- الموافقات، لإبراهيم بن موسى الشاطبي، دار ابن عفان، تحقيق مشهور حسن، ط ١.
- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الجيل ببيرو، ١٩٧٣.





وثيقة المدينة: نحو تأسيس مبادئ  
السلم الاجتماعي والتعايش الديني

د. بُوعَبِيدَ الأَزْهَار

جامعة السلطان مولاي سليمان - المملكة المغربية





## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم ﷺ وعلى آله وصحبه، وأزواجه الطيبين الطاهرين أمهات المؤمنين، وكل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

إن الإسلام في جوهره ووسائله وغاياته، أشد الأديان حرصًا على إقرار مبدأ الأمن والسلم والتعايش داخل المجتمع الإسلامي، سواء مع أبنائه أو مع غيره، على اعتبار أن الإسلام ما كان ليُكْتَبَ له العالمية، والديمومة والاستمرارية عبر الزمان والمكان، إلا بقدرته الاستيعابية لكل الأنساق المعرفية والدينية الأخرى المغايرة، داخل المنظومة العقدية التوحيدية المتكاملة. وبناء على هذه القيم الكونية فقد ضَمِنَ الإسلام للمسلم، كما ضمن لغيره من الحقوق ما يجعله ينعم بالتعايش والتفاعل الإيجابي والتناغم مع محيطه، ويعيش جنبًا إلى جنب مع باقي الأنساق العقدية الأخرى، في جو يسوده الود والإخاء الإنساني، ومن هنا كان الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة الأمن والسلام والتعاون على تحقيق النفع والصلاح للجميع.

ووثيقة المدينة - قيد الدراسة والتحليل - تعد بحق، لبنة أساسية في صرح البناء التشريعي لقيم الأمن والسلم، فهي ترجمة فعلية وعملية لهذه القيم؛ إذ تعد بالفعل نموذجًا تفسيريًا جديرًا بأن يُقتدى به، في تفعيل وإعمال سنن التعايش والتعارف الحضاري، وهي القيم التي ما فتى رسول الله ﷺ ينبه أصحابه الكرام ويرغبهم بتمثلها في تعاملهم مع الآخر، لأهميتها في بناء المجتمع الإسلامي المنشود. ولمقاربة هذه القضايا وغيرها سيتم التركيز على المبحثين الآتيين:

- المبحث الأول: الإسلام ومسوغات الدعوة إلى إقرار مبدأ السلم والتعايش مع الأنساق العقدية المغايرة.
- المبحث الثاني: مظاهر قيم السلم الاجتماعي والتعايش الديني وتجلياتهما من خلال وثيقة المدينة.

نسعى من خلال هذه الدراسة، إلى الوقوف على الأبعاد التشريعية والمقاصدية لمبادئ السلم والتسامح التي أقرها الدين الإسلامي مع غيره من أتباع الأديان، كما نروم من خلالها -أيضاً- استجلاء أهم مظاهر وتجليات قيم السلم الاجتماعي والتعايش الديني التي عكستها بنود وثيقة المدينة، مع التأكيد على ضرورة الالتزام بها في واقعنا المعاصر. لاسيما وأنها القيم والمبادئ نفسها التي أقام عليها رسول الله ﷺ علاقته بأتباع الأنساق العقدية المتميزة، فكانت حضارة متميزة ورائدة.

اعتمدت في مقاربة إشكالات وقضايا هذه الدراسة على جملة من الخطوات والأسس المنهجية، والتي يمكن اختزالها في الآتي:

١- اعتماد أساس منهجي وصفي تقريرى: لواقع الإنسانية وما تعيشه من صراعات دامية وفتن طائفية، وغياب وعي حقيقي بخطورة الانزلاق وراء الدعوات المغرضة لمقولات الصراع والصدام الحضاري، وكذا بيان قوة فاعلية تشريعات الإسلام في الاعتراف بمبادئ السلم والسلام. ورصد مظاهر السلم الاجتماعي والتعايش الديني وتجلياتهما في الهدي النبوي.

٢- التركيز على الأساس المنهجي التحليلي: في دراسة المادة العلمية المتعلقة بنود وثيقة المدينة وأثرها في ترسيخ قيم السلم والتسامح في زمن الصراع والفتن والحروب الدامية، ومقاربتها الواقعية في تحصين أبناء الأمة الإسلامية

من الانزلاق أمام مواقف العداء والصراع التي تبشر بها الخيارات الغربية، والعودة بهم للاستمداد من المنابع الصافية - القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة - في التأصيل لعلاقة المسلمين بغيرهم من الأنساق الدينية والعقدية المغايرة.

وللإحاطة بقضايا الدراسة وإشكالاتها، اعتمدت خطة بحثية تضمنت مقدمة، ومبحثين، ثم خاتمة؛ وجاءت هذه الخطة على النحو الآتي:

- المقدمة: تناولت فيها مدخلاً عاماً للدراسة، وأهداف البحث، وخطة البحث، ثم المنهجية المتبعة في هذه الدراسة.
- المبحث الأول: تناولت فيه مبررات الإسلام الإنسانية والحضارية في الدعوة إلى إقرار مبدأ السلم والتعايش مع الأنساق العقدية المغايرة، وذلك من خلال ثلاثة مطالب:
- تمهيد: خصصته للمدخل التمهيدي لهذه الدراسة.
- المطلب الأول: بينت فيه مقصدية الأمن والسلم في الشريعة الإسلامية.
- المطلب الثاني: أبرزت فيه قيمة السلم والتعايش في بناء الأمم والحضارات.
- المبحث الثاني: فقد خُصِّصَ للحديث عن أهم مظاهر قيم الأمن والسلم الاجتماعي والتعايش الديني وتجلياتهما من خلال بنود وثيقة المدينة، وذلك من خلال أربعة مطالب:
- المطلب التمهيدي: تحدثت فيه عن مفهوم السلم والتعايش وحققتهما من منظور إسلامي.
- المطلب الأول: أشرت فيه إلى مظاهر السلم الاجتماعي وتجلياته في وثيقة المدينة.

- **المطلب الثاني:** تحدث فيه عن مظاهر التعايش الديني في الوثيقة.
- **المطلب الثالث:** تمت الإشارة فيه إلى مظاهر الأمن القانوني في الوثيقة.

وقد أتبعنا هذا المبحث بخاتمة تجمع بين أهم نتائج البحث وخلصاته، والتي تدور حول ضرورة ترسيخ قيم السلم والتعايش الاجتماعي في وقتنا المعاصر، وتوجيه العقل الإنساني المعاصر إلى التشبث بالخيارات الإسلامية، بدل التأثير بالمقولات الغربية العدوانية، ثم أتت بعدها قائمة المراجع والمصادر المعتمدة في هذه الدراسة، وفهرس موضوعات البحث.

## **المبحث الأول: الإسلام ومسوغات الدعوة إلى إقرار مبدأ السلم والتعايش مع الأنساق العقديّة المغايرة**

**تمهيد:**

لقد كان العالم إلى ظهور الإسلام يعيش صراعات دامية بين النظم القائمة في بلاد الجزيرة العربية، والبلدان المجاورة لها، على أساس النفوذ والسيطرة والتوسع، وهو ما ترتب عنه ذبوع الفتنة وانتشارها في البلاد، وزعزعة الاستقرار، وافتقاد الأمن بجميع أنواعه. وعندما جاء النبي ﷺ مهاجراً إلى يثرب، كان اليهود في هذه المدينة وما جاورها يفتقدون للأمن على دينهم وأنفسهم، ويخافون من قوات الشرك والوثنية، ويتابعون بقلق اضطهاد اليهود من لدن الإمبراطورية الرومانية، فبادر النبي ﷺ في دستور الصحيفة إلى إعطائهم من الضمانات ما بدد مخاوفهم ويزيل قلقهم<sup>(1)</sup>، إذ ظهر التزام التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب واضحاً في مقتضيات دستور الدولة الإسلامية، ولذلك فإن وضع التناحر

---

١- عالمية الإسلام، ونداؤه للسلم، ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر، أبو طالب عبد الهادي، مقال منشور بمجلة إسلامية اليوم - دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الأيسيسكو، العدد التاسع عشر، السنة ١٩، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ٤٢.

والتقاتل، وفقدان كل معاني الأمن والسلم والتعايش بين مختلف الأنساق العقدية والاجتماعية، جعل النبي ﷺ يوجه دعوته إلى العالمين، لترسيخ قيم التعايش بين الديانات في وفاق على كلمة واحدة، وهو ما انعكس عنه إخراج تناحر الديانات العالمية من مأزقه، حيث دخل العالم في عهد من الوئام والتفاهم والتعايش بين العقائد يقوم على مبدأ عظيم جاء به القرآن الكريم عندما أعلن أن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)<sup>(١)</sup>.

فالبصير بشريعة الإسلام والواقف على أبعادها وغاياتها ومقاصدها يتحسس مكانة الأمن السامية في الإسلام، ومن ثمة فإذا كانت الرؤية الإسلامية قد اقتضت أن يكون الأمن اجتماعيًا لا تقف طمأننته عند دنيا الفرد، فإن هذه الرؤية قد تجاوزت أهمية الأمن الاجتماعي أو الحق الإنساني، لتجعله فريضة إلهية، وواجبًا شرعيًا، وضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنساني، كما جعلت هذه الرؤية؛ إقامة مقومات الأمن الاجتماعي، الأساس لإقامة الدين، فرتبت على صلاح الدنيا بالأمن صلاح الدين، وليس العكس<sup>(٢)</sup>.

وهكذا فقد سبق الإسلام الأمم العالمية والمنظمات الدولية إلى إعلان نداء السلام العالمي الشامل، وتأتي شرعية الأمن والسلام في الإسلام من قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨)، وكذلك في حديث النبي ﷺ، فعن أبي سعيد بن شريح قال، قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ»<sup>(٣)</sup>، فدعوة الحق للناس

١ - نفسه، ٤١.

٢ - ينظر: الإسلام والأمن الاجتماعي، ١٧.

٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب إِثْمٍ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ، حديث رقم: ٦٠١٦.

جميعاً للدخول في السلام والأمن، ورفع الإيمان عن المسلم الذي لا يأمن جاره أذاه وسوءاته، يؤكدان مكانة الأمن في الإسلام، ويقرران مشروعيته ومنزلته في الشريعة الإسلامية، وما ذلك إلا لخير البشرية وحرص الإسلام على العيش في نعمة الأمن وامتعة الطمأنينة<sup>(١)</sup>، فالإسلام يعتبر الأمن نعمة وفضلاً، لأنه «يشكل عاملاً من أهم عوامل الراحة والسعادة والسكينة لبني الإنسان في الحياة، يتحصنون به من غوائل الفوضى وجوائر الشرور، وينعمون في ظله بلذات الهدوء والاستقرار والاطمئنان»<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الأول: مقصدية الأمن والسلم في الشريعة الإسلامية:

إنه إذا كان من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النوع الإنساني وتحقيق استمراره في الوجود، فإن الأمن هو أهم الأسس وأبرز القواعد التي يُقام عليها صرح الحضارات، وهو اللغة الرسمية التي يتميز بها الفرد المتحضر، والمجتمع المتقدم، والأمة الواعدة التي تدرك ما ينطوي عليه المناخ الآمن من عوامل حضارية فنية، وعناصر ديناميكية فاعلة، تقود إلى صنع مجتمع حضاري متقدم يحظى بالاستقرار وينعم بالسكينة ويتفياً ظلال الأمن وحياة الرفاهية<sup>(٣)</sup>. وقد كان هذا قصد النبي ﷺ، بعد إرساء قواعد مجتمع جديد، وأمة إسلامية جديدة، إذ عمل على توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تُعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية<sup>(٤)</sup>.

١- انظر، الإسلام والأمن الاجتماعي، ١٧.

٢- نفسه.

٣- الأمن في الإسلام حاجة إنسانية، السيد محمد المليجي، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي -مجلة إسلامية شهرية جامعة تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- دولة الكويت، العدد رقم: ٥٢٤، أبريل ٢٠٠٩م، ١٤.

٤- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ١٨٠.



إن الحديث عن حق الإنسان في الحياة، وفي التمتع بالحقوق الملحقة، أصبح من المسلمات وبديهيات الأمور، ويكفي في بيان أهمية هذا الحق أن نشير إلى أن الشريعة الإسلامية قد جعلته من حيث الاعتبار وقوة الأثر من مقاصدها الأساسية التي تدور أحكامها كلها عليه، كليات وجزئيات، بل إن حق الحياة عند التحقيق هو المقصد الأول الذي ترد إليه سائر المقاصد الأساسية في هذه الشريعة بعد المحافظة على الدين لتوقفها جميعاً إيجاباً وتنمية وحفظاً على الإنسان نفسه<sup>(١)</sup>، وإشعاراً بقداسة حق الحياة ومقصدية في الشريعة الإسلامية يقف النبي ﷺ في بيت الحرام أمام الكعبة المشرفة قائلاً: «مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيحَكَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: قيمة السلم والتعايش في بناء الحضارات:

إن ثقافة السلام في الإسلام يشخصها ما جاءت به رسالته من استبعاد الانغلاق في الدين، والرأي والموقف والسلوك، والتعامل مع الغير، وقبول التعددية الدينية، والتعايش بين الديانات، فهو يقيم رابطة الأخوة الإنسانية بين أبناء المجتمع حماية وضمناً لمبدأ السلام على أساس المحبة والألفة والتعاون والتضامن والإيثار ونبذ الخصومات. وبهذا كله يتحقق السلام الاجتماعي والأمن والسكينة، وتتوحد دعائم المجتمع على وجه لا تصدعه الأحداث ولا تنال من هيئته الخطوب<sup>(٣)</sup>. ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يدعو المؤمنين ويحرضهم على تدعيم العلاقات السلمية بين الأمم المجاورة كما يقول وهبة الزحيلي، من

١- حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، هاني سليمان الطعيمات، ١١٤.

٢- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، بَابُ حُرْمَةِ دَمِ الْمُؤْمِنِ وَمَالِهِ، حديث رقم: ٣٩٢٣.

٣- دعائم الأمن والسلام في الإسلام، وهبي الزحيلي، مجلة حضارة الإسلام، العدد ٣، السنة ٤، ١٩٦٣، ٥٦-٤٦.

أجل تسهيل تبادل المنافع الاقتصادية وتحقيق المقاصد الاجتماعية، وعقد أو اصر المودة والتعاون وانتفاع كل أمة بما لدى الأمم الأخرى من ثقافة وعلم وخبرة في سبيل خير الإنسانية ودفعها نحو التقدم والازدهار والسلام<sup>(١)</sup>.

إن السماحة الإنسانية، عنصر مهم من عناصر إقرار السلم والسلام، تفتقده كل الحضارات التي تُظل العالم اليوم، هذا العالم الذي تُمزقه العصبية الدينية والعنصرية والمذهبية، فيقف على شفا جُرفٍ هارٍ بسبب تلك العصبية الذميمة، التي تنقصها روح السماحة الإنسانية، وروح العدالة الحقيقية، وتقف الأمم من بعضها موقف الحذر والقلق الدائم، وتدعهم في تربص بأنفسهم وسواهم، وفي دُعر لا أمن فيه، وحقد لا سلام فيه، وظلمة لا بصيص فيها.

ومن ثمة فإذا أرادت الأمة أن تحقق لنفسها تقدمًا حضاريًا مزدهرًا، فلا بد أن يتوفر الأمن لديها على المستوى الفردي والاجتماعي، وذلك وفق ما شهد به التاريخ وأكده تجارب الأمم والشعوب ذات الحضارات العريقة، فلا إبداع من دون استقرار، ولا نهضة علمية أو اجتماعية من دون أمن، أو طمأنينة تُلقح العقول وتشحذ العزائم وتُعلي الهمم وتُطلق الحريات<sup>(٢)</sup>. ولذلك كانت الحاجة والضرورة في التعايش مع الأديان ملحة لما تفرضه من الحفاظ على سلامة الكيان الإنساني، وما يمليه الحرص المشترك على البقاء الحر الكريم فوق هذا الكوكب، لهذا يُعدُّ التعايش ضرورة من ضرورات الحياة على هذه الأرض، تستجيب للدواعي الملحة لقاعدة جلب المنافع ودرء المفاسد، وتلبي نداء الفطرة الإنسانية السوية للعيش في أمن وسلام وطمأنينة، حتى ينصرف الإنسان في دعة وسكينة إلى تعمير الأرض، بالمعنى الحضاري والإنساني الواسع لهذا التعمير<sup>(٣)</sup>.

١ - نفسه.

٢ - الأمن في الإسلام حاجة إنسانية، السيد محمد المليجي، ١٥.

٣ - الحوار من أجل التعايش، عبد العزيز التويجري، ١٣١ «بتصرف».

## المبحث الثاني: مظاهر قيم السلم الاجتماعي والتعايش الديني وتجلياتهما من خلال بنود وثيقة المدينة.

عرفت المرحلة المدنية من الدعوة الإسلامية تحولات كبيرة على مستوى العلاقات الخارجية، خاصة بعدما توسعت رقعة الإسلام والمسلمين في معظم بقاع المعمور، وهو الأمر الذي جعل النبي ﷺ يفكر في رؤية إستراتيجية لاستيعاب مختلف الأنساق العقدية التي كانت حينئذ بالمدينة، وهو بالفعل ما تمّ حين حقّق ﷺ ذلك الاتصال المباشر مع اليهود، وكذا ربط العلاقات مع النصارى والمجوس عن طريق عدد من الكتب والمعاهدات، ومن خلال بنود هذه المعاهدات بدأ يفعل ﷺ، تلك القيم النبيلة والمفقودة في المجتمع العربي قبل الإسلام، خاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان، على اعتبار تلك المكانة والتكريم اللذين يحظى بهما الإنسان في سلم ترتيب المخلوقات، ومن ثمة فقد اعتُبرت «قضية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية من الموضوعات الجوهرية في الشريعة الإسلامية (...)، فموقف الشريعة من قضية حقوق الإنسان قد جاء بمثابة فتح جديد في تاريخ البشرية، جاء ليخلصها من الضلال، وليرفع عن كاهلها المعاناة، فكان لها الفضل كل الفضل في تقديم أرقى مضامين الحرية، ووضع الأساليب التي تمكّن الأفراد من ممارسة حقوقهم وحرّياتهم الشخصية»<sup>(١)</sup>، بغية خلق جو من الأمن والاستقرار.

ولأجل ذلك، كانت رغبة النبي ﷺ كبيرة في وضع إطار قانوني عام وشامل ينظم العلاقات بين سكان المدينة على أساس من السلم والتعايش فيما بينهم، ولمواجهة كل الأخطار المحدقة بالمسلمين في دار هجرتهم، وتهيئ الظروف المناسبة للقيام بنشر الدعوة الإسلامية، وقد تمثّل هذا الإطار القانوني فيما يسمى

١ - حقوق الإنسان وحرّياته الأساسية، هاني سليمان الطعيمات، ٥٤.

بـ«الصحيفة» أو «وثيقة المدينة»<sup>(١)</sup>.

والمأمل في بنود هذه الوثيقة القانونية يدرك أنها جاءت برؤية شاملة مستوعبة لكل القضايا والإشكالات التي عرفها المجتمع المدني وما يدور في فلكه، أخرجت أهله من وضعية الصراع والتناحر القبلي إلى رحاب الأخوة والمحبة والتسامح، ثم إنَّ هذه البنود شكلت في عمومها حلقات متسلسلة لامست الجوانب السياسية والاجتماعية والأمنية والحضارية لسكان يثرب. وهذا يكشف حقيقة عن قدرة هذه الوثيقة في إحداث نقلة تشريعية قانونية هائلة لم تعهدها البشرية من قبل، كما يجد المتأمل في هذه الوثيقة؛ مقدار العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود وكل سكان المدينة، وحرصها على إسقاط كل الاعتبارات الطبقية والجاهلية وتجاوزها بغية ترسيخ المبادئ السامية التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، كما أن هذه البنود اشتملت أيضاً في مجموعها على ما تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة بعضهم ببعض<sup>(٢)</sup>، ومن ثمَّ فإذا كانت وثيقة المدينة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة، لنشر السكينة في ربوعها، والضرب على أيدي العابدين ومدبري الفتن، أيا كان دينهم<sup>(٣)</sup>، فما حقيقة السلم والتعايش في المنظور الإسلامي؟ ثم كيف ضمنت بنود هذه الوثيقة قيم العدل والتسامح والحرية الدينية، وحرمة حياة غير المسلمين في بلاد الإسلام؟.

١- وذلك في السنة الأولى من الهجرة، وهي مقسمة إلى ثلاثة فصول، أولها خاص بالمسلمين، والثاني خاص باليهود، والثالث عام عن المدينة، والذي يهمنا منها في هذه الدراسة، هو ذلك القسم المتعلق بتنظيم العلاقات بين المسلمين واليهود بشكل عام، وقيم السلم الاجتماعي والتعايش الديني داخل هذا الحيز والفضاء الجغرافي بشكل خاص.

٢- الوطن والمواطن في صحيفة المدينة، خالد الأحمد، مقالة منشورة بمركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية، [www.asharqalarbi.org.uk](http://www.asharqalarbi.org.uk)، المملكة المتحدة، لندن، تاريخ كتابتها: ٢٨ / ٠٢ / ٢٠٠٨، تاريخ الدخول: ١١ / ٣ / ٢٠١٧ م، ساعة الدخول: ١١:٥٨ ص.

٣- فقه السيرة، محمد الغزالي، مراجعة وتعليق: ناصر الألباني، ١٦٧.

المطلب التمهيدي: مفهوم السلم والتعايش من منظور إسلامي:

أولاً: مفهوم السلم من منظور إسلامي:

١- مفهوم السلم:

سَلِمَ: السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، قال أهل العلم: الله جل ثناؤه هو السلام، لسلامته مما يلحق بالخلق من العيب والنقص والفناء، والسلام: المُسَالمة. والسَّلْم هو: الصُّلح، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١)<sup>(١)</sup>.

وجاء في لسان العرب لابن منظور، السَّلْمُ: المُسَالمة، تقول: أنا سَلِمْتُ لِمَنْ سَالَمَنِي. وَقَوْمٌ سَلِمٌ وَسَلْمٌ: مُسَالِمُونَ، وَتَسَالَمُوا: تَصَالَحُوا. وَالتَّسَالُمُ: التَّصَالِحُ، وَالمُسَالمةُ: المُصَالحةُ، وَالسَّلْمُ: ضد الحرب والعداوة والاعتداء والمشاحنة، وغيرها من الأمور التي قد تؤدي إلى وقوع أمر، من شأنه أن يؤدي إلى إيذاء البشر<sup>(٢)</sup>، كما ورد عند الجرجاني أن، السَّلْمُ: «التقديم والتسليم»<sup>(٣)</sup>.

٢- السلم الاجتماعي:

إن الأصل في الإسلام، السلم والسلام، لذلك فقد أسس الدين الإسلامي العلاقة بين المسلمين وغيرهم، على أساس السلم والمسالمة والأمن والأمان، فهو لَمْ يُجْزِ قَتْلَ النَّفْسِ لِمَجْرَدِ مَخَالَفَتِهَا فِي الْعَقْدِ، وَأَنَّهَا تَدِينُ بِدِينِ غَيْرِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا أَمْرُ أَتْبَاعِهِ بِمَعَامَلَتِهِمْ الْمَعَامِلَةَ الطَّيِّبَةَ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، بِنَاءً عَلَى الْاحْتِرَامِ الْمُبَادَلِ وَالْعِلَاقَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْمَشْتَرَكَةِ، حِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، باب السين واللام وما يثلثهما، مادة سلم، ٩٠.

٢- لسان العرب، ابن منظور، مادة سلم، ص ٢٨٩-٢٩٣.

٣- التعريفات، للشريف الجرجاني، باب السين، ١٢٠.

(المتحنة: ٨)، ويقول ﷺ أيضاً: ﴿فَإِنْ أَعْرَزْتُمْ فَلَمْ يُقْبَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَكِينًا﴾ (النساء: ٩٠)، ولذلك نجد الشارع الحكيم حرص كل الحرص على أن يلتزم المسلمون بالسلم والتسامح كلما رغب الآخر في ذلك، والدليل على في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١).

ثانياً: مفهوم التعايش من منظور إسلامي:

#### ١ - مفهوم التعايش:

جاء في لسان العرب لابن منظور، العَيْشُ: الحياة، عَاشَ يَعِيشُ عَيْشًا، وَعَيْشَةٌ وَمَعِيشًا، وَعَايَشَهُ: عَاشَ مَعَهُ، كَقَوْلِهِ عَاشِرَهُ<sup>(١)</sup>، وفي المعجم الوسيط، تَعَايَشُوا: عَاشُوا عَلَى الْأُلْفَةِ وَالْمُودَّةِ، وَمِنْهُ التَّعَايَشُ السَّلْمِيُّ، وَعَايَشَهُ: عَاشَ مَعَهُ، وَالْعَيْشُ، معناه الحياة، وما تكون به الحياة من المطعم، والمشرب، والدخل<sup>(٢)</sup>.

#### ٢ - التعايش السلمي (الديني):

يعرّف التعايش السلمي، على أنه: «اتفاق طرفين أو عدة أطراف على تنظيم وسائل العيش - أي الحياة، فيما بينهم وفق قاعدة يتم تحديدها، وتمهيد السبل المؤدية إليها»<sup>(٣)</sup>.

إن التعايش في الإسلام الذي هو أرقى أسلوب للتعامل مع الحضارات، ينطلق من قاعدة عقديّة، وهو ذو جذور إيمانية. ولعل أبلغ آية تفي بهذا القصد، قول الحق ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)؛ ففي الآية الكريمة دلالة عميقة على مبدأ التعايش في الإسلام، على اعتبار المساحة المشتركة الواسعة بين المسلمين وأهل الكتاب، ومن ثمة فالمسلم يعتقد أن الهدى

١ - لسان العرب، ابن منظور، مادة عيش، ٣٢١.

٢ - المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس، وآخرون، ج ١-٢، ٦٣٩-٦٤٠.

٣ - الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ٢.

الإلهي جاء عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوات، آخر حلقاتها اليهودية، فالمسيحية، فالإسلام. فمن الطبيعي أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب بعضها إلى بعض منها إلى سائر الأديان<sup>(١)</sup>.

وللإشارة فالمقصود هنا بالتعايش ليس ذلك الذي يعني الذوبان مع الآخر والانسلاخ من الهوية والتمرد على الذات والوقوع في الاندماج الأعمى والتعامل المهزوم والمأزوم، وإنما الذي يعني التعاون الحاصل بالندية والعزة والكرامة وتبادل الإفادات في المجال الإنساني المشترك، وفي ما لا يقدر في الأديان والخصوصيات والثوابت<sup>(٢)</sup>.

**المطلب الأول: مظاهر قيم السلم الاجتماعي وتجلياتها من خلال وثيقة المدينة:**

إن في روح الإسلام وجوهره من السماحة والود الإنساني ما لا يستطيع منصف أن ينكره أو يجحده، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها، ولا لأتباع عقيدة معينة، وإنما هي للإنسان بوصفه إنساناً. ومن ثمة فقد حرص الإسلام كل الحرص من أجل توفير ضمانات أمن الأفراد وسلامتهم في وسطهم الاجتماعي، ليصل بهذا كله إلى بث قيم السلم والتسامح في ضمير هؤلاء الأفراد وتفكيرهم.

وإذا تأملنا جيداً عقد الذمة، أو بنود الصحيفة وما تحتوي عليه من أهمية في تنظيم علاقة الذميين بالسلطة الإسلامية، يتّضح لنا أنها تقدم لأهل الذمة الحصانة والضمانة القانونيين التين جعلتاهم يعيشون داخل مجتمع تتعدد فيه الأديان واللغات والأجناس، فكل طائفة دخلت في الذمة إلا وتمتعت بحقوقها الكاملة

١ - رسالة إلى العقل العربي المسلم، حسن تحتوت، ١٥٤.

٢ - أبحاث في مقاصد الشريعة - دراسة مقاصدية لبعض قضايا الاجتهاد والتجديد والمعاصرة والفكر والحضارة والثقافة والمنطق والأصول والفروع، الخادمي نور الدين مختار، ٨٢.

بدءاً بحقها في ممارسة عقائدها وطقوسها<sup>(١)</sup>، وأولى هذه الضمانات وأسمائها؛  
نذكر:

• أولاً: حق الحياة (مقصد أصلي كلي):

إن الحق في الحياة هو أسمى الحقوق الإنسانية على الإطلاق، فهو الحق الطبيعي الأول للإنسان، و«الشرط البديهي والأساسي للتمتع بسائر الحقوق، إذ لا يمكن التفكير في ممارسة أي حق آخر دون ضمان هذا الحق»<sup>(٢)</sup>، وهو حق البقاء، أو الوجود الأصيل المتأصل في الإنسان، وحمايته تعني حماية للنوع الإنساني من الفناء والانقراض؛ إذ به استمرارية الحياة، وبقاء الجنس البشري، ولذلك فمن مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النوع الإنساني وتحقيق استمراره في الوجود، كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ومن ثمة فقد جعل الإسلام حماية روح أي إنسان، تُعادل حماية أرواح النوع الإنساني بأسره، واعتبر قتل أي إنسان قتلًا للإنسانية جمعاء، فالشريعة الإسلامية ضمنت هذا الحق في كل زمان ومكان، وأكدت عليه، حرصاً منها على استمرار النوع البشري، وعصمة النفس الإنسانية من الهدر والفناء، ونرى ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)، فالآية الكريمة - كما يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيره - «تُعَلِّمُنَا ما يجب من وحدة البشر، وحرص كل واحد منهم على حياة الجميع، واثقائه ضرر كل فرد، لأن انتهاك حرمة الفرد انتهاك للجميع، والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرّر له من حقوق

١ - ينظر، أهل الذمة في المجتمع الإسلامي بالمشرق من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة الأموية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، من إعداد الباحث: عبد العزيز الضعيفي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط، ١٩٩٣ / ١٩٩٤ م، الجزء الثاني، ٥١٠ بتصرف.

٢ - الحريات العامة وحقوق الإنسان بين النص والواقع، عيسى بيرم، ٢٤٣.



المساواة في الشرع قيام بحق الجميع»<sup>(١)</sup>.

ونظرًا لمقصدية حياة الأفراد في هذا الوجود، وحفظ النوع الإنساني، فقد حرص الإسلام على ضمان هذا الحق، فلم يدعه للضمير وحده، أو التحذير من عقاب الآخرة فحسب، وإنما وضع له من الضمانات القانونية نصًا وتفصيلاً، ما يردع الجاني من ارتكاب أي جرم، أو يفكر فيه، فقرر القصاص في حالة العمد، والدية والفدية في حالات الخطأ، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وتماشياً مع هذا المنطق فقد استطاعت الصحيفة، أن تقضي على كل أشكال الفتن والعداوات، وتؤمن المجتمع العربي من التناحر والاقتيال، وذلك حين قررت في إحدى بنودها «وإنه من اعتبَط - أي قتل بلا جناية - مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قودُّ به إلى أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمن عليه كافة ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه»<sup>(٢)</sup>؛ أقر هذا البند الأمن الاجتماعي، وضمنه بضمنان الديات لأهل القتل، وفي ذلك إبطال عادة الثأر الجاهلية، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعاً ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة<sup>(٣)</sup>.

ومن ثمَّ فإن تحقيق الأمن الفردي أساس لتحقيق الأمن الجماعي، لارتباط الأمنين، حيث جعلت الشريعة قتل الواحد كقتل المجتمع، لما يشيع في المجتمع من اضطراب وقلق عند العدوان على الواحد، لذلك على المجموع أن يتحركوا لمنع العدوان على الواحد، وإحياء نفسه، وتحقيق الأمن للمجموع<sup>(٤)</sup>، ومن هذا

١ - تفسير المنار، رشيد رضا، ٦ / ٢٨٩.

٢ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٢ / ٩١، وما بعدها.

٣ - دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية، محمد سعيد ياقوت، مقالة منشورة بموقع صيد الفوائد، [www.saaaid.net](http://www.saaaid.net)، تاريخ الدخول: ١١ / ٣ / ٢٠١٧ م، ساعة الدخول: ٤٨:١٠ ص.

٤ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، أكرم ضياء العمري، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، العدد ٣٩، الجزء ١، الطبعة الأولى - رمضان ١٤١٤ هـ، ١٢٥.

المنطلق، فقد حذر رسول الله ﷺ من قتل الذميين حيث قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوَجَّدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(١)</sup>.

فالحياة الكاملة للإنسان مَصُونَةٌ، وإزهاق الروح بغير وجه حَقٍّ، جريمة ضد الإنسانية كلها، ومن الواجب على الجماعة أن تتعاون فيما بينها لِشَدِّ أزر من يعتدي عليها، وانعكاسا على ذلك فقد حرص ﷺ على تفعيل هذا الحق من خلال بنود الصحيفة، بل أكثر من ذلك، نجده قد أمّن النفس البشرية من الاعتداء عليها، لأنه لا يحق لأي شخص بأي حال من الأحوال كما يقول جون لوك: «أن يَضُرَّ بملكات الغير المدنية أو أن يدمرها بدعوى، أن هذا الغير يُؤمّن بدين آخر، أو يمارس شعائر أخرى، إذ لا بد من المحافظة على كل حقوقه الإنسانية والمدنية باعتبارها حقوقا مقدسة»<sup>(٢)</sup>.

والأدلة النصية - من القرآن والسنة، كثيرة في تزكية هذا المبدأ؛ إذ إن منطق استخلاف النوع البشري محكوم بمعادلة حفظ النفس الإنسانية من كل ما من شأنه المساس بها. لذلك فقد شدد الشارع الحكيم في حفظ النفس وشرع تشريعات حكيمة لتقويتها والتأكيد على حرمتها.

#### • ثانيًا: منع البغي (مقصد جزئي تبعي):

إن من أبرز القضايا التي كانت تُورِّق المجتمع المدني العربي قبل كتابة الصحيفة، قضية انعدام الأمن وسيادة ظاهرة الثأر والبغي، فكان شعارهم: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا وَمَظْلُومًا»<sup>(٣)</sup>، وبذلك بلغ أمر الأخذ بالثأر من «القداسة في نفوسهم درجة القيم الدينية، فما على الثائر إلا أن يدرك ثأره، أو يموت دونه،

١ - أخرجه البخاري، كتاب الجزية، بابُ إثم من قتل مُعَاهِدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، حديث رقم: ٣١٦٦.

٢ - رسالة في التسامح، جون لوك، ٨٣.

٣ - أخرجه البخاري، كتاب المظالم، بابُ أعن أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، حديث رقم: ٢٤٤٣.

كما يقول أحمد الشرباصي<sup>(١)</sup>. ولعل هذا الأمر كان دافعاً للنبي ﷺ من خلال وضعه لصحيفة المدينة، على تغيير القانون الذي كان سائداً قبل كتابتها، فعمل على محاربة البغي والظلم، وحرّم كل أشكال الثأر والانتقام، كما نصّت هذه الصحيفة على أن تحمل الجماعة المسؤولية في الأخذ على يد البغاة والمعتدين والمفسدين، وأن لها وحدها الرعاية والسهر على التنفيذ كما جاء في البند رقم ١٣<sup>(٢)</sup>، «وإنّ المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دسيعة<sup>(٣)</sup> ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإنّ أيديهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم<sup>(٤)</sup>»، وفي البند رقم ٢١، نجد «وإنّه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول، وإنّ المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه<sup>(٥)</sup>»، فشكّل هذا الفعل النبوي إشارة قوية إلى تأسيس مرحلة جديدة من العلاقة بين الناس، قائمة على أساس حفظ النفس، والضرب على كل من سولت له نفسه المساس بها بغير حق. وقد أكد هذا البند على «مسؤولية الأمة المدنية، كمجتمع سياسي قائم على السلم الأهلي، بما يعنيه من الوقوف في وجه الظلم والإثم والفتن السياسية

١- القصاص في الإسلام، أحمد الشرباصي، ٣٣.

٢- ينظر: هذا التقسيم والتصنيف من حيث البنود، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، القائد الشعبي، تقديم

عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، العدد ١١٠، السنة الخامسة والعشرون، ٤١-٤٦.

٣- (دس ع) (فعل ثلاثي لازم متعد)، دَسَعْتُ، أَدَسَعُ، ادَّسَعُ، مصدر دَسَعٌ، دَسِيعَةٌ، ويقال دَسَعَ الشَّيْءُ، أي دَفَعَهُ. جاء في مقاييس اللغة أن: «البدال والسين والعين أصل يدل على الدفع. يقال دسع البعير بجرته، إذا دفع بها. والدسع: خروج الجرة. والدسيعة: كرم فعل الرجل في أمره. وفلان ضخم الدسيعة، يقال هي الجفنة، ويقال المائدة. وأي ذلك كان فهو من الدفع والإعطاء. ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في كتابه بين قريش والأنصار: «إنّ المؤمنين أيديهم على من بغي عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم»، فإنه أراد الدَّفْعَ أيضًا. يقول: ابتغى دَفْعًا يظلم. (معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، باب الدال والسين وما يثلثهما في الثلاثي، مادة «دسع»، ٢ / ٢٧٩).

٤- السيرة النبوية، بن هشام، كتاب السير والمغازي، ٢ / ٩١.

٥- نفسه، ٢ / ٩١، وما بعدها.

التي تحصل بين أفراد هذا المجتمع ، فأيديهم جميعاً عليه»<sup>(١)</sup>.

والبغي في البند رقم ١٣ ، يقصد به الظلم والتعدي ، حتى أن الإمام الشوكاني قال في هذا الأمر كلاماً مفاده أن الباغي أحد رجلين ، إما رجل بغي على جميع المسلمين ، أو بعضهم بنهب أموالهم وسفك دمائهم ، وهتك حرمتهم ، فهذا قد جعل الله له حدوداً مذكورة في كتابه العزيز ، أو رجل بغي على إمام من أئمة المسلمين ، بعد اجتماع كلمتهم على دخولهم تحت طاعته ، سواء كانوا قليلاً أو كثيراً فهذا تجب مقاتلته<sup>(٢)</sup> ، لأن الله تعالى حرم الإثم والبغي في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلْيَافَ الْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وللإمام ابن تيمية في هذا الباب كلام أوردته في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» ، نقلاً عن العلماء ، مفاده «أن أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيظ حتى يوثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه ، وربما لم يرضوا بقتل القاتل ، بل يقتلوا كثيراً من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ، ومقدم الطائفة ، فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء ، وتعدى هؤلاء في الاستيفاء كما كان يفعل أهل الجاهلية الخارجون على الشريعة في هذه الأوقات ، من الأعراب والحاضرة وغيرهم . وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيماً أشرف من المقتول ، فيفضي ذلك إلى أولياء المقتول فيقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل ، وربما حالف هؤلاء قوماً واستعانوا بهم ، فيفضي إلى الفتن والعداوات العظيمة ، وسبب ذلك خروجهم عن سنن العدل الذي هو القصاص في القتل ، وهو المساواة والمعادلة

١ - نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال صحيفة المدينة ، خالد بن صالح الحميدي ، ٨٥ .

٢ - وبل الغمام على شفاء الأوام ، الامام الشوكاني ، (مخطوطة رقم ٣٠٣ ، بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء) ،

نقلاً عن البغي السياسي ، عبد الملك منصور ، ٨٩ .

في القتل، لأنه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين<sup>(١)</sup>. على كل حال هذه إشارات داعمة لحرمة الاعتداء على النفس الإنسانية بغير حق، ليس في العهد النبوي، أو العهد الراشدي فحسب، وإنما الأمر ينبغي تفعيله ومراعاته في كل الأمكنة والأزمنة، وقد شكلت بنود الوثيقة اللبنة الأساس في التوعية بحرمة هذا الجرم والعمل على تجاوز العقليات الجاهلية التي توجب التفكير بهذا المنطق العدائي الذي يروم إشعال نزعة الفتنة بين مختلف الأنساق العقدية والاجتماعية في مجتمعاتنا المعاصرة. كما أنها جعلت الأساس في بنودها تحقيق الأمن والسلامة للجميع والتعاون بدل التناكر في مختلف مجالات الحياة، ولضمان ذلك فرضت حرمة النفس والعرض والمال بين أفراد المجتمع، فلا يتم الاعتداء عليها إلا بحق.

• ثالثاً: منع الغدر (مقصد جزئي وتبعي):

يقرر البند رقم ٣٦ بأنه «وَلَا يَنْحِزُّ عَلَى ثَأْرِ جُرْحٍ، وَإِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا هَذَا»<sup>(٢)</sup>، والفتك كما يقول ابن منظور: «رَكُوبٌ مَا هَمَّ بِهِ مِنْ أُمُورٍ، وَدَعَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَرَجُلٌ فَتَكَ: جَرِيءٌ، وَفَتَكَ بِالرَّجْلِ فَتَكَ: انْتَهَزَ مِنْهُ غُرَّةً فَقَتَلَهُ، أَوْ جَرَحَهُ. وَقِيلَ: «هُوَ الْقَتْلُ أَوْ الْجِرْحُ مُجَاهِرَةً»، والفتك أيضاً: «أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ غَائِرٌ غَافِلٌ حَتَّى يَشُدَّ عَلَيْهِ فَيَقْتَلُهُ، وَهُوَ الْاِغْتِيَالُ: أَيُّ أَنْ يَخْدَعُ الرَّجُلُ حَتَّى يُخْرِجَ بِهِ عَنْ مَوْضِعٍ يَخْفَى فِيهِ أَمْرُهُ ثُمَّ يَقْتَلُهُ»<sup>(٣)</sup>. وما يؤكد حرمة هذا الجرم الشنيع حديث النبي ﷺ، فعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ»<sup>(٤)</sup>.

- ١- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ١٢١.
- ٢- السيرة النبوية، بن هشام، ج ٢ / ٩٢.
- ٣- لسان العرب، ابن منظور، مادة فتك، ١٠٤٨ / ٢.
- ٤- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، حديث رقم: ١٧٣٦.

إن هذا البند يعد استمراراً للبندين رقم (١٣ و ٢١)، فيما يتعلق بالبغى والفساد والغدر والقتل والثأر الجامح لأنفه الأسباب، فهو يقرر أن حق الثأر مرتبط فقط بالقتل، أما ما عدا ذلك من جروح فعلاجه هين، لا يرقى إلى سفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل، لأن دماء البشر أعلى من أن تُهدر ظلماً، نتيجة إرادة ظالمة وقوى متغترسة، فالقضاء وحده هو الذي يقرر العقوبة المناسبة ضد الجاني<sup>(١)</sup>، بحيث لا تجري على الأقارب والعشيرة كما كان يفعل في المجتمع العربي قبل كتابة هذه الصحيفة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤). ومن ثمة فضمان هذه الصحيفة لحق الحياة - حفظ النفس، الذي يُعد من المقاصد الكلية والأصلية في الشريعة الإسلامية، كان بمثابة انتصار لمبدأ التكريم الإلهي للنفس الإنسانية وترسيخه، ومن ثمَّ فحضور هذا المنطق في سلوك النبي ﷺ وفعله يدعم كونه الرحمة العالمية المهداة لهذه البشرية كما وصفه رب العالمين.

**المطلب الثاني: مظاهر التعايش الديني وتجلياته من خلال بنود وثيقة المدينة:**

لقد كان همّ النبي ﷺ حين وصوله إلى المدينة أن يُشكّل وحدةً سياسيةً ونظاميةً قوامها الإخاء الإنساني بين سكانها، ونزع كل مظاهر الفرقة والتناحر التي كانت سائدة في المدينة، وذلك من خلال كتابة الصحيفة، كدستور ناظم للعلاقات الإنسانية بين المسلمين، وغيرهم، والتي نقلت المتساكنين من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمة الواحدة<sup>(٢)</sup>، وبذلك فالبند الأول من الصحيفة، قد نصّ على أن الإسلام جعل من سكان المدينة أمة واحدة، وأذاب كل الفوارق والتمييزات التي كانت سائدة قبله، في سياق وحدة مجتمعية شاملة، والتي ظهرت جلية وواضحة في البندين رقم (١)، يقول فيه النبي ﷺ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ

١ - وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، قائد الشعبي، ١٣٥.

٢ - وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، قائد الشعبي، ٣٦.

مُحَمَّدَ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>.

بهذا البند اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وأنسابهم إلى جماعة الإسلام، فالانتماء إلى الإسلام فوق الانتماء إلى القبيلة أو العائلة، وبهذا نقل رسول الله ﷺ العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة<sup>(٢)</sup>. وهو أول أساس كان لا بد منه لإقامة مجتمع إسلامي حضاري متماسك، من أهم سماته؛ ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين وغيرهم بأجل صورته وأشكاله، فهم جميعاً مسؤولون بعضهم عن بعضهم في شؤون دنياهم وآخرتهم<sup>(٣)</sup>. ولأجل ذلك، جاء التنصيص على هذه القيم والمعاني في البنود الآتية: (من ٣ إلى ١١)؛ حيث سنّت قوانين جديدة لم تألفها المجتمعات العربية من قبل، تحدد طبيعة العلاقة الجديدة التي ينبغي أن تحكم جميع الأطراف - المسلمين واليهود والوثنيين - القائمة على التآزر والتكافل.

إن ثمة عناصرَ مشتركةً بين أتباع الأديان السماوية التي أصبحت داخل الأمة الواحدة، والتي يمكن أن تُشكل أساساً راسخاً لقيام تعاونٍ مشتركٍ بين أتباع هذه الأديان، فهي تؤمن جميعها بإله واحد، وهذا الإيمان يتضمن سلوكاً مستقيماً ودعوة إلى السلام والمحبة بين الناس، وتحقيق مبدأ التسامح الديني المفضي إلى التعايش والتعاون بين الأفراد والقضاء على الطبقية والعنصرية، والانفتاح على مختلف الثقافات والأنماط العقديّة الأخرى، بغية إشاعة الخير والمعروف، والحفاظ على تآلق الحضارة، ونشر ثقافة الحوار ونبذ التعصب والصراع، واحترام كرامة

١- السيرة النبوية، ابن هشام، ٢ / ٩٠.

٢- دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية، محمد سعيد ياقوت، مقالة منشورة بموقع صيد الفوائد، [www.saaaid.net](http://www.saaaid.net)، تاريخ الدخول: ١١ / ٣ / ٢٠١٧م، ساعة الدخول: ٤٨:١٠.

٣- فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، ١٥٣.

الإنسان، والحرص على توفير الأمن والسلام، والحب والعطاء، والعيش الودّي المشترك بين المذاهب والأديان، والفلسفات والقيم الخلقية السامية، ونشدان الاستقرار، وزرع الثقة بين الناس<sup>(١)</sup>.

وحسبنا هاهنا أن نشير إلى بعض مظاهر هذا التعايش الديني وتجلياته التي سادت بلاد يثرب من خلال ما نصّت عليه الصحيفة، وهي كالآتي:

### • أولاً: المساواة على ضوء وحدة الأصل الإنساني:

إن من أهم المبادئ السامية التي أرستها الشريعة الخاتمة، مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، فكانت نظرتها إلى الإنسان بصفته بشراً فحسب، لا يميزه عن سائر أفراد جنسه أو طبقته التي ينتمي إليها ما لديه من ثروة أو سلطة، وإنما البشر يتفاضلون بشيء واحد هو تقوى الله عز وجل، فيقول الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)؛ فالناس جميعاً متساوون في القيمة الإنسانية المشتركة، على اعتبار أن الإنسانية معنى مشترك يتساوى سكان الأرض في حقيقته ونتيجته، كما يقول الشيخ محمد الغزالي<sup>(٢)</sup>، وأنهم ينتمون باعتبار وحدة الأصل الإنساني إلى أب واحد، وأم واحدة، آدم وحواء، فالانتساب لآدم وحواء وشيخة وقريبي ورحم يجعل من الناس جميعاً أسرة واحدة في شبكة واسعة من أبناء العمومة والخوولة<sup>(٣)</sup>، ومن هذا المنطلق ينبغي أن تُصاغ العلائق والشائج البشرية كما يقول الحق ﷻ ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ (الحجرات: ١٣)، على أساس من الرحمة والتعاون والتعايش.

١ - ثقافة التسامح بين الغرب والشرق، وهبة الزحيلي، مجلة التسامح، السنة ٦، العدد ٢٣، ٢٣١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م،

٢ - حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، ١٤.

٣ - في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، عبد العزيز التويجري، ٧ / ٢٧٤.



ولذلك فإن هذا الاختلاف الظاهر بين النوع البشري ينبغي أن يكون مدعاة للتعارف والتآلف لا الجفاء والتناكف. لأنه انطلاقاً من هذه المساواة المطلقة بين الناس، يتم إقرار حقيقة إنسانية، وهي أنه لا ينبغي التمييز بين النوع الإنساني مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ودياناتهم، فإنهم كما قال الخليفة الراشد الإمام علي بن أبي طالب، في عهده للأشتر النخعي عندما ولاه على مصر، أن الناس صنفان: «إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»<sup>(١)</sup>، فالناس جميعاً سواسية أمام الشريعة، والله عز وجل في عطائه المتواصل لإسعاد البشرية لا يحرم من هذا العطاء المادي لا كافراً ولا ملحدًا، ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠)، وهذا مدخل مهم كما يقول الأستاذ عبد الهادي بوطالب إلى حق المساواة الذي جاء به الإسلام وأغنى مضامينه<sup>(٢)</sup>.

وانطلاقاً من هذا المعطى الحضاري ينبغي على الجميع أن يدرك هذه الحقيقة الإنسانية، لعلها تزيل كل أسباب نزاع العنصرية والجنسية، بتقرير وحدة الإنسانية في طبيعتها، وفي أصلها وفي نشأتها، وبتقرير الغاية من تفرق الأجناس والقبائل، والنصُّ على أنها، التعارف والتآلف، لا التناحر والتدابير، وبذلك يقرر الإسلام أن العلاقة التي ينبغي أن تسود بين الناس جميعاً، هي علاقة الود والتراحم، وعلاقة التضامن والتعاون، وعلاقة الأمن والسلم والسلام، ومن ثمة فقد حدد الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ بين سكان المدينة، أسساً ومبادئ هامة في المساواة، فبعد أن منحهم حرية الاعتقاد، أقرَّ بينهم مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بقوله: «وَإِنَّهُ مِنْ تَبَعِنَا مَنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ

١ - نقلاً عن حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والإعلان العالمي، علي القاسمي، تقديم د. عبد الهادي بوطالب، مكتبة النجاح الجديدة - البيضاء، العدد ٢٢، ٢٠٠١م، ٦٠-٦١.

٢ - من قضايا الإسلام المعاصر، عبد الهادي أبو طالب، ٢ / ٢٥.

عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

إن الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، هو السبيل الوحيد لإلغاء كل الفوارق القسرية، التي قد تعوق التواصل والتفاعل الحضاري، كاللون والقوم والجنس والعرق، وإيقاف التمييز العنصري، ومنح الناس المساواة المتأناة من أصل الخلق، والتي تعد بحق أساس الحقوق جميعاً، ووسيلة لتحقيق الكرامة الإنسانية<sup>(٢)</sup>. وتكمن تجليات وتطبيقات مبدأ المساواة، من خلال «المساواة أمام القانون، والمساواة في ممارسة الحقوق السياسية للمواطنين، والمساواة أمام القضاء، ثم المساواة في تولي الوظائف العامة، والمساواة أمام التكاليف والأعباء العامة»<sup>(٣)</sup>، تلك هي إذن شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساء ورجالا، أفرادا وجماعات<sup>(٤)</sup>، فلاشك أن الوعي الحقيقي بالمبدأ الإنساني عن طريق التربية والتثقيف من شأنه أن يحل الإنسان على أن يُعامل إخوانه من البشر على أساس من التسامح الحقيقي واحترام حقوقه الإنسانية<sup>(٥)</sup>. فعندما تستوعب الإنسانية هذه القيمة الخلقية وتعملها في علاقاتها الإنسانية، ستُعْمَمُ - ولاشك - السعادة والطمأنينة في الاجتماع الإنساني، ويسود الود والتعايش بين بني البشر جميعاً.

#### • ثانياً: إقامة العدل بين أفراد المجتمع المدني:

يعد العدل أساس الملك؛ إذ به دوام العمران والمدنيّة والحضارة، فهو اسم جامع للوسطية والتسوية، وهو كما قال الطاهر بن عاشور «التسوية بين طرفين

١- السيرة النبوية، ابن هشام، ٢ / ٩١.

٢- ينظر: مقدمة عبيد حسنة «حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي»، يسري محمد أرشد، ٥ بتصرف.

٣- الحريات العامة وحقوق الإنسان بين النص والواقع، عيسى بيرم، ١٧٩.

٤- فقه السيرة، رمضان محمد سعيد البوطي، ١٦٤.

٥- الإسلام وقضايا الحوار، محمود حمدي زفزوق، ١٦٤.

أو أكثر، بالتزام الموقع الوسط بينها في المعاني والمحسوسات على سواء، وهو إيصال الحق إلى أهله، وهو دفع المعتدي على حقوق غيره لأخذها منه وردّها على أصحابها»<sup>(١)</sup>، فهو يعد بحق من المقومات الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة الإسلامية، لأن إشاعة العدل ومدافعة الظلم والفساد والعدوان، يعد من أرقى وأنبل القيم القرآنية التي تسهم في التأسيس والتأصيل للمشارك للإنساني، والتركيز على القواسم المشتركة بين البشر، والتحول من هدر الطاقات والجهود في الحروب والنزاعات إلى تأسيس وتأصيل ثقافة التعايش والتفاهم والتعاون والحوار، فمن ضرور القسط أن يسود التعايش بين الأمم والشعوب، بالمعنى الراقي للتعايش الذي يقوم على أساس العدل في المعاملة، والمساواة في العلاقة، ومن ثمّ فالعدل قمة الأخلاق، وتاج الفضائل، ورأس القيم العليا في معاملة الآخرين<sup>(٢)</sup>.

وقد كان للمسلمين في عهودهم المتلاحقة أمثلة فذة ورائعة في معاملة الشعوب المفتوحة بلادهم أو غيرها، وبهذا المعنى فهم المسلمون القسط في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٤). حيث عملوا على تفعيله في علاقاتهم مع من لا يؤمن بدين الإسلام ومبادئه، ولذلك فهذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ وصحابته الكرام مع يهود المدينة، وكيف أنها رسخت مبدأ العدل بين سكان المدينة - المسلمين واليهود، على أساس المساواة والوحدة الإنسانية.

وتبعاً لذلك، فإن مسوغات النبي ﷺ في ترسيخ هذه القيمة الخلقية المفقودة بين مجتمع يثرب - المدينة، تكمن في غياب هذه القيم في المجتمع الجاهلي

١ - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩٤ / ٥.

٢ - ثقافة التسامح بين الغرب والشرق، وهبة الزحيلي، مجلة التسامح - السنة ٦، العدد ٢٣،

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ٢٨٢.

وحاجة الناس إليها، نظرًا لما كان سائدًا عندهم قبل الإسلام من التمايز والطبقية، فنجد طبقة الأحرار، وطبقة الموالي، بأصنافها- ولاء الجور، ولاء الحلف، وولاء العتق- وطبقة الأرقاء، وبهذا المنطق كانت تطبق العقوبات والديات، فكانت دية الشريف تختلف عن دية الوضيع، ودية الحر تختلف عن دية العبد. ومن هذا المنطلق كان حرص النبي ﷺ كبيراً في غرس منطق التساوي والعدل في النفوس في كل الأمور والمجالات، فنجد أنه ﷺ قد نصَّ في الوثيقة على أن: «المُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رُبْعَتِهِمْ يَتَعَاوَنُونَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَفِدُّونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>(١)</sup>. ومن هنا فقد ضمن النبي ﷺ للناس مبدأ المساواة وعدم التفضيل بينهم، إلا بـمـعيار التقوى كما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، فكان معيار التفاضل هو التقوى، وليس شيئاً آخر.

#### • ثالثاً: الحرية الدينية:

لعل من أبشع ما عرفته البشرية في تاريخها الطويل ظاهرة الاضطهاد الديني، وإكراه الناس على ترك معتقداتهم، فقد ذاق الناس الويلات من جراء التعصب الديني، وسُلِّطَ عليهم كل أشكال التعذيب الوحشي من أجل التخلي عما اعتقدوه صواباً واعتناق ما اعتقدوه باطلاً، ولعل ما عاشه المسلمون من الأذى والاضطهاد في بداية الدعوة الإسلامية من طرف المشركين مثلاً حياً يجسد منطق الإكراه والتعصب الديني، وإذا كان الإسلام قد انتقد أديان الذميين لخروجها عن كلمة التوحيد وانحرافها، فإنه لم يأمر المسلمين بإرغام أصحابها ومعتنقيها على تركها والدخول في الإسلام، ولذلك فلـكـل فرد حرية الاعتقاد، وحرية العبادة وفقاً لمعتقده، فالإسلام كما قال الإمام الغزالي، ما قام يوماً، ولن يقوم أبداً على إكراه، لأنه واثق من شيء واحد، من نفاسة تعاليمه، وجودة شرائعه (...)، فإذا

١- السيرة النبوية، ابن هشام، ٢ / ٩٠، وما بعدها.

لم تكن جودة الشيء هي التي تُغري بالإقبال عليه وقبوله، فلا كان قبول، ولا كان إقبال، وهذا سر قانونه الوثيق<sup>(١)</sup>، حيث يقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، لأن الإكراه لا يؤسس عقيدة ولا يُرْسَخُ مبدأ، ولا يُكوِّنُ قناعة، ولا يُنتج أثراً، لذلك كان الإكراه في الدين محرماً في الإسلام<sup>(٢)</sup>.

ومن ثمة فأول نموذج من نماذج التسامح الديني، كان ذلك الذي ضربه النبي ﷺ من خلال كتاب الموادة أو الصحيفة، الذي أبرمه مع اليهود بالمدينة ونص فيه على كفالة حرية المعتقد، لأن حق حرية الاعتقاد حق غالي وثمان، ظل المسلمون في مكة ثلاثة عشر عاماً يكافحون من أجله، ويتحملون المشاق في سبيله حتى استقر في النهاية<sup>(٣)</sup>، ومما جاء في الوثيقة من البند ٢٥ إلى البند ٣٥؛ «وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةً مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَهُودَ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَنْتُمْ فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ. وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي النَّجَّارِ وَبَنِي الْحَارِثِ وَبَنِي سَاعِدَةَ وَبَنِي جُشَمٍ وَبَنِي الْأَوْسِ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ وَجَفْنَةَ وَبَنِي الشُّطَيْبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ»<sup>(٤)</sup>.

هكذا وبناء على القاعدة الذهبية «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا» ظفر أهل الكتاب بحقوق عدة نجملها في: صيانة دماءهم، وأموالهم، وأعراضهم من الاعتداء عليها، وتساويهم مع المسلمين في وظائف الدولة وأعمالها، ما داموا أمناء على مصالحها، مؤدين لوظائفهم على الوجه الأكمل<sup>(٥)</sup>، ومن ثم فقد شكلت

١- هذا ديننا، محمد الغزالي، ٦٠

٢- حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسري محمد أرشد، ٦٣.

٣- وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، أحمد قائد الشعبي، ١٩٧.

٤- السيرة النبوية، ابن هشام، ٩٢ / ٢.

٥- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي، ١٢٥.

بنود الصحيفة اعترافاً حقيقياً لمبدأ حرية الاعتقاد، وهو تجل مهم من تجليات التعايش الديني، والتكافل الاجتماعي والتسامح الإنساني، الذي جعله الإسلام أساساً راسخاً لعلاقة المسلم مع غيره من المخالفين.

### المطلب الثالث: مظاهر الأمن القانوني في وثيقة المدينة:

يعد حفظ الأمن النفسي والاجتماعي مطلباً إنسانياً وضرورة حضارية ملحة تقتضيها حاجة المجتمع المدني التوافق إلى الاستقرار والطمأنينة خاصة بعدما افتقدوها لسنين خلت، كما يعد الأمن حقاً معتبراً من حقوق الإنسان التي أولته وثيقة المدينة اهتماماً كبيراً بصفته ركيزة من ركائز المجتمع المهمة التي لا تقوم بدونه تنمية ولا نهضة حضارية، فمنه يستمد استقراره وتقدمه. والأمن نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على البشرية، وقد تحدث الله عنها في غير ما موضع، مذكراً بفضلِهِ وإحسانه جلّ وعلا، ومبيناً لأثر هذه النعمة على الفرد والجماعة، يقول تعالى مخاطباً قريش: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١﴾ (١) إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ١-٤).

ومطلب الأمن والأمان من أهم القضايا التي شغلت بال النبي ﷺ عند وصوله يثرب موطنه الجديد، وزادت من همومه، ورغبتة في التفاعل مع هذه الحاجة الملحة في ضمان استقرار المجتمع المدني وتماسك بنياته. واعتباراً لهذا المقصد أولى النبي ﷺ عنايةً فائقةً بمسألة الأمن والاستقرار، حيث استبدل العلاقات القبلية السائدة في المدينة المبنية على البغي والثأر والغدر، بالعلاقات الإنسانية والقانونية التشريعية المبنية على الاعتراف والتعاون ورفع التمييز العنصري بينهم، وهي القيم التي كان يروم من خلال ﷺ ترسيخ معاني السلم والسلام والمحبة والأمان،

وقد بدا ذلك واضحًا حين نصَّ في وثيقة المدينة على قوانين صارمة وشاملة ينظم بها حال أهل المدينة جميعًا ويتعاملون بموجبها، حفاظًا على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم. ومظاهر الأمن القانوني التشريعي وتجلياته فيما نصّت عليه الوثيقة، في هذا السياق أكثر من أن تحصى، حسبنا هاهنا أن نشير إلى أهمها:

### • أولاً: ضمان الأمن والأمان لطوائف المجتمع:

انعكست بنود الوثيقة التشريعية بشكل ايجابي وملحوظ على الواقع السياسي والاجتماعي والحقوقى للمدينة، ففي وقت انعدم فيه الأمن والسلام في صفوف المواطنين القاطنين بها، ظهرت الوثيقة بتشريعاتها العامة والشاملة للمسلمين وغيرهم من اليهود والمشركين، مبشرة بعهد جديد، لم تألفه البشرية في تاريخها، يحفظ لها أمنها ويسترد حقوقها، فحل معها وبفضلها السلم الأهلي وأصبح الأمن في ظل قوانينها وتشريعاتها واقعا معاشا. حيث قدّم النبي ﷺ من خلال هذه الوثيقة ضمانات تشريعية وقوانين مهمة ليزرع قيم الأمن والأمان والسلام بين مخلف طوائف المجتمع المدني دون تمييز. ويمكن تفصيل ذلك من خلال المظاهر الآتية<sup>(١)</sup>:

#### ١- منع ايواء المجرمين:

تضمنت المادة رقم ٢٢: «وإنه لا يحلُّ لمؤمنٍ أقرَّ بما في هذه الصَّحيفةِ وآمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ أن ينصرَ محدثًا<sup>(٢)</sup> ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه

١- للتفصيل ينظر في: «حقوق الإنسان في وثيقة المدينة المنورة - دراسة مقارنة بالمواثيق الدولية»، سليمان صالح السلیمان، ٤-١٣٣، و«شمولية الأمن في الفكر النبوي - دراسة تحليلية في وثيقة المدينة»، د. عبد السلام أحمد محمد أبو سمحة، مجلة البحوث الأمنية، العدد ٥١، (ربيع الآخر ١٤٣٣هـ/ مارس ٢٠١٢م)، ٤٧-٤٨.

٢- والمحدث كل من أتى حدًا من حدود الله عز وجل، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه (الأموال، أبو عبيد القاسم سلام، ٢١٨).

لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ». أقر هذا البند بشكل صريح أنه ليس لأحد الحق في أن يمنع إقامة الحد على المنتهكين لحرمان الله أو نصرتهم، كما عدَّ إيواء المجرمين ذنباً عظيماً وجريمةً نكراء تُخرج صاحبها من الملة والدين، فلا يقبل الله أعمالهم سواء الفريضة منها أو النافلة، لأنه «جريمة قد تؤدي إلى اضطراب المجتمع واختلاله والطمع في النجاة من العقوبة»<sup>(١)</sup>. لذلك جاء الأمر بالتشديد في هذا البند من أجل حصانة المجتمع من الاضطراب وتهديد أمنه، وحتى لا يكون عرضة لانتهاك الأعراض وسلب الأموال وغيرها.

## ٢- رفع الحصانة عن المجرمين:

هذا عنصر مهم من العناصر المساهمة في استقرار المجتمع المدني والحفاظ على أمنه، بحيث لا يُقبل من أحد أن يقترف أي جرم أو اعتداء، وليس لأحد التمتع بالحصانة - مهما علا نسبه - إن اقترف جريمة تمس بأمن المجتمع أفراداً وجماعات، وقد رفع هذا المبدأ الحصانة عمن يخل بالأمن حين نصت الوثيقة في البند رقم (٤٧) على: «وَأِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ».

## ٣- فردية العقوبة الجنائية:

من المبادئ المهمة التي أكدتها الوثيقة النبوية لضمان بقاء صرح المجتمع الجديد في المدينة المنورة شامخاً، مبدأ شخصية العقوبة، وأنَّ العقوبة لا تنال إلا الجاني وحده، بعد أن كانت تتعدى لتشمل أهل الجاني وعشيرته، جاء في البنود أرقام: (٢٥) و(٣١) و(٣٦ ب) و(٣٧ ب) و(٤٦): أن العقوبة الجنائية تقتصر في آثارها على شخص المذنب المحكوم عليه، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن تمس هذه العقوبة شخصاً آخر غيره مهما كانت صلة قرابته من المحكوم عليه<sup>(٢)</sup>.

١- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، ٣٩.

٢- أصول علم الإجرام والجزاء، عبد المنعم سليمان، ١٣٥.



ورد في البندين رقم (٢٥) و(٣١): «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ (يهلك) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ». وجاء في البند رقم: (٣٦ ب) «إِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ». كما ورد في البند رقم (٣٧ ب): ما يعضد هذا التشريع؛ حين نص على «وَأِنَّهُ لَمْ يَأْتُمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفَةٍ»، أضف إلى ذلك ما جاء في البند رقم (٤٦): «أن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه».

لقد أكدت الفقرات آنفة الذكر أن العقوبة الجنائية تطبق على الجاني بعينه ومنحصرة بشخصه ولا تتعدى غيره، فمن عدل الإسلام ورحمته بالعباد أنه يحاسب كل فرد على ما اجترح، ولا يدع المجرم يمضي ناجياً إذا ألقى جرمه على سواه، وفي هذا السياق يقول الإمام المودودي: «فليس في القانون الإسلامي أن يترك المجرم ويقبض على البريء»<sup>(١)</sup>.

#### • ثانيًا: مسؤولية الدفاع الجماعي والمشارك:

وحدت الوثيقة بين أهل المدينة وجعلتهم جميعاً مواطنين مكلفين بالدفاع عن الوطن أمام أي اعتداء يفاجئهم من الخارج، فالبند أرقام: (٢٤، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٥ ب)، تنص صراحة على تحمل أهل الوثيقة مسؤولية الدفاع الجماعي عن المدينة وحماتها من أي اعتداء خارجي، وهذا يعكس مستوى التعاون المشترك في رد العدوان، والتناصر الجماعي داخل المدينة للدفاع عن حرمة المواطنين وحفظ أمنهم وأعراضهم وأموالهم. كما نصت هذه البنود على مبدأ المساواة بين جميع أهل المدينة في الدفاع عن حرمة وطنهم، ويمكن إجمال أوجه هذه المساواة ومظاهرها التي شملتها الوثيقة فيما يلي:

#### ١- المساواة في النفقات المالية:

أكدت الوثيقة في البندين رقم (٢٤ و٣٨) على: «وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ

١- الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، ٢٠٧.

المؤمنين ما داموا مُحَارِبِينَ»، أي أنه على كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمل جميع الأعباء المالية للحرب<sup>(١)</sup>. ومن ثمَّ ليزم وفق هذا البند أن ينفق اليهود من أموالهم على مقاتليهم كنفقة المؤمنين على مقاتليهم سواء بسواء. وقد جاء التأكيد على هذا المعنى أيضًا في الفقرة الأولى من البند رقم (٣٧) أنه «وإنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ»، فإلى جانب التعاون المالي بين جميع الفصائل في المدينة، يأتي هذا البند بتشريع نبوي جديد ينص على الاستقلالية المالية بأن يدفع كل طرف من المؤمنين واليهود قسط نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة التي تلزمه من توفير الأكل والشراب والعتاد للمحاربين.

٢- المساواة في العمليات الحربية الدفاعية عن حرم المدينة من أي عدوان خارجي:

نصت الوثيقة في الفقرة الثانية من البند رقم (٣٧): «إِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ». كما نص البندان رقم (٤٤ و ٤٥ب) على وجوب التناصر والدفاع المشترك بين أهل هذه الوثيقة على كل من دهم يثرب، كل من جانبه الذي قبله<sup>(٢)</sup>.

٣- المساواة في واجب منع إجارة العدو ومن نصره:

عملت الوثيقة على منع حق الجوار من جميع المتساكنين - المسلمين واليهود والوثنيين - في المجتمع المدني للعدو الخارجي ومن نصره، حيث نص البندان

١- دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية، محمد سعيد ياقوت، مقالة منشورة بموقع صيد الفوائد، [www.saaaid.net](http://www.saaaid.net)، تاريخ الدخول: ١١/٣/٢٠١٧م، ساعة الدخول: ٤٨:١٠.

٢- جاء في البند رقم ٤٤: «وأنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ»، البند رقم (٤٥ب) ينص: «على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».

رقم (٤١ و ٤٣) على منع الإجارة للعدو ولو كان ولد أحدهم.

• **الثالث: اتخاذ تدابير أمنية لمحاصرة قريش:**

أولت الوثيقة عنايتها الكبيرة بالجانب الأمني ضماناً لاستمرار المجتمع المدني واستقراره، وحفظه من أي هجوم محتمل من كفار قريش ومن معهم في المدينة؛ الذين استخدموا كل أشكال القمع والتنكيل لصد المسلمين عن دينهم وتخويفهم للعدول عن خياراتهم الدينية والعقدية التي آمنوا بها. وأمام هذا الوضع المؤلم، أعلنت وثيقة المدينة بشكل صريح أن قريشاً عدو للاتحاد المدني، وحرّمت على مشركي المدينة أي تعاون معها؛ حيث ينص البند رقم: (٢٠ب) «على أنه لا يجوز لمشرك من أهل يثرب أن يجير أيّاً كان من قريش.. وفي حالة الحرب ينبغي الامتناع عن مساعدتها بأي شكل من الأشكال، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن»، وتفعيلاً لهذا البند اتخذ النبي ﷺ جملة من التدابير والإجراءات الأمنية للحفاظ على استقرار المدينة؛ وتضييقاً للخناق على قريش؛ ومن هذه التدابير والإجراءات<sup>(١)</sup>، نجد:

١- إلغاء عرف الجوار لقريش:

في ظل التهديدات المتزايدة للمدينة من قبل مشركي مكة أعلنت الوثيقة لكل سكان المدينة أنه لا جوار لقريش، حيث قدّر النبي ﷺ في هذه الظرفية الحرجة التي يعيشها المجتمع المدني مع خصومه، بضرورة إلغاء عرف الإجارة معهم، بموجب البند رقم (٤٣) الذي ينص على «وإنّه لا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا»، فلو أبقى النبي ﷺ المدينة على الجوار مع قريش لجلبت على المسلمين الهلاك والبلاء، لأنه لو اشتدت قريش في إيذائها وعدائها للمسلمين، ثم استجارت برجل من أهل

١- للتفصيل في هذه التدابير يرجى النظر في «وثيقة المدينة - المضمون والدلالة»، لأحمد قائد الشعبي،

المدينة، لما استطاع المسلمون أن يتخلصوا منه ولا من عدوانه لهم. ومن ثمة فإن هذا التشريع النبوي الذي نصت عليه بنود الوثيقة كان يهدف إلى ضمان الأمن، وتقوية الجبهة الداخلية للمجتمع المدني، ودفع الأذى الذي قد يأتي من الخارج، ثم قطع الطريق على قريش كي لا تستفيد من المدينة أو من أحد سكانها، حيث منع على من سكن في المدينة أن يأوي نفساً أو ماله لقريش، كما جاء في البند رقم (٢٠ب): «أنه لا حرمة لإجارة نفس أو مال من مشرك مديني لمشرك قرشي».

## ٢- سد الثغرات ومنع الشبهات:

نصت الوثيقة في بندها رقم (٣٦) «أنه لا يخرج أحد من القاطنين بالمدينة إلا بإذن رسول الله»، وذلك لضبط حركة القاطنين بها ورصد اتصالاتهم وتتبع خطواتهم، ويستهدف هذا الإجراء بالدرجة الأولى منع سكان المدينة من القيام بأي نشاط عسكري قد يهدد أمن الدولة واستقرارها، من قبيل المشاركة في حروب القبائل خارج المدينة والتجسس ونقل الأخبار لأعداء الدولة، وهو إجراء احترازي اتخذته النبي ﷺ سداً للثغرات وتحسباً لأي انفلات أمني قد يجر البلاد والعباد إلى مهاوي الهلاك والاضطراب.

## ٣- ترسيم حدود المدينة والتأكيد على حرمتها:

رسم النبي ﷺ في الوثيقة حدود المدينة وأكد على حرمتها لكل من يسكنها - من مسلمين ويهود ووثنيين، حيث ورد في البند رقم (٣٩) «وَأَنَّ يَثْرَبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»، فقد أحل هذا البند الأمن داخل المدينة ومنع الحروب والقتال بين القبائل والعشائر، حيث وضع حداً للقلق والاضطراب، وما يجره من أمور، قد تعصف باستقرار المدينة. ولتجاوز هذه الوضعية استلزم ذلك تحديد حرم المدينة ورسم حدودها ببعض العلامات البارزة في أطرافها. وجعلها بلدًا آمنًا لا يحل فيها قتال وشجار، بل ينعم أهلها بالحياة الآمنة المطمئنة التي لا تكدرها

الجرائم ولا يعكر صفوها الحروب والتنازع والصراع .

خاتمة:

إن الإسلام في سعيه المتواصل والحديث من أجل خير الإنسان وسعادته في الدارين، يقف متسامحاً إلى أبعد الحدود من أتباع الديانات السماوية، ويؤدي استعداداه للتعاون معهم من أجل سلام العالم وأمنه، وهكذا يظهر إذن من خلال بنود هذه الوثيقة أن أهل الكتاب كانوا يعيشون حياة اجتماعية طبيعية، إذ تمتعوا بكل القيم الإنسانية التي شرعها الإسلام من عدل وتسامح وأمن وتعايش ديني. ومن ثمة فإن كل شعب ذي ديانات وطوائف عريقة متعددة محكوم عليه بالتعايش والتآخي المشترك إذا ما نشد الاستقرار والتقدم والنهوض، ولا خيار له سوى ذلك آجلاً أم عاجلاً، وليس له سوى تفعيل وتعظيم المشتركات بين ثقافات دياناته ومذاهبه المتعددة، والحوار العقلاني القائم على الاحترام المتبادل حول التباينات لتقريب وجهات النظر حولها أو صرف النظر عنها، والتعايش المديد مع هذه الفروقات، وتفهّم حق كل مذهب في ممارستها من دون النفخ فيه، وجعلها وسيلة لبث الفرقة والاحتراب<sup>(١)</sup>.

ومن هذا المنطلق، فقد حرص النبي ﷺ من خلال تجربته الفريدة أن يؤصل لقيم السلم والتعايش ويعززها بالفعل الميداني؛ فنجده ﷺ عمل على ضمان تنفيذها، وتفعيل بنودها، وذلك وعياً منه وإيماناً بحتمية التعايش المشترك بين معتقدات المدينة ودياناتها، في بناء مجتمع إنساني سليم، يسوده الأمن والسلم، والود والتسامح والإخاء الإنساني، على اعتبار تلکم الفطرة الكامنة في الإنسان والمجبول عليها في حب السلم والسلام ومناشدة الأمن والأمان، وهذا ما يؤكد أن

١ - الأوطان وحتمية التعايش الديني، السماك رضا، مقال منشور بموقع الجزيرة العربية على النت، الاثنین

٠٤ مايو ٢٠٠٩ م.

المسلمين كانوا رواد التعايش، وأنهم يملكون في كل الأحوال والأزمان، استعداداً ذاتياً ليتعايشوا مع كل من يرغب من أهل الأديان والشرائع والملل والعقائد في التعايش معهم، اعتقاداً منهم أنه تعايش يخدم أغراضاً إنسانية سامية، من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك في الميادين التي تحقق هذه المقاصد والغايات.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

## المراجع والمصادر

أولاً: القرآن الكريم برواية ورش.

ثانياً:

- أبحاث في مقاصد الشريعة - دراسة مقاصدية لبعض قضايا الاجتهاد والتجديد والمعاصرة والفكر والحضارة والثقافة والمنطق والأصول والفروع، الخادمي نور الدين مختار، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، عبد العزيز بن عثمان التويجري.
- الإسلام وقضايا الحوار، محمود حمدي زقزوق، ترجمة: د. مصطفى ماهر، مكتبة الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- أصول علم الإجرام والجزاء، عبد المنعم سليمان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، طبعة ١٩٩٩م.
- الأموال، أبو عبيد القاسم ابن سلام، دار القلم للطباعة، (د.ت).
- أهل الذمة في المجتمع الإسلامي بالمشرق من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة الأموية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، من إعداد الباحث: عبد العزيز الضعيفي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط، ١٩٩٣ / ١٩٩٤م.
- البغي السياسي، عبد الملك منصور، مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات - صنعاء، الطبعة الثانية - ٢٠٠٢م.
- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، طبعة ١٩٨٤ م.
- التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- الجامع الصحيح، الامام مسلم، مكتبة الصفا- القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م.
- الحريات العامة وحقوق الإنسان بين النص والواقع، عيسى بيرم، دار المنهل اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م.
- حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، نهضة مصر، الطبعة الرابعة غشت ٢٠٠٥ م.
- حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والإعلان العالمي، علي القاسمي، تقديم د. عبد الهادي بوطالب، مكتبة النجاح الجديدة - البيضاء، العدد ٢٢، ٢٠٠١ م.
- حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسري محمد أرشد، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، العدد ١١٤، السنة السادسة والعشرون، الطبعة الأولى رجب ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م.
- حقوق الإنسان في وثيقة المدينة المنورة - دراسة مقارنة بالمواثيق الدولية، سليمان صالح السلیمان، دار جامعة نايف للنشر، الرياض - ٢٠١٥ م
- حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، هاني سليمان الطعيمات، دار الشروق، رام الله، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
- الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، المختار الاسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).



- الحوار من أجل التعايش، عبد العزيز التويجري، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- الرحيق المختوم، المباركفوري صفي الرحمن، الطبعة الشرعية، دار الوفاء المنصورة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- رسالة إلى العقل العربي المسلم، حسّان حتحات، دار المعارف القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت).
- رسالة في التسامح، جون لوك، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٩٨٨م.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، الشركة الجزائرية اللبنانية - الجزائر، الطبعة الأولى - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية، بن هشام، قراءة وضبط وشرح د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- صحيح البخاري، الإمام البخاري، طبعة دار الشعب القاهرة (د.ت).
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٨٩م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، مراجعة وتعليق: ناصر الألباني، دار الدعوة الإسكندرية، مصر، الطبعة السادسة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام - القاهرة، الطبعة السادسة - ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، عبد العزيز التويجري، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الأيسيسكو، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- القصاص في الإسلام، الشرباصي أحمد، دار الكتاب العربي - مصر، طبعة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، أكرم ضياء العمري، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، العدد ٣٩، الجزء الأول، الطبعة الأولى- رمضان ١٤١٤هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ت).
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- من قضايا الإسلام المعاصر، عبد الهادي أبو طالب، دار الثقافة - البيضاء، الطبعة الأولى- ٢٠٠٤م.
- نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال صحيفة المدينة، خالد بن صالح الحميدي، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى- ١٩٩٤م.
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٠م.
- هذا ديننا، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة- مصر (د.ت).
- وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، القائد الشعبي، تقديم عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، العدد ١١٠، السنة الخامسة والعشرون.

#### المجلات:

- مجلة إسلامية اليوم، العدد التاسع عشر، السنة ١٩، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- مجلة البحوث الأمنية، دورية علمية محكمة تصدر عن مركز البحوث والدراسات بكلية الملك فهد الأمنية، العدد ٥١، (ربيع الآخر ١٤٣٣هـ/ مارس ٢٠١٢م).
- مجلة التسامح، السنة ٦، العدد ٢٣، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- مجلة حضارة الإسلام، العدد ٣، السنة ٤، ١٩٦٣م.
- مجلة الوعي الإسلامي، العدد رقم: ٥٢٤، أبريل ٢٠٠٩م.

- موقع الجزيرة العربية على النت .
- موقع صيد الفوائد، [www.saaaid.net](http://www.saaaid.net).
- موقع مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والإستراتيجية، المملكة المتحدة، لندن، [www.asharqalarbi.org.uk](http://www.asharqalarbi.org.uk).



# إفشاء السّلام وأثره في شيوع السّلم المدني

أ.د. ياسر أحمد الشمالي  
جامعة الكويت - الكويت





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من القيم العالية في الإسلام نشر السلام بين الناس، والسلام يعني الأمن والطمأنينة والسلامة من الأذى والشروع، وهو مقصد عظيم من مقاصد الإسلام، جاءت النصوص تبين هذا المقصد وتؤكد، وتجعله أولوية من الأولويات التي ينبغي أن نسعى إليها.

وقد كان تشريع إفشاء السلام بين أفراد البشر من وسائل الإسلام في شيوع السلم المدني، وتأكيد أهمية التعارف وانفتاح الناس بعضهم على بعض.

وجاء البحث في تمهيد وخمسة مطالب هي:

- المطلب الأول: السلام تحية الناس جميعًا.
- المطلب الثاني: إفشاء السلام وسيلة هامة لإشاعة السلم الداخلي (بين أفراد المجتمع المسلم).
- المطلب الثالث: إفشاء السلام وسيلة هامة لإشاعة الأمن بين المسلمين وغيرهم.
- المطلب الرابع: السلام من أسماء الجنة، وتحية أهل الجنة.
- المطلب الخامس: السلام هو موقف المؤمنين من تصرفات الجاهلين.

## تمهيد: التعارف بين الناس من مقاصد الإسلام

جعل الإسلام التعارف بين الناس هدفا ساميا؛ إذ شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الناس أما وشعوبا وقبائل، وبهذه الطريقة يَحْسُنُ أن يلتقي الناس ويتعارفوا، لهذا فإن تنوع الناس واختلافهم حكمة ربانية على أساسها تُعَمَّرُ الأرض ويبني الناس علاقاتهم. قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلنَّاسِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣.

والوسيلة الضرورية لتحقيق التعارف إنما هي السَّلام والأمن الذي يُعَدُّ بداية للتواصل والاحترام المتبادل.

وفي موضع آخر عبر المولى تبارك وتعالى عن السَّلام بنتائجه، وهو البر والإقسط، وبين أن ذلك هو الأصل في حالة عدم وجود اعتداء من قبل الآخرين؛ قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة: ٨.

فمن خلال السَّلام وما ينتج عنه من البر والإقسط تترسخ الثقة وتعرف كل أمة ما عند غيرها، وهنا يكون السَّلام والتواصل والبر سببا في التبادل الثقافي والتعاون السياسي والاقتصادي والعلمي وغير ذلك من أمور الحياة، خاصة في هذا الزمن الذي تقدمت فيه وسائل الاتصال بصورة هائلة سهلت اللقاء والتواصل.

فالسَّلام إنما هو لصالح البشرية، وصالح الأمن، وصالح التنمية، وصالح البحث العلمي، وصالح محاربة الفقر والجوع، ومحاربة الفساد بكل أنواعه، لأجل ذلك كان اهتمام الإسلام بالسَّلام؛ قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة: ٢٠٨.



وعبر أكثر المفسرين أن المراد بالسَّلم هنا: الإسلام، وفسرها قتادة بالموادعة<sup>(١)</sup>، وقال سفيان الثوري: «السَّلم هنا أنواع البر كلها»<sup>(٢)</sup> وقد نقل الرازي أوجه تفسير الآية ثم قال: وخامسها أن يكون السَّلم المذكور في الآية معناه الصلح وترك المحاربة والمنازعة.

ويؤيد تفسير قتادة أن قراءة ابن كثير ونافع والكسائي: بفتح السين<sup>(٣)</sup>، (ادخلوا في السَّلم كافة) كما في قوله تعالى: (وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها) مما يرشح أن المقصود الدعوة للسَّلم، وعلى تفسير الجمهور فإن التعبير بكلمة السَّلم عن الإسلام لها دلالتها في أن الإسلام هو دين السَّلم والأمن، وقد كان إفشاء السَّلم أحد وسائل الإسلام في إشاعة السَّلم وتحقيق التعارف والتواصل بين الأفراد والشعوب؛ لأن إفشاء السَّلم يعني: الاحترام والتقدير، والاعتراف بالآخر، وإعطاء الأمان، وإنهاء النزاع والخصام، وهو ما سيأتي توضيحه في المطالب الآتية بالأدلة الشرعية.

### المطلب الأول: السَّلم تحية الناس جميعاً

التدبر في نصوص الشريعة يدل على أن إفشاء السَّلم يُراد به عموم الناس، لا يخص به أحد، وأنه كان تحية الشعوب السابقة جميعاً؛ قال تعالى: ﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولٌ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَدِّهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ طه: ٤٧. فقوله: (والسَّلام على من اتبع الهدى..). تعني أن السَّلام هو تحية موسى وهارون عليهما السَّلام، مما يدل أنها تحية بني إسرائيل. وقال تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ مريم: ٤٧. وهذا خطاب من إبراهيم عليه السَّلام لأبيه، وقد كان مشركاً، فحياه بالسَّلام (سلام عليك)، مما يدل أنها

١- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١ / ٥٦٥.

٢- تفسير القرطبي، ٣ / ٢٢.

٣- تفسير الرازي، ٥ / ١٧٥.

تحية الناس جميعاً.

ويُستفاد ذلك من نصوص السنة الآتية:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ: طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَاكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ»<sup>(١)</sup>.

السَّلَام اسم الله تعالى، فقوله «السَّلَام عليك»؛ أي اسم السَّلَام عليك، ومعناه اسم الله عليك، أي أنت في حفظه، كما يقال الله معك والله يصحبك، وقيل: السَّلَام بمعنى السَّلَامة أي السَّلَامة ملازمة لك<sup>(٢)</sup>. وقوله: (تَحِيَّتِكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ) يدل على أَنَّ تحية الإسلام: (السَّلَام عليكم ورحمة الله..) هي تحية كل الأمم، وأنها مما شرع لكل الأنبياء أن يبلغوا لأهمهم كيف تكون التحية، فهي تحية كل المؤمنين في كل الشرائع.

ولا يخفى ما ينطوي عليه جعل هذه الكلمة (السَّلَام عليكم..) تحية بين الأفراد والجماعات بما لما توحى به من الأمن والطمأنينة التي يريدتها الله تعالى أن تعم على العباد.

قال ابن حجر: «وَاسْتُدلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ هِيَ الْمَشْرُوعَةُ لِابْتِدَاءِ السَّلَامِ لِقَوْلِهِ «فَهِيَ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ».

١- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السَّلَام، حديث رقم: ٥٨٧٣، ومسلم، كتاب صفة الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير، حديث رقم: ٢٨٤١.

٢- شرح النووي على صحيح مسلم، ١٤ / ١٤١.

- ومما جاء في السيرة:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل كتاباً إلى المقوقس، وأن المقوقس دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه... والسلام عليك) ولم يزد على هذا، ولم يسلم<sup>(١)</sup>. وموضع الشاهد أن عظيم القبط استعمل تحية السلام (سلام عليكم) في البدء والختام، ما يدل على شيوعها، وأنها لم تكن خاصةً بالمسلمين. ثبوت السلام في كلام المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:

والنصوص الآتية مأخوذة من إحدى طبعات الكتاب المقدس المعتمدة (الترجمة اليسوعية) وتتفق هذه النصوص - بعد المقارنة - مع بقية الطبعات، سواء العربية منها أم الأجنبية:

- جاء في العهد الجديد (انجيل يوحنا): (وفي مساء ذلك اليوم، يوم الأحد، كان التلاميذ في دار أغلقت أبوابها خوفاً من اليهود، فجاء يسوع ووقف بينهم وقال لهم: (السلام عليكم)<sup>(٢)</sup>.

- ومما جاء في العهد القديم: فقال له الرجل الشيخ: «السلام عليك، ومهما تحتاج إليه فهو علي، ولا تبت في الساحة»<sup>(٣)</sup>.

وكل ما تقدم يدل على شيوع تحية (السلام عليكم) في الأمم السابقة، مصداقاً للحديث الشريف: (فإنها تحيتك وتحية ذريتك)، وهي تحية تفيض بمعاني الأمن

١- انظر: زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ٣/ ٦٠٠، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله، سليمان بن موسى

الكلاعي الأندلسي، ٢/ ٣١٤، الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ص: ٣١٥

٢- الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، إصحاح ٢٠، عدد ١٩ (الترجمة اليسوعية).

٣- القضاة: الإصحاح ١٩ العدد ٢٠.

والسّلامة من الأذى، فأكرم بها من تحية يتداولها الناس، يتذكرون بها ما ينبغي لهم من التصالح والتآلف والطمأنينة.

المطلب الثاني: إفشاء السّلام وسيلة مهمة لإشاعة السّلم الداخلي (بين أفراد المجتمع المسلم)

إن المتدبر في النصوص التي تحض على السّلام وينظر في الآداب المنظمة له، ثم في آثاره على الفرد والأسرة والمجتمع المحيط، يرى مقدار الأمن والطمأنينة والاحترام المتبادل الذي يتركه إفشاء السّلام، ما يوفر أمناً في نفس الفرد وفي كل محيطه، ويُرسّخ أدباً راقياً وذوقاً عالياً داخل المجتمع المسلم، ينطلق منه أفراد هذا المجتمع لنقل صورة رائعة مشرقة مليئة بالسلوك المتمدن المتسامح المبادر للكلمة الطيبة والفعل الطيب، فيكون هذا التصرف الحضاري قدوة للمجتمعات الأخرى، ورائداً لكل مسلم؛ فيكون تعامله مع المجتمعات الأخرى مفعماً برسائل التطمين والمحبة والاحترام؛ إنه أمن داخلي وأمن خارجي باتباع آداب الإسلام التي جاءت لتحقيق مقاصد عظيمة، منها المقصد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

لهذا سيتضمن هذا المطلب عوامل تحقيق السّلم الداخلي في المجتمع المسلم من خلال الآداب المنظمة لإفشاء السّلام؛ وضمن هذه المسائل:

١- إفشاء السّلام من حق الطريق.

٢- إفشاء السّلام طريق للمحبة.

٣- إفشاء السّلام طريق لإنهاء الخصام.

٤- إفشاء السّلام على أهل البيت.

٥- إفشاء السلام على النساء.

٦- إفشاء السلام على الصبيان.

٧- الآداب المنظمة لإفشاء السلام.

١- إفشاء السلام من حق الطريق:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ. فَقَالُوا: مَا لَنَا بِدُّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ: فَإِذَا آبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ<sup>(١)</sup>).

أذن لهم في تلك المجالس مبينا لهم ما ينبغي لهم من آداب وحقوق تزيل المفسدة، ومنها ردّ السلام، ومن المعلوم أن المجالس يمر بها المسلم وغيره، ولم يخصّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يستثن أحدا من ردّ السلام، ما يدل على إرادة الشارع التعميم، لأنّ السلام تحية البشر، ولا يخفى ما في التوجيه النبوي في الحض على إفشاء السلام في الطريق من إضفاء أجواء الاحترام بين أفراد المجتمع، وأن لكل ما قيمته وأهميته، وما فيه من أهمية إشعار كل من يقصد الطريق إلى أنه آمن لا يريد له الآخرون إلا السلامة.

٢- إفشاء السلام طريق للمحبة وسبب لدخول الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوْلَا أُدَلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ

١- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب باب قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾، حديث رقم: ٦٢٢٩.

أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

قال النووي - رحمه الله -: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا) فهو على ظاهره وإطلاقه فلا يدخل الجنة إلا من مات مؤمناً، وإن لم يكن كامل الإيمان، وأما قوله (أفشوا السلام بينكم): فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف.. والسلام أول أسباب التألف ومفتاح استجلاب المودة»<sup>(٢)</sup>.

فالهدى النبوي الكريم واضح في تحقيق المحبة بين أفراد المسلمين، وأن إفشاء السلام من الطرق المؤدية لهذه المحبة، لما يمنحه إفشاء السلام من التقدير والاحترام المتبادل، ولما فيه من معاني اللطف والتطمين من كف الشر والأذى. وإذا كانت المحبة مطلوبة بين المؤمنين، فإن المطلوب مع أفراد المجتمع غير المسلمين إنما هو التقدير وإظهار اللطف، ويتحقق بإفشاء السلام المستفاد من عموم (أفشوا السلام بينكم).

### ٣- إفشاء السلام طريق لإنهاء الخصام:

المتدبر في الأحاديث النبوية يجد اهتماماً بالغاً بإشاعة روح التسامح والتصالح، والبعد عن الهجران والخصام، المعبر عنها بفساد ذات البين، وفساد ذات البين قد يكون بين الأخوين، وقد يكون بين الزوجين، وقد يكون بين الجيران، أو بين زملاء العمل، والمجتمع المسلم بحاجة لأن يكون كل هؤلاء في حالة من التسامح والعلاقة الطيبة، فيشيع بينهم التقدير والتعاون بدل التدابر والقطيعة، ومثل هذه الأجواء السلمية الطيبة تساعد على راحة النفوس والثقة المتبادلة، وبالتالي يتفرغ

١- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، حديث رقم: ٢٠٣

٢- شرح النووي على صحيح مسلم، ٢ / ٣٦.

كل واحد للعمل والإنتاج، بعيدا عن أجواء التشاحن المعطلة المثبطة:

فمما جاء في السنة من هذا التوجيه:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»<sup>(١)</sup>.

فهذه التوجيهات تهدف إلى تحقيق السلم بين أفراد المجتمع المسلم، وقد شملت ما يتعلق بالقلوب من النهي عن التباغض والحسد، وما يتعلق بالأجساد من النهي عن التدابر والهجران، ولما كان الهجران لا بد له أن ينتهي، كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم - الإرشاد إلى جعل إفشاء السلام علامة على إنهائه، وإعلان بداية عهد جديد من المسالمة والتسامح.

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»<sup>(٢)</sup>.

(وخيرهما الذي يبدأ بالسّلام)؛ إنه معيار الخيرية، ومقياس التفاضل بين أفراد المجتمع، فأفضلهم المبادر بالسّلام والتسامح والمصالحة؛ إنك لن تجد أروع من هذه التوجيهات، ثم لا ننسى ما جاء في صدر الحديث: (لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث..)، فالهدي النبوي يجعل الهجران فوق هذه المدة مُحَرَّمًا بمعنى أنه لا يليق أن يتسم به المؤمنون الأبرار، الذي طابوا في هذه الحياة فطابت

١ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يُنهى عن التحاسد، حديث رقم: ٦٠٦٥.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة، حديث رقم: ٦٠٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، حديث رقم: ٦٦٧٩.

أفعالهم، فلا يجدون غضاضة في التواضع لبعضهم وغفران الزلات والمبادرة للقاء والتصافي، ولو كان الآخر هو المخطيء (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).

والإسلام لا يريد إفشاءً للسلام خالياً من معناه، إنما يريد إفشاءً ليس معه إعراض أو إدبار أو تحاسد، كما يفهم من مجموع النصوص.

نقل ابن عبد البر عن أبي بكر الأثرم: «قلت لأحمد بن حنبل: إذا سلم عليه هل يجزيه ذلك من كلامه إياه؟ فقال: يُنظر في ذلك إلى ما كان عليه قبل أن يهجره، فإن كان قد علم منه مكالمته والإقبال عليه فلا يخرج من الهجرة إلا سلام ليس معه إعراض ولا إدبار. وقد روى هذا المعنى عن مالك؛ قيل لمالك: الرجل يهجر أخاه ثم يبدو له فيسلم عليه من غير أن يكلمه؟ فقال: إن لم يكن مؤذيا له لم يخرج من الشحناء حتى يكلمه ويسقط ما كان من هجرانه إياه»<sup>(١)</sup>.

#### ٤- إفشاء السلام على أهل البيت، وعلى الناس في بيوتهم:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ يذكر تعالى بأدب الدخول المتقدم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ لئلا يجعلوا القرابة والصدافة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد، ومعنى ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ فليسلم بعضكم على بعض، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا بُنَيَّ إِذَا

١- التمهيد، ابن عبد البر، ٦/ ١٢٨.

٢- تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٧١، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٨/ ٢٤٣.



دَخَلَتْ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ يَكُونُ بَرَكَتٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله قال: «إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً قَالَ: مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا يُوجِبُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِنِجَّتِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]»<sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي زِيَادٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ بَيْتَهُ فَلْيُسَلِّمْ»<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت كلمة «السَّلام عليكم» جامعة لمعاني التأنيس والأمان واللطف للدخول إلى البيت، وتحمل معاني الوفاء والسَّلامة من الشر، امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها من «عند الله مباركة طيبة»، وإنما كانت هذه التحية مباركة، لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة، وذلك يوفر خير الأخوة وخير الصلة. والطيبة: «ذات الطيب، وهو طيب مجازي بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس. ووجه طيب التحية أنها دعاء بالسَّلامة وإيدان بالمسالمة والمصافاة»<sup>(٤)</sup>.

## ٥- السَّلام على النساء:

عَنْ سَهْلِ، قَالَ: «كُنَّا نَفْرَحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. قُلْتُ وَلَمْ ؟ قَالَ: كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ تُرْسَلُ إِلَى بُضَاعَةَ قَالَ ابْنُ مَسْلَمَةَ نَخَلُ بِالْمَدِينَةِ فَتَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السُّلُقِ فَتَطْرَحُ فِي قَدْرٍ وَتَكْرُكُ حَبَّاتٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَإِذَا صَلَيْنَا الْجُمُعَةَ أَنْصَرَفْنَا وَنَسَلِّمُ عَلَيْهَا، فَتَقْدِمُهُ إِلَيْنَا فَنَفْرَحُ مِنْ أَجْلِهَا، وَمَا كُنَّا نَقِيلُ وَلَا نَتَغَدَّى إِلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ»<sup>(٥)</sup>. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ

١- أخرجه الترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته، حديث رقم: ٢٦٩٨، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ".

٢- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم: ١٠٩.

٣- الطبري، ١٧ / ٣٧٩.

٤- المرجع السابق، ١٨ / ٢٤٤.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تسليم الرجال على النساء، حديث رقم: ٦٢٤٨.

حجر: «والمراد بجوازه أن يكون عند أمن الفتنة»<sup>(١)</sup>.

وعن أسماء بنت يزيد: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمًا وَعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُوعِدٌ، فَأَلْوَى بِيَدِهِ بِالتَّسْلِيمِ»<sup>(٢)</sup>. «والمعنى أشار بيده بالتسليم، وهذا محمول على أنه صلى الله عليه وسلم جمع بين اللفظ والإشارة ويدل على هذا أن أبا داود روى هذا الحديث، وقال في روايته: «فَسَلَّمَ عَلَيْنَا»<sup>(٣)</sup>.

وعن أم عطية أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ جَمَعَ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ فِي بَيْتٍ فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِيكُنَّ. وَأَمَرْنَا بِالْعِيدَيْنِ أَنْ نُخْرِجَ فِيهِمَا الْحَيْضَ وَالْعُتُقَ وَلَا جُمُعَةَ عَلَيْنَا وَنَهَانَا عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ»<sup>(٤)</sup>. قال النووي: «إن كان النساء جمعا سلم عليهن»<sup>(٥)</sup>.

قلت: يتضح من رواية أبي داود مبادلة التحية بإفشاء السلام بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين جمع النساء، وأن ذلك كان مقدمة لما جاء به إليهن.

والتسليم على النساء عند أمن الفتنة له دلالة من معاني اللطف، والاحترام وكف الأذى والتطمين، وفيه إشاعة معاني السلم الاجتماعي، وبيان أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يغلب عليهم حسن الظن ودفع الريبة، وكل ذلك من عوامل استقرار المجتمع وأمنه وبعده عن مسببات الأذى والشر.

١- فتح الباري، ١٧ / ٤٧٨.

٢- أخرجه الترمذي، كتاب الاستئذان، باب التسليم على النساء، حديث رقم: ٢٦٧٩، قال الترمذي: " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ " .

٣- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في السلام على النساء، حديث رقم: ٥٢٠٦، وسكت عليه، وأخرجه ابن حبان، كتاب الجنائز، باب المريض وما يتعلق به، حديث رقم: ٣٠٤١. قلت: في إسناده إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية: قال الحافظ: مقبول (تقريب التهذيب ١ / ١٠٨).

٤- أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب خروج النساء في العيد، حديث رقم: ١١٤١.

٥- شرح النووي على صحيح مسلم، ١٤ / ١٤٩.

## ٦ - السّلام على الصبيان:

عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنه مرَّ على صبيانٍ فسَلَّم عليهم وقال: كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يفعلُه) (١). وأخرجه أبو داود من وجه آخر عن أنس: (أتى رسولُ اللهِ - صلى اللهُ عليه وسلم - على غلمانٍ يلعبون فسَلَّم عليهم) (٢). وأخرجه النسائي من وجه آخر عن أنس، ولفظه: (كان رسولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يزور الأنصار فيسَلِّم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم) (٣).

قال ابن بطال: «في السّلام على الصّبيان تدرّيبهم على آداب الشريعة، وفيه طرح الأكاكبر رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب» (٤).

وقال النووي: «فيه استحباب السّلام على الصبيان المميزين، والندب إلى التواضع، وبذل السّلام للناس كلهم، وبيان تواضعه صلى اللهُ عليه وسلم وكمال شفقتة على العالمين، واتفق العلماء على استحباب السّلام على الصبيان» (٥).

قلت: لا يخفى ما في السّلام على الصبيان من تعليمهم الأدب في التعامل، وإزالة ما في نفوسهم من هيبة الكبار؛ حيث يجعلهم يطمئنون، ويدفعهم ذلك لمخالطة الكبار والتعلم منهم، فالسّلام عليهم له أثر كبير في دمجهم وانسجامهم مع من حولهم، وبذلك ندرك أهمية السّلام في شيوع السّلم في داخل المجتمع بجميع أطيافه.

١ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب التسليم على الصبيان، حديث رقم: ٦٢٤٨.

٢ - أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب السّلام على الصبيان، حديث رقم: ٥٢٠٥.

٣ - سنن النسائي الكبرى، عمل اليوم والليلة، حديث رقم: ١٠١٦١.

٤ - فتح الباري، ابن حجر، ١٤ / ٤٧٦.

٥ - شرح النووي على صحيح مسلم، ١٤ / ١٤٩.

## ٧- الآداب المنظمة لإفشاء السلام:

يعلّمنا النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذوق الرفيع فيمن يبدأ بالتحية، ترسيخاً لأسس الاحترام والتعامل الراقي بين الأفراد؛ فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ)<sup>(١)</sup>. وفي رواية أخرى: (يُسَلِّمُ الرَّاَكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ)<sup>(٢)</sup>.

فهذه آداب منظمة لمن يستحق السلام ومن يبدأ به، تُرَسِّخُ للتوقير والتبجيل بين أفراد المجتمع، وتُشعر كل واحد بحقه، وأن له قيمة في المجتمع ما يساعد على شيوع الأمن الداخلي؛ فالصغير في السن يسلم على من هو أكبر منه سنًا ولو كان هناك فارق في العلم، ولو كان هناك فارق في الغنى والشرف، وكل هذا ينشر التواضع ولين الجانب، ويفرح الكبير بسلام الصغير، ويفرح القاعد بسلام الماشي. فمجتمع تسوده مثل هذه الآداب وهذا الذوق الرفيع جدير بكل خير ورفعة.

يقول الطيبي رحمه الله: «فالراكب يسلم على الماشي، وهو على القاعد للإيذان بالسلامة وإزالة الخوف، والقليل على الكثير للتواضع، والصغير على الكبير للتوقير والتعظيم»<sup>(٣)</sup>.

**المطلب الثالث: إفشاء السلام وسيلة هامة لشيوع الأمن بين المسلمين وغيرهم.**

إن منح الأمن والطمأنينة لغير المسلمين، ممن يعيش بيننا أو ممن كان لا يعادينا ولا يحاربنا مقصدٌ عظيم من مقاصد الإسلام الذي جعل غاية رسالته الرحمة بالناس

١- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير، حديث رقم: ٦٢٣١.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير، حديث رقم: ٦٢٣٢.

٣- مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري، ٤٥٨ / ٨.

وتحقيق مصالحهم، وتحبيبهم للإسلام بكافة الوسائل، وإن منح الأمن والطمأنينة للغير مهما كان دينه خُلِقَ رفيعٌ وذوقٌ عالٍ، ويدل على الفهم الصحيح لسبيل المسلم في هذه الحياة، وهي الدعوة الى الله تعالى، ومعاملة الناس بالبر والرحمة؛ قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المتحنة: ٨. ولا يخفى أن منح الأمن والطمأنينة هو أحد معاني البر والإقساط المذكورة في الآية؛ فيجدر بنا بيان حكم الإسلام والمنهج الذي يريده منا الشارع الحكيم في التعامل مع غير المسلمين عند اللقاء والتعامل، تحقيقاً للأمن والطمأنينة التي ينبغي إشاعتها في نفوس الآخرين، مما له أكبر الأثر في إبعاد الخوف من قلوبهم، وإبعاد الريبة من نفوسهم تجاه الإسلام والمسلمين:

حكم رد السّلام والتسليم على غير المسلمين:

أولاً: حكم رد السّلام إذا ألقى التحية غير مسلم:

استنبط العلماء وجوب رد السّلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ النساء: ٨٦. قال الحليمي: «إنما كان الردُّ واجباً؛ لأنَّ السّلام معناه الأمان، فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه فإنه يتوهم منه الشرُّ، فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه»<sup>(١)</sup>.

قلت: وإذا كان السّلام معناه الأمان فالمطلوب منحه لكل أحد، مسلماً كان أو غير مسلم؛ حيث إن الآية الكريمة أطلقت القول فيمن يلقي التحية، فقوله: (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ...) واضح في عمومته، فكل من يلقي عليك التحية، فواجب ردها بأحسن منها أو مثلها.

١ - فتح الباري، ابن حجر، ١٧ / ١٤٤

## حديث ردّ السلام على أهل الكتاب

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ)<sup>(١)</sup>. فهذا الحديث في ظاهره يفيد العموم، لكن بالنظر في طرق الحديث الأخرى، وجدنا بعض الصحابة الكرام قد ذكر سبب الحديث، وهو ما أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمُ السَّامُ عَلَيْكَ فَقُلْ وَعَلَيْكَ)<sup>(٢)</sup>. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكَ» فَفَهَّمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ)<sup>(٣)</sup>.

فنلاحظ أن حديث أنس يخلو من ذكر السبب فجاء عاماً، لكن حديثي عائشة وابن عمر تضمننا ذكر السبب، مما يفهم منه أن المراد بقوله (فقولوا وعليكم) هو يهود ذلك الزمان، لما ظهر منهم من جفاء القول والعداوة وسوء التحية، ولا ينسحب ذلك على غيرهم ممن لم يبدر منهم ذلك، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ النساء: ٨٦.

ثانياً: حكم التسليم على غير المسلمين:

### ١ - مشروعية ذلك من القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْهِ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ مريم: ٤٧. هذا

١ - أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة، حديث رقم: ٦٢٥٦.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة، حديث رقم: ٦٢٥٧.

٣ - أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة، حديث رقم: ٦٢٥٦.

السّلام من إبراهيم عليه السّلام لأبيه آزر وهو مشرك. وقد نقل الرازي والقرطبي والألوسي، وغيرهم أن بعض أهل العلم احتج بالآية السابقة على مشروعية قول «السّلام عليكم» لغير المسلم<sup>(١)</sup>.

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ﴾ القصص: ٥٥. هذه الكريمة تتحدث عن قوم من أهل الكتاب آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة المكرمة، فأساء إليهم كفار قريش ببذيء القول، فكان ردهم: (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) فقابلوا إساءتهم بإحسان وبطيب القول: سلام عليكم<sup>(٢)</sup>؛ فهو سلام من قوم مؤمنين على قوم مشركين.

- وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف: ٨٩. وقال الرازي: «احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السّلام على الكافر»<sup>(٣)</sup>. عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالسَّلَامِ؟ فَقَالَ: تَرُدُّ عَلَيْهِمْ وَلَا تَبْتَدِئُهُمْ، فَقُلْتُ: فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَا أَرَى بَأْسًا أَنْ تَبْدَأَهُمْ، قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

- وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُوكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المتحنة: ٨. فقوله (أن تبرؤهم): تشمل كل أنواع البر، من حسن المعاملة والإكرام، من الهدية والزيارة والتعزية عند الموت أو التهئة عند الفرح، وتشمل البر القولي، بالكلمة الطيبة وإلقاء

١- تفسير الرازي، ٢٧ / ٢٠١، تفسير القرطبي، ج ١١ / ١١١، روح المعاني، الألوسي، ج ١٦ / ٩٩.

٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٣ / ٤٧٨.

٣- تفسير الرازي، ١ / ٧٠٠٤.

٤- روح المعاني: ٢٥ / ١١٠، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة، حديث رقم: ٢٥٧٥٠.

السّلام، فهي تشمل ذلك وغيره مما هو بر ومعروف يدل على حسن القول وطيب العِشرة. وقد نقل القرطبي: أنه قيل لابن عيينة: هل يجوز السّلام على الكافر؟ قال: نعم، قال الله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين .. الآية<sup>(١)</sup>).

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ البقرة: ٨٣. ما جاء في الآية الكريمة يدل على أن القول الحسن للناس كلهم هو من المواثيق التي أخذت على الأمم، ومعنى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل فيه إفشاء السّلام لأنه قول حسن، وهو دليل على أن إفشاء السّلام يشمل جميع أفراد المجتمع، المؤمن وغير المؤمن. قال ابن كثير: وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي<sup>(٢)</sup>. ونقل القرطبي عن طلحة بن عمر: «قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا»؛ فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي»<sup>(٣)</sup>.

## ٢- مشروعية ذلك من السنة:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ

١- تفسير القرطبي: ج ١١ / ١١١.

٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١ / ١١٧.

٣- تفسير القرطبي، ٢ / ١٦.



الإسلام خير؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»<sup>(١)</sup>.

٢- عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ: بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَنَصْرِ الضَّعِيفِ، وَعَوْنِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ...»<sup>(٢)</sup>. وما جاء في هذا الحديث هي توجهات وآداب عامة للمجتمع المسلم، لم يخص النبي صلى الله عليه وسلم بها أحدا.

٣- قال عبد الله بن سلام: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قَبْلَهُ فَكُنْتُ فِيمَنْ خَرَجَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: أَطْعَمُوا الطَّعَامَ وَأَفْشُوا السَّلَامَ وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»<sup>(٣)</sup>.

٤- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: «أَمَرَنَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُفْشِيَ السَّلَامَ»<sup>(٤)</sup>. وهذا تفسير من صحابي جليل لمعنى إفشاء السلام.

٥- وعن البراء بن عازب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَفْشُوا السَّلَامَ تَسَلَّمُوا»<sup>(٥)</sup>. وهذا الحديث واضح الدلالة بالربط بين إفشاء السلام وسلامة المجتمع.

١- أخرجه البخاري، كتاب الايمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، حديث رقم: ٢٨.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب إفشاء السلام، حديث رقم: ٦٢٣٥، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة، حديث رقم: ٥٥١٠.

٣- أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٤٢، حديث رقم: ٢٤٨٥، والحاكم، كتاب الهجرة، حديث رقم: ٤٢٨٣.

٤- أخرجه ابن ماجه، أبواب الأدب، باب إفشاء السلام، حديث رقم: ٣٦٩٣.

٥- أخرجه ابن حبان، كتاب البر والإحسان، ذِكْرُ إِثْبَاتِ السَّلَامَةِ فِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، حديث رقم: ٤٩١، قال الشيخ شعيب: إسناده قوي.

٣- مشروعية ذلك من الأثر، فيما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف<sup>(١)</sup>:

- عن ابن عباس: «أَنَّ كَتَبَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ».
- عن إبراهيم، قال: «إِذَا كَتَبْتَ إِلَى الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ فِي الْحَاجَةِ فَاِبْدَأْهُ بِالسَّلَامِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: اكْتُبِ: السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى».
- عن عون بن عبد الله، قال: «سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالسَّلَامِ؟ فَقَالَ: تَرُدُّ عَلَيْهِمْ وَلَا تَبْتَدِئُهُمْ، فَقُلْتُ: فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَا أَرَى بَأْسًا أَنْ تَبْتَدِئَهُمْ، قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾».
- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: «أَنَّ كَانَتْ لَا يَمُرُّ بِمُسْلِمٍ وَلَا يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ إِلَّا بَدَأَهُ بِالسَّلَامِ».
- عَنْ ابْنِ عَجَلَانَ: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَأَبَا الدَّرْدَاءِ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ كَانُوا يَبْدِئُونَ أَهْلَ الشَّرْكِ بِالسَّلَامِ».
- عن عبد الله: «إِنَّ مِنْ رَأْسِ التَّوَاضُعِ أَنْ تَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مَنْ لَقِيتَ».
- عن الشعبي، قال: «كَتَبَ أَبُو بُرْدَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ قُلْتَ لَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ بَدَأَنِي بِالسَّلَامِ».
- قلت: ولم يذكر المصنف، وهو ابن أبي شيبة، ما يخالف ذلك من عمل الصحابة أو التابعين.

٤- حديث (إذا لقيتم أهل الكتاب..):

عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَبْدِئُوا الْيَهُودَ

١- أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، باب أهل الذمة يبدؤون بالسَّلَامِ، حديث رقم:

٣٥٧٤٨ - ٣٥٧٥٤.

وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقَيْتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ». وفي رواية شعبة عن سهيل: (إِذَا لَقَيْتُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ..)، وفي رواية وكيع: (إِذَا لَقَيْتُمُ الْيَهُودَ)، وفي رواية جرير بن عبد الحميد: (إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ)، وكل هذه الروايات أخرجها مسلم في موضع واحد، عن سهيل، فبين رحمه الله اختلاف الرواة في لفظ الحديث، ومخرجه ومداره هو سهيل بن أبي صالح عن أبيه...<sup>(١)</sup>. وأخرجه أحمد والبيهقي عن سفيان الثوري عن سهيل: إِذَا لَقَيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ...<sup>(٢)</sup>. وهو في مصنف عبد الرزاق: أَخْبَرْنَا مَعْمَرَ وَالثَّوْرِيَّ، عَنْ سَهِيلِ بِهِ... (إِذَا لَقَيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ...)<sup>(٣)</sup>.

ونلاحظ اختلاف الرواة في لفظ الحديث، فجائز أن يكون من سهيل، وجائز أن يكون من الرواة عنه، وسُهَيْلٌ هَذَا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ: مَا أَصْلَحَ حَدِيثُهُ، وَوَثَّقَهُ ابْنُ عَدِي وَابْنُ سَعْدٍ، وَالنَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُمْ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ، وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَذَكَرَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ نَسِيٌّ وَسَاءَ حَفْظُهُ فِي آخِرِ عَمْرِهِ<sup>(٤)</sup>.

وأرى أن الراجح المحفوظ من ألفاظ الحديث هو (إِذَا لَقَيْتُمُ الْيَهُودَ)، لأنهم كانوا في المدينة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد سالمهم وعاهدهم في بداية الأمر، لكنهم نقضوا العهود وخانوا وغدروا حتى أجلاهم، فهم معادون محاربون، يتوجه لهم مثل هذا التوجيه النبوي.

ولم يذكر سبب الرواية في الحديث نفسه، لكن بالنظر في سياقه، وفي

١- صحيح مسلم، كتاب السلام، بَابُ النَّهْيِ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالسَّلَامِ، وَكَيْفَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ، حديث رقم: ٢١٦٧.

٢- أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ٩٧٢٦، شعب الإيمان للبيهقي، حديث رقم: ١٩١٩٥.

٣- مصنف عبد الرزاق، حديث رقم: ٩٣٨٧.

٤- ميزان الاعتدال، الذهبي، ٢/ ٢٢٤، تهذيب التهذيب، ابن حجر، ترجمة سهيل، رقم: ٤٦٣.

الصحابي الذي رواه وهو أبو هريرة وكان متأخر الإسلام؛ حيث أسلم بعد غزوة خيبر، وفي هذا الوقت كان اليهود قد تم إجلاؤهم من المدينة، وبقي منهم بقايا، فجاء التوجيه النبوي بكيفية التعامل معهم لما ظهر منهم من الغدر والعداوة، فمثل هؤلاء لا يستحقون أن نبدأهم بالسّلام؛ فالسّلام للمسلمين.

وذكر ابن القيم أن مناسبة الحديث كانت عند التوجه إلى بني قريظة، ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن عبد البر بسند صحيح إلى أبي عبد الرحمن الجهنبي قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى يَهُودَ، فَلَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ...)<sup>(١)</sup>.

قلت: وعلى هذا، فيحتمل أن أبا هريرة سمع الحديث من غيره، فهو مرسل صحابي، وهو حجة لأن الصحابة - عادة - لا يأخذون العلم إلا عن بعضهم.

قال ابن القيم: «وقد اختلف السلف والخلف في ذلك فقال أكثرهم: لا يُبدؤون بالسّلام، وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يُردُّ عليهم؛ روي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن محيريز، وهو وجه في مذهب الشافعي رحمه. وقالت طائفة: يجوز الابتداء لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه، أو خوف من أذاه أو لقربة بينهما، أو لسبب يقتضي ذلك، يروى ذلك عن إبراهيم النخعي وعلقمة، وقال الأوزاعي: «إن سلمت فقد سلّم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون»<sup>(٢)</sup>.

ويظهر أن من ذهب من الفقهاء إلى تحريم أو كراهية ابتداء أهل الذمة بالسّلام، استنادا لهذا الحديث، فقد جانب الصواب لعدم الالتفات إلى سياق

١ - أخرجه أحمد في المسند أحمد، حديث رقم: ١٨٠٤٥، وابن أبي شيبة المصنف، ٦/ ١٤٢، وابن عبد البر في التمهيد، ١٧/ ٩٣، قال الشيخ شعيب في تعليقه على المسند: "صحيح".

٢ - زاد المعاد، ابن القيم، ٢/ ٣٨٨.

الحديث لكون الحديث خاص بيهود المدينة الذين غدروا ونكثوا العهود وحاربوا المسلمين.

وبالنظر في ألفاظ الحديث واختلاف رواته، نجد أن رواية (إذا لقيتم اليهود)، أو (إذا لقيتموهم) هي الراجحة، خاصة أن النصارى لم يكن لهم وجود حينئذ في المدينة.

المطلب الرابع: السّلام من أسماء الجنة وهو تحية أهلها.

#### ١- السّلام من أسماء الجنة:

قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام: ١٢٧. وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يونس: ٢٥ ذكر الرازي أن سبب تسمية الجنة بدار السّلام ثلاثة وجوه:

- الأول: أن السّلام هو الله تعالى، والجنة داره.
- الثاني: السّلام جمع سلامة، ومعنى دار السّلام: الدار التي من دخلها سلم من الآفات.
- الثالث: أنه سميت الجنة بدار السّلام، لأنه تعالى يسلم على أهلها، قال تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ (يس: ٥٨)، والملائكة يسلمون عليهم أيضاً، قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلِّمْ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (سورة: الرعد).

## ٢- السّلام تحية أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ الأحزاب: ٤٤، وقال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ الزمر: ٧٣، وقال: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿١٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ الواقعة: ٢٥-٢٦، وقال: ﴿ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَاجِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس: ١٠.

المطلب الخامس: السّلام هو موقف المؤمنين من تصرفات الجاهلين:

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ الفرقان: ٦٣، وقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ ﴾ القصص: ٥٥. وقال ابن كثير: «هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي: بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كما قال: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر. وقال مجاهد: ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يعني: قالوا: سدادًا. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفًا من القول. وقال الحسن البصري: ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾، قال: «حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا. يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون. ثم ذكر أن ليلهم خير ليل»<sup>(١)</sup>.

١- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٦/ ١٢٢

## الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، فقد تبين من خلال المباحث السابقة حرص الاسلام على إشاعة السلم، وتشريع كل ما يؤدي إليه، وقد كان إفشاء السلام ورده وبيان آدابه، والحض على إفشائه لكل أفراد المجتمع من الأمور التي تتميز بها هذه الأمة التي أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وأجمل فيما يلي أهم النتائج التي تمخض عنها هذا البحث:

- ١- تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وقد ثبت أنها تحية ذرية آدم، وهذا يعني أنها تحية الناس جميعا.
- ٢- السلام اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يحمل معاني الأمن والطمأنينة ودفع الأذى والشروع.
- ٣- إفشاء السلام يدل على المحبة والتآلف بين الناس، وغيابه دليل على الشحنة والتباغض.
- ٤- رد السلام من حق الطريق، وهو يعني أن مسير الإنسان في طريق المسلمين يقتضي منه أداء هذا الحق، لإشاعة الطمأنينة والأمن بين الناس.
- ٥- إفشاء السلام ورده يؤجر عليه المرء المسلم، مما يدل أن تبادل التحية عبادة وقربة إلى الله تعالى، وهذا مما يرغب المسلم في إفشائه طلباً للثواب.
- ٦- بين النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - آداب إفشاء السلام، فيكون طرحه تطميناً من المشي على القاعد، واحتراماً من الصغير للكبير، وتواضعاً من القليل إلى الكثير.
- ٧- السلام تحية المؤمنين في الجنة، وكذا تحية الملائكة، فكما شاعت هذه التحية

بين المؤمنين في الدنيا جازاهم الله باستمرار هذه التحية في دار النعيم ودار  
السّلام.

٨- هناك فهم غير صحيح للحديث الوارد في صحيح مسلم (إذا لقيتم أهل  
الكتاب فلا تبدؤوهم بالسّلام..)، وذلك أن هذا الحديث ورد على سبب  
خاص، وهو يهود المدينة الذين نقضوا العهد وحاربوا المسلمين.



الشعور بالغَبْنِ ومنهجية الهدى النبوي في  
التعامل معه ، قسمة غنائم حنين أنموذجًا

د. محمد أبوبكر عبد الرحمن الرحمنو  
جامعة الطائف - المملكة العربية السعودية





## المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله ومن سار على نهجه  
واهتدى بهديه الى يوم الدين، وبعد،

فتتسبب بعض الأحداث وتصرفات المسئولين في شعور بعض الجماعات  
داخل التنظيمات بكافة أشكالها (دولة، مجتمع، جيش، مؤسسة، وزارة،...)،  
بالغبن، ومن ثم حصول تدايعيات يمكن أن تهدد السلم المدني، حيث يتحول  
الشعور بالغبن أحياناً إلى صراع وفتنة عظيمة، لا يعلم مدى انتشارها وتأثيرها  
إلا الله. وقد شهد العالم قديماً وحديثاً وما يزال يشهد فتناً عظيمة، وصراعات  
خطيرة، عصفت بوحدة شعوب فقسمتها، وبحضارة شعوب فدمرتها، أفقرت  
الأغنياء، وفرقت الأقرباء، وأوهنت الأقوياء، وفتت في عضد الأمم والمجتمعات  
بكافة أشكالها. إن الشعور بالغبن خطر يهدد السلم المدني، ويحتاج إلى منهجية  
حكيمه رشيدة لمعالجته من ناحية، ولتلافي أخطاره وتدايعياته التي قد تعصف  
بالسلم المدني من ناحية أخرى. وقد حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم  
حادثة هامة إبان توزيع غنائم حنين، حين أيد الله سبحانه رسوله والمؤمنين بنصره،  
على هوازن وغطفان ومن معهم، ومن على المؤمنين بغنائم عظيمة من السبي،  
والأبل، والغنم والنقد<sup>(١)</sup>. فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض زعماء  
العرب عطايا عظيمة من الخمس ولم يجعل للأنصار - وهم الذين آووا ونصروا

١ - زاد المعاد، لابن القيم محمد بن أبي بكر، ٣ / ٤٠٨؛ وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد  
بن يوسف الصالحى، ٥ / ٤١١.

في حال ضعف الدعوة - منها شيئاً<sup>(١)</sup>. فأصاب بعض الأنصار شعور بالغبن حيال ذلك، وأخذ هذا الشعور في التطور؛ مما أُنذر بحدوث شرخ في لحمة المجتمع الإسلامي. وقد تولى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه التعامل مع هذه الحالة بفاعلية تامة، مما مثل فرصة عظيمة لدراسة المنهجية المثلى لمعالجة حالات الشعور بالغبن، ومنعها من تهديد السلم المدني.

تتمثل مشكلة هذا البحث، إذاً، في محاولة استنباط منهجية النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع حالة الشعور بالغبن، التي قد تحدث عند بعض فئات المجتمعات، من خلال دراسة اجتماع الحظيرة الذي تم عَقَبَ قسمة غنائم غزوة حنين وتحليله، وذلك للاستفادة منه في تطبيقات معاصرة.

ويمكن التعبير عن مشكلة البحث من خلال السؤال التالي: هل يمكن استنباط منهجية متكاملة للتصدي للشعور بالغبن على مستوى الجماعات، ومعالجة آثاره السالبة على السلم المدني، من خلال دراسة اجتماع الحظيرة الذي حصل في سياق قسمة غنائم حنين، وتحليل الكيفية التي تعامل بها النبي صلى الله عليه وسلم معه؟.

ويتطلب الإجابة عن هذا السؤال الرئيس، الإجابة عن التساؤلات الفرعية التالية:

- ١- ما المقصود في هذه الدراسة بالشعور بالغبن؟
- ٢- ما هي قصة اجتماع الحظيرة الذي حدث بعد قسمة غنائم حنين، كما جاء في الآثار الثابتة؟

---

١- زاد المعاد، لابن القيم محمد بن أبي بكر، ٣/ ٤٠٨؛ وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحى، ٥/ ٤١١.

٣- ما هي أسباب الشعور بالغبن على مستوى الجماعات، وما هي آثاره المحتملة على السلم المدني؟

٤- ما هي المنهجية التي تعامل بها النبي صلى الله عليه وسلم مع الشعور بالغبن الذي نتج عن قسمة غنائم حنين قبل وخلال اجتماع الحظيرة؟

٥- كيف يمكن الاستفادة من منهجية الهدي النبوي في التعامل مع الشعور بالغبن؛ على مستوى الجماعات في المحافظة على السلم المدني اليوم؟

يحاول هذا البحث تحقيق الأهداف الآتية:

١- جمع قصة قسمة غنائم حنين وتحليلها، واجتماع الحظيرة الثابتة كما وردت في كتب السنة.

٢- دراسة أسباب ظاهرة الشعور بالغبن على مستوى الجماعات وآثارها على السلم المدني.

٣- استنباط منهجية الهدي النبوي في معالجة ظاهرة الشعور بالغبن على مستوى الجماعات وتلافي آثارها.

٤- إبراز ريادة السنة النبوية وتقدمها في مجال تحقيق السلم المدني، ومعالجة المشكلات التي تهدده وتعصف به في القديم والحديث.

تتمثل أهمية هذا البحث في كونه محاولة لدراسة ظاهرة مهمة تهدد السلم المدني، وتتسبب في الكثير من الفتن والنزاعات السياسية، والصراعات الاجتماعية إنها ظاهرة الشعور بالغبن؛ على مستوى الجماعات، وفي كونه يدرس هذه الظاهرة من خلال السنة النبوية، وباستخدام منهجية الحديث الموضوعي، والدراسات التي تمت حول هذا الموضوع، وبهذه الكيفية قليلة ونادرة. كذلك فإن

هذا البحث يتعمق في دراسة حالة عملية متفردة، اشتملت على جميع العناصر ذات العلاقة بالموضوع وأبعاده المختلفة وتحليلها، ومثلت معالجة عملية ناجحة لظاهرة خطيرة تهدد السّلم المدنيّ، وعليه فإنّ نتائج هذه الدراسة قد تكون ذات فائدة عملية عظيمة في معالجة ظاهرة الشعور بالغبن؛ على مستوى المجتمعات المختلفة، والمحافظة على استدامة السّلم المدنيّ من خلال تلافي تداعيات الشعور الجماعي بالغبن المهتدة له، ولذلك تعين المسؤولين المباشرين لقضايا السّلم المدنيّ في التخطيط، واتخاذ القرار، والتصدي لهذه الظاهرة بطريقة سليمة. وتعمل هذه الدراسة أيضاً على تعميم إطار الظاهرة لتشمل جميع أنواع الجماعات وأشكالها، والتنظيمات سواء كانت ذات طبيعة اجتماعية، أم اقتصادية، أم سياسية، أم عسكرية، وغيرها، للاستفادة من نتائجها وتوصياتها في إطار واسع.

استخدم في هذا البحث المنهج التاريخي لتتبع ظاهرة الشعور بالغبن في اجتماع الحظيرة عقب قسمة غنائم حنين ومنهجية النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل معها، كما استخدم فيه منهجية الدراسة الموضوعية للحديث النبوي، فقد تم فيه جمع الروايات الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تتضح من خلالها معالم قصة اجتماع الحظيرة وأبعادها وتفاصيلها، وتناول النصوص ذات العلاقة بالموضوع، ثم تحليلها جميعاً في إطار واحد. كما استخدمت الملاحظة والمقارنة والاستنتاج للإجابة عن تساؤلات البحث وتحقيق أهدافه. كذلك تم استخدام بعض المصطلحات الحديثة والمستحدثة، المناسبة لمواضعها؛ لإدماج المفاهيم والاستنتاجات المستقاة منها مع الواقع المعاصر، وتحقيق الفائدة العملية منها.

يتقيد هذا البحث بدراسة ظاهرة الشعور بالغبن، على مستوى الجماعات، والمنهجية التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل معه خلال اجتماع

الحظيرة عَقَبَ قسمة غنائم حنين. ولا يدخل في مقاصده، ولا موضوعاته دراسة الشعور بِالْغَبْنِ على المستوى الفردي، وإن كان يحتمل إمكانية الاستفادة منها في هذا الخصوص. من ناحية ثانية، يتقيد هذا البحث بالروايات الثابتة؛ ذات العلاقة بأحداث الحادثة محل الدراسة. وتتحدد مصادره بكتب السنة وشروحها، وكتب السيرة، والتفسير كمراجع أساسية له.

إن الدراسات السابقة التي تناولت بالتحليل قسمة غنائم حنين، واجتماع الحظيرة، لاستنباط منهجية لمعالجة الأزمة التي حدثت قليلة ونادرة، وتتضمن الدراسات التي اتيح للباحث الوصول إليها:

#### ١- دراسة د. راغب السرجاني<sup>(١)</sup>:

تناولت هذه الدراسة قصة توزيع غنائم حنين وموقف الأنصار منها، واستنبطت بعض عناصر منهج النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة الأزمة التي حصلت؛ منها: حل الأزمة بسرعة، وعدم التغافل عن النار تحت الرماد، وعدم التسويف، الحيلولة دون انتشار الأزمة، وحل الأزمة مع أهلها فقط، لقاء أصحاب الأزمة بصورة مباشرة دون وساطة، الصراحة، والوضوح وراء الفعل الذي أغضب أصحاب الأزمة، وما هو السبب الحقيقي وراء إحداث الأزمة، النظر بتوازن إلى الموقف، ولفت أنظار أصحاب الأزمة إلى ما حصلوه من إيجابيات، والاعتراف بقيمة أصحاب الأزمة، وفضل أصحاب الأزمة، ورفع معنوياتهم، وتهوين حجم الخسارة التي خسرها أصحاب الأزمة إن كانت هينة فعلاً، تحريك عواطف أصحاب الأزمة ومشاعرهم، إلى جوار إقناع عقولهم، والدعاء المخلص لهم أن يرحمهم الله عز وجل، ويثبت أقدامهم، والتذكير بالآخرة، وأن المرء في الدنيا لا يعدم أن يخسر شيئاً ليكسب الجنة.

١- راغب السرجاني، موقف الأنصار من توزيع غنائم حنين، (<http://islamstory.com>).

لوحظ على هذه الدراسة أنها لم تجمع النصوص ذات العلاقة، وتحللها في إطار الموضوع الكلي، بل كانت دراسة تحليلية عجلية، هي أشبه بالسرد التاريخي للأحداث تبعه استخلاص للدروس التي فيها. كذلك فإن هذه الدراسة لم تحدد أبعاد الأزمة، وإطارها. وبصورة عامة، فإن هذه الدراسة رغم تعرضها بالتحليل لقسمة غنائم حنين، واجتماع الحظيرة التي ترتب عليها، إلا أنها لم تتعمق في دراستها من ناحية تحليل الشعور بالغبن وأسبابه وتداعياته، كما لم تتعمق في تحليل المنهج النبوي في معالجة ظاهرة الشعور بالغبن. وبالتالي فهي تختلف عن هذه الدراسة في نواح؛ هي: أهداف الدراسة لاسيما الهدفين الأول والثالث والخامس، والمنهجية والتي تتسم في هذه الدراسة بالعمق، والنظرة المتأنية من خلال اتباع منهجية دراسة الحديث الموضوعي.

## ٢- دراسة طه بن حسين بافضل<sup>(١)</sup>:

تناولت هذه الدراسة قصة اجتماع الحظيرة الذي ترتب على قسمة غنائم حنين، وهدف الدارس إلى استخلاص ووقفات تربوية منها، وقد توصل إلى العديد من هذه الوقفات التربوية؛ منها: الكرم غير المحدود للقائد صلى الله عليه وسلم، المصلحة الشرعية ميزان العطاء والمنع، والمبادرة إلى حل المشكلات، والحلم مع القدرة، والصراحة والوضوح، والموعظة وليس الغلظة والفظاظة، والتذكير بالفضائل لأجل المتابعة، وعدم إشاعة الأخبار والمشاكل، والتعميم لا التعيين.

هذه الدراسة إذاً هدفت إلى استخلاص دروس تربوية، فهدفها يختلف عن هدف هذه الدراسة، ثم إنه اعترافاً ما اعترى سابقتها من ناحية عدم استخدام المنهجية العلمية المتعمقة المتأنية في دراسة الحديث الموضوعي.

١ - طه بن حسين بافضل، ووقفات تربوية مع حديث تقسيم الغنائم في حنين: (<http://rosetta-library.com>)



مما سبق، يظهر أن الدراسات السابقة التي تم التعرض لها آنفاً، تتفق مع هذه الدراسة في كون تصرف النبي صلى الله عليه وسلم خلال الحادثة يمثل منهجية واضحة لحل المشكلات والأزمات. إلا أن هذه الدراسة تتميز عن الدراسات السابقة في ناحية تناول الموضوع؛ حيث تركز على ظاهرة الشعور بالغبن وأثره على السلم المدني ومنهجية معالجته، وهي في الناحية الأخيرة هذه تقترب من الدراسة الأولى، إلا أنها تختلف عنها في طريقة معالجتها؛ لكون هذه الدراسة تتبع منهجية علمية متعمقة ومتأنيّة في الدراسة هي منهجية دراسة الحديث الموضوعي. كذلك فإن هذه الدراسة تتخذ مدخلاً أوسع في ناحية تساؤلاتها وأهدافها، ولهذا فإنه يتوقع أن تختلف عنها في نتائجها واستنباطاتها.

إن هذه الدراسة تتميز عن سابقتها بأنها تهدف إلى التوصل لاستنباط منهجية عملية لمواجهة حالات الشعور بالغبن، على مستوى الجماعات تكون نبراساً يستضاء به في الحالات المشابهة، وذلك من خلال دراسة متعمقة لاجتماع الحظيرة، والذي نتج عن شعور فئة من الأنصار بالغبن نتيجة قسمة غنائم حنين، والتصرفات النبوية الشريفة خلاله.

## أهم مصطلحات البحث:

### ١ - الشعور بالغبن:

الغبن لغة من غبن؛ قال ابن فارس: الغين والباء والنون كلمة تدل على ضعف واهتضام، يقال غبن الرجل في بيعه، فهو يُغبن غبنًا، وذلك إذا اهتضم فيه، وغبن في رأيه وذلك إذا ضعف رأيه<sup>(١)</sup>. وغبنه في البيع غبنًا إذا نقصه عما باع به مثله، وغبن الشيء إذا غيبه، ومنه المغابن وهي الأرفاغ<sup>(٢)</sup>. وقال ابن منظور:

١ - مقاييس اللغة لابن فارس، ٤ / ٣٢٩.

٢ - شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري، ٨ / ٤٩٠٢.

غبن: الغبن، بالتسكين، في البيع، والغبن، بالتحريك، في الرأي. وغبت رأيك أي نسيت وضيعته. غبن الشيء وغبن فيه غبنا وغبنا: نسيت وأغفله وجهله؛ أنشد ابن الأعرابي: (غبتم تتابع الأثنا ×× وحسن الجوار، وقرب النسب). والغبن: النسيان. غبت كذا من حقي عند فلان أي نسيت غلظت فيه. وغبن الرجل يغبنه غبنا: مر به وهو مائل فلم يره ولم يفتن له... والغبن في البيع والشراء: الوكس، غبنه يغبنه غبنا هذا الأكثر أي خدعه، وقد غبن فهو مغبون، وقد حكي بفتح الباء. وغبت في البيع غبنا إذا غفلت عنه، بيعا كان أو شراء. ابن شميل: يقال هذه الناقة ما شئت من ناقة ظهرا وكرما غير أنها مغبونة لا يعلم ذلك منها، وقد غبنوا خبرها وغبنوها أي لم يعلموا علمها<sup>(١)</sup>. وإذا نال بعض الناس شيئا دون غيرهم يقال: غبنوا الناس<sup>(٢)</sup>.

فالغبن إذا هو ضعف ونقص واهتضام في المعاملات والرأي غالباً. ويستخدم في الخدعة، والنسيان، والغلط، والغفلة، وعدم الانتباه. ويكون في البيع والشراء جميعاً، كما يستخدم للتعبير عن استئثار البعض بشيء دون غيرهم. والمقصود بالشعور بالغبن في هذا البحث: جملة مركبة من هذه المعاني؛ هي: شعور الاهتضام المتولد عند بعض الناس نتيجة نوال آخرين شيئاً دونهم.

## ٢- اجتماع الحظيرة:

الحظيرة من الحظر، وهو خلاف الإباحة. حظر الشيء يحظره حظراً: منعه. والحظيرة ما أحاط بالشيء وهي تكون من قصب وخشب. والحظار: الحظيرة تعمل للإبل والبهم عموماً من شجر وخشب لتقيها البرد والريح.<sup>(٣)</sup>

١- لسان العرب لابن منظور، ١٣ / ٣٠٩-٣١١.

٢- لسان العرب، لابن منظور، ١٣ / ٣٠٩.

٣- لسان العرب، لابن منظور، ٤ / ٢٠٢.

والحظيرة المقصودة في هذا البحث، هي المكان الذي ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم موعداً لاجتماعه مع الأنصار، لمناقشة ما سمعه عن وجدهم عليه جراء قسمة غنائم حنين، وقد وصفت في بعض الروايات بأنها قبة من آدم أي جلد.

### المبحث الأول: الروايات الثابتة الجامعة لقصة اجتماع الحظيرة

تم الاطلاع على أكثر الروايات الصحيحة والحسنة في شأن اجتماع الحظيرة. والروايات المثبتة في هذا المطلب هي الروايات التي تجمع أطراف الحادثة وتفصيلها، ولا تكاد تضيف إليها بقية الروايات شيئاً. وأجمعها رواية أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولها أطراف في الصحيحين وغيرهما.

المطلب الأول: رواية أحمد في المسند، عن أبي سعيد الخدري قال:

«لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيُّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَمَّا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عَظَمًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكْ فِي هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا أَمْرٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رَجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا (لَهُ) آتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَاتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَهُ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةً

وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً  
فَالَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا  
مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَاللَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ،  
قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلِصَدَقْتُمْ وَلِصَدَقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذِّبًا فَصَدَقْنَاكَ،  
وَمَخْذُولًا فَانصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَاسْتَيْنَاكَ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْ  
شَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةِ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ،  
أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ  
اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ،  
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْ  
حَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا  
الْحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسِيمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقُوا<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: الروايات المتفق عليها (البخاري ومسلم):

١- عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا  
أَفَاءَ، فَطَفِقَ يُعْطِي رَجُلًا مِنْ قُرَيْشِ الْمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ  
لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدْعُنَا، وَسَيُوفِنَا تَقَطُّرٍ مِنْ  
دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ  
إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمَ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ أَحَدًا غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا  
اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا كَانَ حَدِيثُ بَلْغَنِي  
عَنْكُمْ، قَالَ لَهُ فَقَهَاؤُهُمْ: أَمَا ذُوو أَرَائِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَا

١- أخرجه أحمد، المسند، حديث رقم: ١١٧٤٨. وحسنه شعيب الأرنؤوط.

ملاحظة: ما سيرد في هذا البحث من مقاطع حديثية راجعة إلى أحاديث هذا البحث.

أَنَسٌ مِّنَّا حَدِيثُهُ أَسْنَانُهُمْ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُعْطِي قَرِيْشًا، وَيَتْرُكُ الْأَنْصَارَ، وَسَيُوفِنَا تَقَطُّرٌ مِّنْ دِمَائِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أُعْطِي رَجُلًا حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ رِحَالَكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَاللَّهِ مَا تَتَّقِلُونَ بِهِ خَيْرٌ مَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثْرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحَوْضِ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمْ نَصْبِرْ<sup>(١)</sup>.

٢- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمٌ حُينٌ أَقْبَلْتُ هَوَازِنُ وَغَطْفَانَ وَغَيْرَهُمْ بِنِعْمَتِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَمَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَشْرَةَ آفٍ وَمِنَ الطَّلَقَاءِ، فَأَدْبَرُوا عَنْهُ حَتَّى بَقِيَ وَحْدَهُ، فَنَادَى يَوْمَئِذٍ نِدَاءً لَمْ يَخْلُطْ بَيْنَهُمَا، التَّفَتَ عَنْ يَمِينِهِ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ). قَالُوا لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَشِّرْ نَحْنُ مَعَكَ. ثُمَّ التَّفَتَ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ). قَالُوا لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَشِّرْ نَحْنُ مَعَكَ. وَهُوَ عَلَى بَعْلَةٍ بَيْضَاءَ، فَنَزَلَ فَقَالَ (أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)، فَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، فَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ غَنَائِمَ كَثِيرَةً، فَقَسَمَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالطَّلَقَاءِ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً فَنَحْنُ نَدْعِي، وَيُعْطَى الْغَنِيمَةَ غَيْرِنَا. فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ). فَسَكَتُوا فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْدُنْيَا، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَحْوِزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ). قَالُوا بَلَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا

١- متفق عليه، أخرجه البخاري (اللفظ له)، كتاب الخمس، باب ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفه قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، حديث رقم: (٢٩٧٨)،؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، حديث رقم: (١٠٥٩).

لَأَخَذْتُ شَعْبَ الْأَنْصَارِ). فَقَالَ هِشَامٌ: يَا أَبَا حَمْرَةَ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ ذَاكَ قَالَ  
وَأَيْنَ أَعِيبُ عَنْهُ. (١)

٣- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ جَمَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
- نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: (إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي  
أَرَدْتُ أَنْ أُجْبِرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ  
بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى بُيُوتِكُمْ). قَالُوا بَلَى. قَالَ: (لَوْ  
سَلَكَ النَّاسُ وَاذِيًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ وَاذِي الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَ  
الْأَنْصَارِ). (٢)

٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا فَتَحَ حُنَيْنًا قَسَمَ  
الْغَنَائِمَ فَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ فَبَلَغَهُ أَنَّ الْأَنْصَارَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَيَّبُوا مَا أَصَابَ  
النَّاسُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَخَطَبَهُمْ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ  
ثُمَّ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ  
اللَّهُ بِي وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ اللَّهُ بِي). وَيَقُولُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ. فَقَالَ: (أَلَا  
تُحِبُّونِي). فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ. فَقَالَ: (أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا كَذَا  
وَكَذَا وَكَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا). لِأَشْيَاءَ عَدَدَهَا زَعَمَ عَمْرُو أَنْ لَا يَحْفَظُهَا.  
فَقَالَ: (أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلُ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى  
رِحَالِكُمُ الْأَنْصَارِ شِعَارًا وَالنَّاسُ دَثَارٌ وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ  
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاذِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكَتِ وَاذِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ

١- أخرجه البخاري (اللفظ له، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف)، حديث رقم: (٤٠٨٢)؛ ومسلم،  
كتاب الجهاد والسير، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، حديث رقم:  
(١٠٥٩).

٢- متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (٤٠٧٩)؛ ومسلم،  
كتاب الجهاد والسير، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، حديث رقم:  
(١٠٥٩).

بَعْدِي أَثَرَةٌ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ<sup>(١)</sup>.

المطلب الثالث: روايات انفرد بها البخاري فيها زيادة تفاصيل:

١- عَنْ أَنَسٍ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَنَائِمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ. فَغَضِبَتِ الْأَنْصَارُ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -). قَالُوا بَلَى. قَالَ: (لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكَتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ)<sup>(٢)</sup>.

٢- عَنْ أَبِي التِيَّاحِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ قَالَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ - وَأَعْطَى قُرَيْشًا - وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ، إِنَّ سَيُوفَنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قُرَيْشٍ، وَغَنَائِمُنَا تَرُدُّ عَلَيْهِمْ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَدَعَا الْأَنْصَارَ قَالَ فَقَالَ: (مَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ). وَكَانُوا لَا يَكْذِبُونَ. فَقَالُوا هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ. قَالَ: (أَوَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالْغَنَائِمِ إِلَى بِيوتِهِمْ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى بِيوتِكُمْ. لَوْ سَلَكَتِ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكَتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ)<sup>(٣)</sup>.

٣- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا قَسَمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قِسْمَةَ حُنَيْنٍ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مَا أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ. فَاتَّيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيَّ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مَنْ

١- متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (٤٠٧٥)؛ وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إعطاء المؤلفات لقلوبهم على الإسلام، واللفظ له، حديث رقم: (١٠٦١).

٢- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (٤٠٧٧).

٣- أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الأنصار، حديث رقم: (٣٥٦٧).

هَذَا فَصَبْرٌ). (١)

٤- عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ دَعَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْأَنْصَارَ فَقَالَ: (هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ). قَالُوا: لَا، إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ). (٢)

المطلب الرابع: حديث عند النسائي مفصل ، وعند أبي داود مختصر:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذْ أَتَتْهُ وَفْدٌ هَوَازِنٌ فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ إِنَّا أَصْلُ وَعَشِيرَةٌ وَقَدْ نَزَلَ بِنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ فَاْمُنْ عَلَيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ. فَقَالَ: (اخْتَارُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِنْ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ). فَقَالُوا قَدْ خَيْرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا بَلْ نَخْتَارُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَهُوَ لَكُمْ فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ فِقُومُوا فَقُولُوا إِنَّا نَسْتَعِينُ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْمُسْلِمِينَ فِي نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا). فَلَمَّا صَلَّوْا الظُّهْرَ قَامُوا فَقَالُوا ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (فَمَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَهُوَ لَكُمْ). فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا. وَقَالَ عُمَيْيَةُ بْنُ حِصْنٍ أَمَّا أَنَا وَبَنُو فِرَازَةَ فَلَا. وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا. فَقَامَتِ بَنُو سُلَيْمٍ فَقَالُوا كَذَبْتَ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ رُدُّوا عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ فَمَنْ تَمَسَّكَ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ فَلَهُ سِتُّ فَرَايِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يُفِيئُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا). وَرَكِبَ رَاِحِلَتَهُ وَرَكِبَ النَّاسُ

١- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم: (٤٠٨٠).

٢- أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ابن أخت القوم ومولى القوم منهم، حديث رقم: (٣٣٢٧).



أَقْسَمَ عَلَيْنَا فَيَأْتَانَا فَأَجْثُوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لَكُمْ شَجَرًا تَهَامَةٌ نَعَمَّا قَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ لَمْ تَلْقَوْنِي بِخِيَلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَذُوبًا). ثُمَّ أَتَى بَعِيرًا فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَّةً بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ: (هَا إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفِيءِ شَيْءٌ وَلَا هَذِهِ إِلَّا خُمْسٌ وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ). فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بَكْبَةٌ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَذْتَ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْدَةَ بَعِيرٍ لِي. فَقَالَ: (أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلَبِ فَهُوَ لَكَ). فَقَالَ أُوْبَلَّغْتَ هَذِهِ فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا. فَبَنَدَهَا. وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَدُوا الْخِيَّاطَ وَالْمُخَيِّطَ فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثاني: أسباب الشعور بالغبن والعوامل التي تؤدي إلى تفاقمه

من الأهمية بمكان التعرف على أسباب حدوث ظاهرة الشعور بالغبن، والعوامل التي تؤدي إلى تفاقمه، لأنها تمثل المدخل في تحليل منهجية الهدي النبوي في التعامل معه. وقد لوحظ في اجتماع الخطيرة العديد من الأسباب التي تؤدي إلى الظاهرة، كما ظهرت العديد من العوامل التي تسهم في تعزيزها وتفاقمها.

#### المطلب الأول: أسباب الشعور بالغبن:

يمكن تلخيص العوامل التي تسببت في حدوث الشعور بالغبن جراء قسمة غنائم حنين في الآتي:

#### ١- تخصيص الموارد:

يتسبب تخصيص الموارد في حدوث الشعور بالغبن، عندما تخصص الموارد لفئة، وتحرم منها فئة أخرى، وهي ترى أنها أولى بهذه المخصصات من

١- رواه النسائي، كتاب الهبة، باب هبة المشاع، حديث رقم: (٣٦٨٨)، ورواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه، حديث رقم: (٢٧٥٥)، وقال الألباني: صحيح.

الفئة الأولى، وهذا يحدث بسبب التباس معيار التخصيص عليهم، أو غيابه عنهم، أو عدم اعترافهم به. والأنصار حين شعروا بالغبن كان ذلك للسبب الأول، فالمعيار الذي حسبه أصلاً في تخصيص العطايا كان البذل، والجهاد، والسابقة، ولهم في ذلك قصب السبق، فجاء التخصيص مخالفاً لتصورهم، حيث كان من أعطوا من آخر الناس إسلاماً، وأقلهم بذلاً، وأقربهم عهداً بمنأوة أهل الإسلام. يظهر هذا جلياً من قول بعض الأنصار: (إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا). وليس في مقالهم هذا نسبة الجور إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ما أعطاه كان من الخمس - كما سبق تقريره - إلا أنه لما أثر المؤلفة قلوبهم على الذين آووا ونصروا ظنوا أنه خلاف الأولى، لعدم اطلاعهم على علة الإعطاء<sup>(١)</sup>. ويعزز الشعور بالغبن بسبب تخصيص الموارد حب الناس الطبيعي للخير، والأنصار بشر يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس من الخير.

والموارد المالية لأي مجتمع - سواء كان دولة، أو كان مؤسسة عامة، أو خاصة أو جماعة - هي موارد محدودة، وأوجه التصرف الممكنة فيها متعددة، لذا يلزم أن يتم توزيعها بالشكل الذي يحقق الفاعلية الكلية المثلى<sup>(٢)</sup>، وهذا هو هدف تخصيص الموارد. ويحتاج تحقيق ذلك إلى وضع أولويات في تخصيصها وتوزيعها تحقيقاً للمصالح، مما يعني بناء سياسة واضحة من حيث كيفية التصرف في الأموال والثروة والعائدات المختلفة، فعدم وجود سياسة واضحة لتوزيع الموارد والثروات يؤدي إلى التخصيص غير السليم لها، والجور فيه، وحدوث الفوضى، ومتابعة الأهواء، ومحاباة الأقرباء، وبذلك يحصل شعور عظيم بالغبن لدى قطاعات عريضة من مكونات المجتمع؛ يدل على ذلك نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار بالصبر على الأثرة والحرمان من المال، والعطاء، والسلطة،

١ - الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، أحمد بن إسماعيل الكوراني، ١٢٧/٦.

2- Operational research By Examples. Colin Palmer and Alexander E. Innes. P. 142.

مع استحقاقها، وإيثار آخرين بها؛ قال صلى الله عليه وسلم: (إنكم سترون بعدي أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - على الحوض) أي: سترون بعدي استقلال الأمراء بالأموال، وحرمانكم منها<sup>(١)</sup>، ويفضل عليكم غيركم بغير حق<sup>(٢)</sup>، وهذا عين الجور في تخصيص الموارد. لكن هذا لم يكن واقع ما حصل في قسمة غنائم حنين، ذلك أن السياسة والنظام الذي ينظم كيفية توزيع الغنائم كان حاضرًا ماثلاً محكمًا، وقد تم تنفيذه تنفيذًا سليمًا، فتم إعطاء المجاهدين أنصبتهم من أربعة أخماس المغنم كما هو النظام، وبقي الخمس الذي هو لله ولرسوله يتصرف فيه كما يرى. وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصص الخمس لزعماء المؤلفة دون غيرهم، حتى تكون العطية ذات قدر وشأن، فثبتهم على الدين، ويضمن بها إسلام أتباعهم، ولو أعطى جميع من يظهر استحقاقه التحفيز والمكافأة لعطائه وبذله في المعركة لتبدد الخمس، ولم تؤد العطية - وستكون حينئذ تافهة القدر - غرضها من التأييد وتزيين الإسلام للمؤلفة، وبذلك تفوت مصلحة عظيمة هي أعظم من مصلحة مكافأة أهل السابقة. وعلى هذا فقد خصص النبي صلى الله عليه وسلم في حنين بالشكل الذي حقق أعظم فاعلية ممكنة، إذ إن هدف الدولة الإسلامية هو هداية الخلق ورعايتهم، فكان هذا التخصيص محققًا للفاعلية القصوى.

## ٢ - الشعور بالإقصاء أو التهميش:

ظهر من هذه الحادثة كذلك أن الشعور بالإقصاء والتهميش يمثل سببًا هامًا في حدوث الشعور بالغبن، الذي يهدد السلم المدني؛ فإن جانبًا من الأنصار أحسوا بأن دورهم في نصرته الإسلام، ومكانتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقها إلى الانحسار، وأن آخرين يتسببون في تقليل مكانتهم ودورهم؛ يظهر

١ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، ج ٥ / ٢٢٦.

٢ - تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم، ج ٢ / ٧٣٣.

هذا من قول بعضهم: (يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم)، قال بعض الشراح: حَمَلْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَةً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَهَمُوا مِنْ إِعْطَائِهِ قَرِيشًا أَنَّهُ يُؤَثِّرُهُمْ عَلَيْهِمْ<sup>(١)</sup>. وقولهم (إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا)، والقالة التي كثرت فيهم كان من ضمنها قول بعضهم (لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه). وقد سبق نقل كلام ابن حجر عن مغازي سليمان التيمي أن سبب حزن الأنصار في هذه الحادثة هو خوفهم من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الإقامة بمكة<sup>(٢)</sup>، ولعل هؤلاء لم يبلغهم ما بلغ غيرهم من الأنصار عند فتح مكة؛ ففي الحديث عن أبي هريرة؛ حين جاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيضت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي. فلما انقضى الوحي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الأنصار). قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: (قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته). قالوا: قد كان ذلك. قال: (كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم). فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله. فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم)<sup>(٣)</sup>. ولعل هذا يؤيده أن الذين وجدوا على رسول الله في توزيع الغنائم كانوا حياءً من الأنصار ولم يكونوا كلهم، ولعل الذين حدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح مكة

١- فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه، ج ٥ / ١٢١.

٢- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ج ٨ / ٥٠.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم: (١٧٨٠).

غير هؤلاء. كل هذه الشواهد تشير إلى أن توزيع الفيء على المؤلف قد يكون ألقى في نفوس بعض الأنصار شعورًا بالتهميش والتجاوز، وأن هناك علاقات جديدة تنشأ في المجتمع والدولة الإسلامية، تؤثر على مكانتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبًا، وتبعدهم عن دائرة الاهتمام. فالرسول صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم لكنه زاد آخرين زيادة كبيرة من الخمس، وهذا مثل عند بعض مَنْ حُرِّمَ مؤشراً إلى مزيد اهتمام بمن أعطي ومزيد تقدير، واضمحلال مكانته وتقديره هو، فغلطوا في معيار الإعطاء والحرمان.

والتاريخ قديمه وحديثه يشهد أن مشكلات تخصيص الموارد، والشعور بالإقصاء والتهميش داخل المجتمعات أديا إلى شعور فئات من المجتمعات بالغبن، اشتعلت بسببه فتن وثورات عظيمة، أريقت فيها الدماء، وتبددت خلالها القيم، وتحطمت جرائها ممالك ودول شذر مذر. فتفككت الإمبراطوريات العظيمة في الصين وأوروبا، وحدثت الثورة الفرنسية، وتبعثها ثورات أوروبا تخلصاً من نظام الإقطاع واستئثار الأمراء والنبلاء بالجاه والمال، وحدثت ثورة البرازيل، وثورة جنوب إفريقيا، وتفككت الدولة الإسلامية في خلافة العثمانيين في القرن التاسع عشر الميلادي، واستولت دويلات أوروبا الحديثة على ولاياتها آخر زمن خلافتها بغير جهد.

وفي التاريخ المعاصر ما يزال لهذين العاملين أثرهما في تهديد السلم المدني والعصف به، حيث ثارت مشكلة جنوب السودان حتى انفصل عن الشمال، وثارَت الفتنة فيه وفي سوريا وليبيا وغيرها وما زال أهلها يعانون الخوف والجوع والتشريد، وثارَت فتنة دارفور ولم تكد تخمد، كل ذلك بسبب مشكلات تخصيص الموارد وقسمتها، والشعور بالإقصاء والتهميش داخل الإطار الاجتماعي المشترك الذي هو الدولة.

## المطلب الثاني: العوامل التي تؤدي إلى تفاقم الشعور بالغبن:

لوحظ من خلال اجتماع الحظيرة أن العديد من العوامل يمكن أن تؤدي إلى حصول تداعيات تعزز من حالة الشعور بالغبن وتفاقمه، فتزيد من تهديده للسلم الاجتماعي؛ من أهمها:

### ١- كثرة القالة:

القالة: القول الفاشي في الناس خيراً كان أو شراً<sup>(١)</sup>. وفي اجتماع الحظيرة، تفاقمت الأزمة وانتشرت الموجدة جراء استفاضة الحديث وفشوه حولها، ففي حديث أبي سعيد: (وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه)، وفيه إشارة إلى أن هذا القول الأخير قد نجم عن كثرة القالة. وكثرة القالة في أحوال الشعور بالغبن ومواقفه تفتح الباب للجرأة في التقول، وإعلان الظنون، بل وربما استغلال المنافقين وأشباههم حالة الشعور بالغبن لشق الصف؛ فعن عبد الله قال: لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله فأثيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فتغير وجهه ثم قال (رحمة الله على موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر). ويدل هذا على أن القالة تسير تصاعدياً في الاحتجاج. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه للأنصار أن يصبروا على الأثرة متى ما وجدوها، ومن لازم الصبر، الكف عن النجوى والتشكي.

إن كثرة القالة بالنجوى والتشكي، والاستفاضة في الحديث حول الشعور بالغبن ينشره ويفاقمه، فتوغر صدور وتضيق نفوس، فتشتعل شرارة الفتنة،

١- معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد، ج ٣ / ١٨٧٣.

ويتصرف الدهماء بغير حكمة، فيهددوا السّلم، وينشروا الفتنة والفساد في التنظيم.

## ٢- تأخر معالجة الشعور بالغبن:

وتنتج عن أمرين: تأخر وصول خبر الغبن إلى المسؤولين، والتسويق في معالجته. وفي اجتماع الحظيرة تأخر وصول خبر الموجدة شيئاً يسيراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد أدى هذا التأخر اليسير إلى انتشار حالة الشعور بالغبن بين حي الأنصار، وكثرت القالة حتى قال بعضهم كلاماً شديداً، مما يدل على خطورة تأخر معرفة المسؤولين بأحوال الرعية، وأهمية سياسة الباب المفتوح، وضرورة بذل الأمان للشاكي. وفي هذه الحادثة استجاب النبي صلى الله عليه وسلم بسرعة كبيرة لأزمة الشعور بالغبن، وأسرع في معالجتها، فأمر سعداً من فوره أن يجمع له أهل الحي من الأنصار الذين وجدوا عليه، وسارع إلى الاجتماع معهم في نفس يومه ذاك، وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن التسويق في علاج مشكلات الشعور بالغبن له تبعات وتداعيات خطيرة، وأن إهمال معالجته في أول أمره يؤذن باستفحاله وتفاقمه.

## ٣- عدم الإحاطة بجميع جوانب المشكلة:

لا تكفي السرعة في المعالجة إذا لم تغط جميع الجوانب التي حصل بسببها الشعور بالغبن. وفي قسمة غنائم حنين يلاحظ أن الشعور بالغبن لم يقتصر سببه على مسألة تقسيم الثروة، والموارد المادية، بل إن جانباً آخر مهماً كان حاضراً، وهو الشعور بالإقصاء والتهميش. ويمثل هذا الجانب الجانب النفسي من المشكلة، والذي ظهر من التعبير عن شعور الأنصار بـ(الموجدة). ويلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استوعب جميع جوانب المشكلة التي أدت إلى شعور الأنصار بالغبن، فبرر لتصرفه في الموارد بما يزيل الشعور بالغبن المادي الناتج عن غموض

علة التصرف، وأبرز جوانب الفضل التي أناط عليها القوم شعورهم بالغبن في القسمة، وطمأن ببقاء المكائنة والفضل كما هو، بل وزاد عليه بتأكيد خصوصيتهم؛ فقال: (لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار)، وقال: (الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار) وعرضهم بالدعاء لهم بالرحمة إلى أبناء أبنائهم؛ فقال: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)، فأزال بذلك أسباب الشعور بالغبن المعنوية والنفسية. لقد أحاط النبي صلى الله عليه وسلم بالمشكلة من جميع جوانبها ولم يترك ثغرة تبقى للشعور بالغبن فيها أثر.

إن عدم الإحاطة بجميع الجوانب التي تؤدي للشعور بالغبن يؤدي إلى بقاء مسببات وآثار له دون معالجة، مما يندرج بمعاودة ظهوره مرة بعد مرة، لذلك فإنه ينبغي دراسة مسبباته من كافة الجوانب، ومعالجتها بصورة شاملة، لا تبقي له أثراً في نفوس الفئة المغبونة.

### المبحث الثالث: المنهجية النبوية في التعامل مع الشعور بالغبن خلال اجتماع الحظيرة

من خلال تحليل اجتماع الحظيرة، يمكن القول بأن المنهجية النبوية في معالجة الشعور بالغبن قامت على أربعة محاور؛ هي: احتواء الموقف، والحوار، والترضية، والتقويم.

#### المطلب الأول: محور احتواء الموقف:

ارتكزت المنهجية النبوية على احتواء الموقف كأحد المحاور الأساسية في معالجة الشعور بالغبن في اجتماع الحظيرة، وهناك العديد من الأبعاد التي تبرز هذا المحور الهام؛ وهي: مفهوم احتواء الموقف، وأهمية احتوائه وأدواره،



ومجالات احتوائه، وخصائص الاحتواء الفاعل له.

أولاً: مفهوم احتواء الموقف:

يعني الاحتواء لغة: الجمع والحصر في إطار محدد. فأصل الاحتواء من حوي؛ قال ابن فارس: الحاء والواو وما بعده معتل أصل واحد وهو الجمع، يقال حويت الشيء إذا جمعته<sup>(١)</sup>. وحوى الشيء شيئاً: إذا أحاط به من جميع جهاته<sup>(٢)</sup>. واحتوى على الشيء أي اشتمل عليه، واحتوى الشيء: جمعه<sup>(٣)</sup>. واحتوى الموقف: سيطر عليه<sup>(٤)</sup>. فالاحتواء كمحور من محاور المنهجية النبوية في التعامل مع الشعور بالغبن إذاً يعني: الإحاطة بالموقف من جميع جهاته وجمعه وحصره في إطار محدود، والسيطرة عليه لمنعه من الانفراط والشيوع.

ثانياً: مجالات احتواء الموقف:

يُعنى بمجالات احتواء الموقف: العناصر التي تحتاج إلى احتواء ومحاصرة؛ وهي في سياق هذه الحادثة: الانتشار الجغرافي، عدد المتأثرين، والعمق النفسي لحالة الشعور بالغبن.

١- الانتشار الجغرافي:

لقد بادر النبي صلى الله عليه وسلم لجمع المتأثرين بحالة الشعور بالغبن فور ورود الخبر إليه، وفي نفس موقع الحدث، قبل أن يرجع الناس من الغزوة ويتفرقوا بشعورهم وقيلهم إلى دورهم، وأشغالهم، وتجارتهم، فيصعب حينئذ جمعهم في صعيد واحد، ومعالجة قضيتهم في وقت واحد، وإنهاء حالة الشعور

١- مقياس اللغة لابن فارس، ٢/ ٩٠.

٢- شمس العلوم ودواء الكلم من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري، ٣/ ١٦٣٠.

٣- شمس العلوم ودواء الكلم من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري، ٣/ ١٦٣٦.

٤- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد، ١/ ٥٩١.

بالغبن ووأدها بصورة نهائية لصعوبة الجمع والحصر وذلك بسبب الانتشار الجغرافي، لذلك فإن احتواء الانتشار الجغرافي هو من المجالات الهامة في محور احتواء الموقف.

## ٢- عدد المتأثرين:

إن عدد المتأثرين يزداد بانتشار القالة، وتفرق المغبونين، واندماجهم وتفاعلهم مع غيرهم ممن لم يحضر الحادثة، حتى يصيبهم ما أصاب الآخرين من الغبن، وتشير موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على حضور ابن اخت القوم، وتقريره أنه منهم، إلى أن حالة الشعور بالغبن قابلة للانتشار في غير جمع المغبونين في من لهم صلة وشيعة بهم من أبناء الخؤولة والعمومة والحلفاء. وهذا يدل على أن احتواء عدد المتأثرين مهم في منهجية التعامل مع الشعور بالغبن.

## ٣- العمق النفسي للشعور بالغبن:

قد يتعمق الشعور بالغبن في النفس باستفحال القالة، وارتفاع الأصوات، واستغلال المنافقين والأعداء للحالة في شق الصف، وتعميق الموجدة والعتب، فتزيد الجرأة والحدة في القالة، وربما يصل الأمر ببعضهم إلى أذية الأبرياء، كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حين قال رجل من الأنصار<sup>(١)</sup>: ما أراد بها وجه الله، فأثيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: (رحمة الله على موسى لقد أوزي بأكثر من هذا فصبر). لذلك ينبغي الاهتمام باحتواء العمق النفسي للشعور بالغبن ومنعه من الاستفحال.

١- قال مصطفى ديب البغا في تعليقه على صحيح البخاري: قيل هو معتب بن قشير وهو من المنافقين. صحيح البخاري، ٣/ ١١٤٨.

ثالثاً: أهمية احتواء الموقف وأدواره:

لقد دلت تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم أثناء أحداث اجتماع الحظيرة على أن احتواء الموقف كان أحد المحاور الهامة في منهجيته للتعامل مع حالة الشعور بالغبن، حيث إنه صلى الله عليه وسلم قام بعدة إجراءات تدل على ذلك؛ منها: حصر مقدار الشعور بالغبن ومدى انتشاره بين حي الأنصار، فسأل سعداً حين حدثه بالأمر: (فأين أنت من ذلك يا سعد)، وسعد من زعماء الأنصار وقادتهم، ومن ذوي السابقة، بل من كبار الصحابة، فرأيه يشير إلى مدى استفحال الأمر، وإلى أي مستوى بلغ، وهذا مما يساعد على حصره واحتوائه. ومنها: السرعة والمبادرة إلى عقد الاجتماع مع الأنصار. ومنها: جمعه للمتأثرين جميعاً وعدم إشراك غيرهم في الاجتماع؛ ففي رواية البخاري ومسلم: (فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من آدم، ولم يدع معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم). ويدل جمعهم في مكان مخصوص محصور -الحظيرة أو القبة من آدم- على إرادة الاحتواء والأيّاشيع الأمر، أو يدخل فيه آخرون. ومراجعتة صلى الله عليه وسلم للتأكد من عدم وجود غيرهم معهم دليل كذلك على اهتمامه صلى الله عليه وسلم باحتواء الموقف في أضيق نطاق.

مما سبق يظهر وجود العديد من الأدوار التي يقوم بها محور احتواء الموقف في منهجية التعامل مع الشعور بالغبن؛ منها:

- ١- تحجيم الحالة ومنع انتشارها مكانياً وبشرياً.
- ٢- تهيئة الفرصة لمعالجة شاملة ونهائية للحالة (الفاعلية).
- ٣- التمكين من تقليل الوقت والجهد والموارد المبذولة في معالجة الحالة إلى أقصى حد (الكفاءة).

إن هذه الأدوار البارزة لاحتواء الموقف تعزز من إثبات أهميته في منهجية التعامل مع الشعور بالغبن.

رابعاً: خصائص الاحتواء الفاعل:

أبرزت المعالجة النبوية لشعور الأنصار بالغبن في اجتماع الحظيرة خصائص الاحتواء الفعال، والتي يمكن حصرها في الآتي:

#### ١- السرعة:

وهي مهمة لمنع الفشو والانتشار وتحجيم الحالة، تسهم في تقليل تكاليف المعالجة، وهي ظاهرة في المبادرة للدعوة للاجتماع، سرعة انعقاد الاجتماع، سرعة قيامه إلي الاجتماع فور التمام الجمع، وسرعة الدخول في موضوع الحوار ومباشرته.

#### ٢- الشمولية:

إن الشمولية في احتواء الموقف تعني الإحاطة بكافة عناصره، والعوامل المؤثرة فيه حصراً ومعالجة، وهي تحقق المعالجة الشاملة والنهائية للحالة، كما تسهم بشكل كبير في تحقيق كفاءة المعالجة، من خلال ضمان عدم تكرار الحادثة، ويظهر من خلال جمع روايات حديث الحادثة أن المعالجة غطت جميع المتأثرين (فجمعهم في قبة)، كما غطت جميع أنواع الغبن التي كانت ماثلة: المادية منها (فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس)، والمعنوية من موجدة تظهر من قول بعض الأنصار: (إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا)، وغيره<sup>(١)</sup> تظهر في قول بعضهم: (يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه و سلم يعطي قريشا ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم)، كذلك غطت ما قد يطرأ مستقبلاً من أثره

١- فيض الباري على صحيح البخاري، لمحمد أنور شاه، ج ٥ / ١٢١.

يحصل بسببها الشعور بالغبن، ويظهر ذلك من موعظة النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار في آخر الاجتماع (إنكم سترون بعدي أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - على الحوض).

### ٣- الضبط الإعلامي:

وذلك لضمان عدم التأثير السلبي للمعالجة على فئات أو قطاعات تنظيمية أخرى. وقد لوحظ في هذه الحادثة أن النبي صلى الله عليه وسلم حرص أشد الحرص على أن يكون مكان الاجتماع خاصاً ومحصوراً، وأنه ليس في الحضور أحد غير المتأثرين بحالة الغبن؛ ففي رواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال (هل فيكم أحد من غيركم). قالوا لا إلا ابن أخت لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ابن أخت القوم منهم). كذلك لوحظ أن الحوار الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار اتسم بشفافية شديدة، وأن التعليل لتصرفه صلى الله عليه وسلم تعلق به بيان حال آخرين لا يحسن أن يطلعوا على ما دار عنهم؛ فقد قال: (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم)، فإنهم لو علموا ربما تأثروا سلباً، ووجدوا هم كذلك. إن السيطرة على النواحي الإعلامية مهمة لضمان عدم التأثير السلبي للمعالجة على آخرين.

### المطلب الثاني: محور الحوار:

يمثل الحوار محوراً بارزاً وأساسياً من محاور المنهجية النبوية في التعامل مع الشعور بالغبن خلال اجتماع الحظيرة. وتتضح أهميته من خلال المخرجات التي خرج بها، والنتائج التي أدت إليها، حيث خرج الأنصار من الحظيرة بعد الحوار في حالة تامة من الرضا، وزوال كامل لحالة الشعور بالغبن التي كانت تسيطر عليهم قبله. وقد دلت تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله في حوار مع

الأنصار في اجتماع الحظيرة على ضرورة الإعداد والاستعداد للحوار، وعلى أن الحوار المنهجي الفاعل له مراحل تسوقه إلى غاياته المحمودة المطلوبة، كما دلت على وجود العديد من المبادئ التي تحقق فاعلية الحوار؛ فيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: الإعداد والاستعداد للحوار:

يظهر الإعداد للحوار من خلال الفعاليات التي تمت قبل مباشرته، حيث تم التجهيز للحوار مكاناً وزماناً وحضوراً؛ قال صلى الله عليه وسلم لسعد: (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)، فحدد له الحضور والمكان، بل شدد في مسألة الحضور بنفسه حتى سأل عما إذا كان هناك أحد من غيرهم. ويظهر الاستعداد من خلال دراسة أبعاد الموقف وعناصره وظروفه المختلفة: (فأين أنت من ذلك يا سعد). كذلك فإن اختيار الاستراتيجية المثلى في الحوار هي جزء لا يتجزأ من الاستعداد للحوار؛ والنبي صلى الله عليه وسلم قد أعد استراتيجية مرنة اتسمت بالصراحة والتعاطف والمواساة، فاستفصل، ولام، واعترف بالفضل، وتلطف، وبيّن غوامض السياسة، ومبررات التصرف، ثم عوّض، وحفّز، وطمّن، كل ذلك في لحظات يسيرة، واجتماع مغلق واحد، أزال حالة الشعور بالغبن بالكلية، وتفرق الناس وهم راضون مستبشرون؛ ويدل تأكده صلى الله عليه وسلم أن القوم ليس معهم أحد غيرهم أنه كان قد خطط للكيفية التي سيرفع بها عنهم شعور الغبن، وأنه أضمر مصارحتهم بالسبب الذي من أجله قسم هذه القسمة، وهذا الحديث لا يصلح أن يحضره كل أحد، خاصة من أعطي دون الناس.

ثانياً: مراحل الحوار:

يمكن من خلال تحليل اجتماع الحظيرة تبين مراحل أساسية للحوار كمحور من محاور معالجة الشعور بالغبن. هذه المراحل هي: التمهيد، وإزالة حالة الموجدة والغضب، والتداول العقلاني لموضوع الشعور بالغبن، والإنهاء.

## ١ - مرحلة التمهيد:

تظهر مرحلة التمهيد جلية من بدايته صلى الله عليه وسلم بالاستفسار عن أبعاد الخبر، والاستفصال عن حقيقته؛ فقال: (ما كان حديث بلغني عنكم). قال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثه أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً، ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم. مرحلة التمهيد إذا تهتم بتحديد أبعاد الشعور بالغبن، وطرح الحقائق والأسباب المتعلقة به من جميع الجوانب المادية والمعنوية، جمعاً لأطرافه، وحصراً لموضوعاته، وتأسيساً لأرضية الحوار الشامل، ورفع حالة الشعور بالغبن بشكل كامل.

## ٢ - مرحلة إزالة حالة الموجدة والغضب:

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حواراً مع الأنصار عقب التمهيد، بإزالة حالة الموجدة والغضب، وذلك من خلال المعاتبة واستعطاف المعاتب وإعتابه عن عتبه بإقامة حجة من عتب عليه والاعتذار والاعتراف<sup>(١)</sup>. وقد أنجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من خلال التساؤل: هل يستحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجدوا عليه وتغضبوا، وهو الذي كان سبب هدايتكم من الضلال، وكفايتكم من الفاقة، وإشاعة الوثام بينكم؟، فأثار بذلك التساؤل الشعور بمن الله ورسوله عليهم وفضله بما لا يبقى معه إلا لوم النفس على الموجدة، واستحقار ذلك منهم عند المقارنة، وأتم صلى الله عليه وسلم الإنجاز وعززه من خلال الاعتراف بفضلهم وسابقتهم، بما يؤكد صفاء نفسه تجاههم وخلوها عما يكدرها نحوهم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - (يا معشر الأنصار ما قاله بلغني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء

١ - فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ٥٢/٨.

فألف الله بين قلوبكم). قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. قال: (ألا تحبونني يا معشر الأنصار) قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله والله ولسوله المنّ والفضل. قال: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم؛ أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأغنيناك). المعنى: من كان مثلي ومثلكم لا ينبغي أن تحصل بينهم موجدة وغضب. وقد كان لهذا الجزء من الحوار أثره الكبير في إزالة حالة الموجدة والغضب، والتوطئة لتداول الحجج المنطقية دون تأثير للحالة النفسية السلبية التي قد تمنع من تلقيها والنظر فيها بشكل سليم.

### ٣- مرحلة التداول العقلاني لموضوع الشعور بالغبن:

في هذه المرحلة تم طرح المقدمات المنطقية التي أفضت بالأنصار للشعور بالغبن (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم؛ أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأغنيناك)، كما كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منطق، وأبرز الحكمة والعلة في عطاءه ومنعه؛ فقال: (إن قريشا حديث عهد بجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم)، وفي رواية أحمد: (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم). فتم الحوار في هذه المرحلة بالحجة والمنطق، طرحا وتفنيدا، دون إخلال باللطف والرفق، بل بغاية الاحترام والتقدير والأدب؛ ودل خلالها النبي صلى الله عليه وسلم خلالها على أنه أخذ كافة العوامل في الاعتبار، ومنها سابقة الأنصار وفضلهم، وبين العوامل الأخرى التي لم تظهر لهم؛ وهي: رسوخ إيمانهم، وحدثة عهد المؤلف بجاهلية ومصيبة، وتأثير الإحسان في جبر مصيبتهم واستمالة قلوبهم ليثبتوا على الإسلام ويسلم أتباعهم بإسلامهم ويطمع نظرائهم في العطاء فيسلموا<sup>(١)</sup>. فالمنطق الذي أبرزه

١- بتصرف من تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم / صحيح مسلم، ٢ / ٧٣٣.



رسول الله صلى الله عليه وسلم لتصرفه ظهر جلياً أنه حقق مصلحة أكبر، وراعى جميع الجوانب المتعلقة بقراره . وقد كان لهذا المنطق القوي أثره الكبير في اقتناع الأنصار بالحكمة من تصرفه صلى الله عليه وسلم . ونلاحظ في الحوار الذي دار في هذه المرحلة أن الأنصار لم يطرحوا حججهم ومنطقهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدعمهم حتى أبرز لهم منطقهم الذي انبنى عليه شعورهم بالغبن، ثم هدمه بكشف منطقته الذي كان أبعد نظرًا، وأحسن مقصدًا وأوسع رؤية . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية التداول العقلاني لموضوع الشعور بالغبن ولو من خلال طرح حجج الآخر إن تركها أو غفل عنها أو استحيا منها أو حال مانع من قدرته على طرحها .

إن هذا المنطق الذي تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراره حيال توزيع الخمس في قسمة غنائم حنين لمن يكن خاصًا بهذه الواقعة، بل كان عنده سياسة ثابتة راسخة، فهداية الخلق وثباتهم على الإيمان كانت دائمًا تشكل أولوية في عطائه مما أفاء الله عليه، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السياسة بصورة جلية؛ ففي الحديث عن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار)<sup>(١)</sup> . وفي حديث عمرو بن تغلب قال إن الرسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بمال أو بسبي فقسمه، فأعطي رجلا وترك رجلاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال (أما بعد فوالله إني لأعطي الرجال وأدع الرجال والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير فيهم عمرو

١ - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، حديث رقم: (٢٧)؛ و مسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، حديث رقم: (١٥٠).

بن تغلب<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - مرحلة إنهاء الحوار:

يلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم أسلوباً خاصاً في خاتمة الحوار في هذه الحادثة، أزال أي أثر للشعور بالغبن في نفوس الأنصار، ورفع روحهم المعنوية إلى عنان السماء، وأعطاهم بدل ما غبنوا خيراً منه: رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودوام صحبته، والدعاء لهم ولذرياتهم، ونصحهم في مستقبلهم أدى إلى رفع الحرج المحاورين، وتأكيد مكانتهم، والسمو بمعنوياتهم؛ فقد قال: (أفلا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم في رحالكم، فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار). وتؤكد النتائج أن أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم كان ناجحاً جداً في تحقيق خروج الانصار من الحوار بروح إيجابية تجب ما قبلها من روح الموجدة، وحالة الشعور بالغبن، وتحقيق التصافي التام، ورفع الحرج الذي قد يسببه ثبوت الخطأ والرضوخ للحق، والتنازل عن المواقف، وأشاع الثقة حول الحوار ومخرجاته ومقاصده؛ ففي الحديث: (فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً).

#### ثالثاً: مبادئ الحوار:

مما سبق تظهر ملامح المبادئ الأساسية للحوار؛ كمحور من محاور منهجية الهدي النبوي في التعامل مع الشعور بالغبن، وتتمثل هذه المبادئ في: المكاشفة والشفافية، طرح كافة الموضوعات ذات العلاقة، احترام وتقدير المغبون ولو كان

١ - أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد، حديث رقم: (٨٨١).

مخطئاً، اللطف والرفق.

## ١- المكاشفة والشفافية:

ويعنى بها: الصدق والصراحة والاعتراف بالحقائق. وقد ظهرت المكاشفة والشفافية كمبدأ من مبادئ الحوار في جميع مراحل الحوار في اجتماع الحظيرة، بدءاً من قول سعد للنبي صلى الله عليه وسلم حين سأله: (ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا)، ومروراً باستفصال النبي صلى الله عليه وسلم عن القالة التي بلغته، وتفصيل الأنصار عمن تحدث ممن لم يتحدث، وتعليق راوي الحديث عن صدق الأنصار (وكانوا لا يكذبون)، ومعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار في قسمه، وتصريحه بالحكمة التي ساقته إلى هذه القسمة، واعترافه بفضل الأنصار وسابقتهم في الإسلام، دون أن يضطر إلى ذلك، بل وهم يشعرون بأن المنّة لله ولرسوله عليهم، وإخبارهم عما يستقبلون من أمرهم من حصول الأثره بعده.

لقد أسهم مبدأ المكاشفة والشفافية الذي اتسم به الحوار النبوي مع الأنصار بدور كبير في تطيب نفوسهم، واقتناعهم أن الأمر لم يكن أمر نسيان وتجاهل وإهمال، ولا أمر إقصاء واستبدال بالمكانة، ولا أمر اكتفاء واستغناء عنهم. بل لقد نقلهم من الشعور بالغبن إلى الشعور بالشراكة في أسرار السياسة، والإسهام في تحمل أعباء هداية الخلق وتبعاته، وبدورهم الهام في حفظ السلم المدني مستقبلاً، وهو تغيير عظيم في أجواء الحوار، وتحول كبير في التصورات الذهنية أدّى إلى وصول الحوار لتنتأجه الإيجابية.

## ٢- طرح كافة الموضوعات ذات العلاقة:

ظهر هذا المبدأ جلياً في هذه الحادثة، فالأنصار لم يصرحوا مثلاً بفضلهم على الدعوة والنبي صلى الله عليه وسلم، واستحقاقهم بذلك عدم تفضيل غيرهم

عليهم في القسمة، خاصة بعد أن أفحمهم صلى الله عليه وسلم بمنة الله ورسوله عليهم، لكنه صلى الله عليه وسلم طرح هذا الأمر وعلق عليه، بل أناط تصرفه في القسمة التي حصل بسببها الشعور بالغبن على ضعف إيمان أولئك، ورسوخ إيمانهم الذي تؤكد سابقتهم وجهادهم وفضلهم. كذلك طرح النبي صلى الله عليه وسلم ما يستقبل القوم من الأثرة بعده، وكيفية التصرف حيالها. ويتبين من ذلك أنه طرح موضوعات الماضي والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بهذه الحادثة.

### ٣- احترام من يشعر بالغبن وتقديره ولو كان مخطئاً:

أظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحاور الأنصار أعظم الاحترام والتقدير لهم؛ فها هو صلى الله عليه وسلم يلاطفهم ويعاتبهم معاتبه المحب المشفق، ويدعو لهم ولذرياتهم، ويقدر صنيعهم وبلاءهم في الإسلام، ثم يريهم قدرهم العالي عنده (الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار). كل هذه الإشارات تدل على احترام وتقدير عظيمين أظهرهما المحاور -رسول الله صلى الله عليه وسلم- خلال الحوار مع الأنصار. ومن الاحترام والتقدير الذي أظهره النبي صلى الله عليه وسلم في الحوار إفساح المجال للرد، وابداء الرأي، والتصريح بالموجدة، بل جعل للأنصار موقع المحاور المقابل دون أن يطلبوا ذلك، مما عزز من الوضوح والشفافية، ويسر طرح كافة الموضوعات ذات العلاقة، بل ولقد أدى ذلك إلى قبول المعاتبه، وتحقيق أثرها في تغيير المواقف والمفاهيم والتصورات. وهذا يشير إلى أن الهيمنة على الحوار من جانب المسؤولين هو من مظاهر عدم احترام المغبونين وتقديرهم، وهو الأمر الذي كثيراً ما يؤدي إلى فشل المفاوضات والحوارات، حيث يشعر أحد الأطراف بأنه يجبر على الحل أو يساق إليه سوقاً، دون رضاه وقبوله. ويثمر الحوار بأفضل ما يكون عندما يكون الاحترام والتقدير متبادلاً؛ وها هم الأنصار في معظم مجريات الحوار ينسبون

الفضل والمنة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم احتراماً واعترافاً؛ فقالوا: (بل الله ورسوله أمن وأفضل) (وبماذا نجيبك يا رسول الله والله ورسوله الفضل والمنة)، مما يدل على احترام التابعين للمسؤول وتقديرهم له؛ مما يجعل الحوار بناءً مفيداً يتسم بالتهذيب والأدب والرقي، ويؤكد على أن الاحترام والتقدير المتبادل بين المسؤول والجماعات المتأثرة بالشعور بالغبن يؤثر إيجابياً على الحوار.

#### ٤ - اللطف والرفق:

كان اللطف والرفق بالمغبون أحد أعمدة الحوار النبوي مع الأنصار، فإنه صلى الله عليه وسلم ما عنّفهم على موجدتهم عليه، وقالتهم التي قالوها، بل أشد ما كان منه: العتاب، الذي معناه: من كان مثلي ومثلكم لا ينبغي أن يحصل بينهم موجدة وحزن وغضب، فأنتم في القرب مني بمنزلة الشعار؛ وهو: اللباس الذي يلي الجسد، وغيركم مني بمنزلة الدثار؛ وهو اللباس الذي يكون إلى الخارج، وهذا العتاب ظاهر في أنه خارج عن محبة وتلطف ومودة. والدلائل على أن اللطف والرفق من المبادئ الهامة في الحوار كثيرة في هذه الحادثة؛ منها: أنه صلى الله عليه وسلم بين لهم العلة من تصرفه الذي عتبوا عليه بسببه وشعروا بالغبن من جرائه، وهذا تلطف منه ورفق. بل إن اجتماعه بهم صلى الله عليه وسلم نفسه يدل على رفق بهم ولطفه، إذ إن القالة إذا استفحلت، والكلام في رسول الله إذا ساء كان عاقبته وبال على المتكلم المسيء، مصداق ذلك في الحديث: عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (على رسلكما إنها صفية بنت حيي). فقالا: سبحان الله يا رسول الله. قال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في

قلوبكما سوءاً أو قال شيئاً<sup>(١)</sup>، وهكذا الأمر في هذه الواقعة.

### المطلب الثالث: محور الترضية:

يُعني بالترضية هنا: العمل على تحقيق رضا الفئة التي تشعر بالغبْن (الحي من الأنصار). والهدف من الترضية هو اختلاص الشعور بالغبْن من الصدور بالكلية، وإحقاق الحق متى ظهر، وتهوين أمر ما فات على المغبونين، ورفع روحهم المعنوية. وبذلك تتحقق تمام الهداية والألفة والرضا، وتفوّت الفرصة على المنافقين والمرجفين في إعادة فتح الجراح، والالتفاف على مخرجات الحوار، وإعادة إنتاج حالة الغبْن. والواقع يشهد بذلك؛ فكثير من المفاوضات تخرج باتفاقيات ثم ما تلبث أن تفشل، ولا يلتزم بها أطرافها بسبب ما يخرجون به من الحوار من عدم الرضا وضعف الاقتناع والروح المتدنية.

اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم في اجتماع الحظيرة على هذا المحور اعتماداً كبيراً في منهجيته للتعامل مع الشعور بالغبْن، ويلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم استخدم عدداً كبيراً من الأساليب والوسائل لتحقيقه؛ منها: الاستعطف، والاعتراف، والتفهم والإعذار، والتسلية، والتعويض، والتحفيز<sup>(٢)</sup>.

### أولاً: الاستعطف:

يظهر استخدام النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب الاستعطف من خلال المعاتبة اللطيفة التي خاطب بها الأنصار: (يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم. ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله،

١ - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم: (٣١٠٧)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، حديث رقم: (٥٨٠٨).

٢ - أشار ابن حجر إلى بعضها ضمن فوائد الحديث، فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ٨، ص ٥٢.

وأعداء فألف الله بين قلوبكم)، (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم)، ومن خلال الثناء وبيان القرب واللحمة: (الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)، (لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار)، ومن خلال الدعاء لهم ولذرائعهم: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار). أسهم هذا الأسلوب إسهامًا كبيرًا في إثارة عاطفة الأنصار، وإزالة موجدتهم وشعورهم بالغبن. وأشار بكاؤهم إلى أثر هذا الأسلوب في تحقيق تفاعلهم وانفعالهم، وتحقيق كامل رضاهم.

#### ثانيًا: الاعتراف:

أسهم اعتراف رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار بالسابقة، وإقراره لهم بالفضل الذي يستحقون عليه التقديم على غيرهم في تحقيق تمام رضاهم؛ فقال: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم؛ أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأغنيناك).

#### ثالثًا: التفهم والإعذار:

تضمن اعترافه صلى الله عليه وسلم للأنصار بالفضل والسابقة تفهمه لشعورهم بالغبن، وإعذارهم لموقفهم في هذه الحادثة، مما كان له الأثر الكبير في تطيب نفوسهم، وحفظ ماء وجوههم، وتطمينهم. مما ساهم في ترضيتهم بشكل كبير.

#### رابعًا: التسلية:

لقد ترضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار من خلال تسليتهم عمًا فات عليهم؛ واستخدم في ذلك التهوين تارة فهون من شأن المال الذي قسمه على المؤلفة، وسماه: (لعاعة من الدنيا)، واللعاعة قيل: نبت ناعم في أول ما

ينبت<sup>(١)</sup> ويكون ضعيفاً لا يقوى على المقاومة والبقاء، وقيل: ما بقي في السقاء من نحو الجرعة من الشراب<sup>(٢)</sup>، ولهذا يقال للدنيا لعاعة لسرعة زوالها<sup>(٣)</sup>، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ [الكهف: ٤٥]. هذا الوصف للعطايا التي فاتت الأنصار يزهد فيها، ويسلي عن فقدها، ويجعل للبدل المعروض به عنها قيمة عظيمة، وتسلية كبيرة، عما فات. كذلك كان في تزكية الأنصار والشهادة لهم برسوخ الإيمان، وإناطة القسمة بتثبيت إسلام ضعفة الإيمان من المؤلفة والطلاق لا بالفضل أعظم التسلية لهم عما فاتهم. وهذا أسهم إسهاماً مقدراً في ترضيتهم.

#### خامساً: التعويض:

لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار دون تعويض بعد أن أقنعهم بمنطقه في التصرف في الفيء، وأزال ما في أنفسهم من الموجدة. بل ترضاهم بتعويضهم عما فاتهم، وبذل لهم كافة أنواع التعويض الممكنة، والمقدرة عندهم. لقد عوضهم مادياً بنفسه الشريفة؛ قال لهم: (أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به)، وتقويم التعويض المادي إنما يكون بمدى ما يمنحه العرض المادي من قرة العين، وقضاء الحاجات، ورجاء النفع والبركة. وقد أدرك الأنصار عظم التعويض الذي نالوه، فهل أقر في أعينهم، أو أجل في قضاء حوائجهم، أو أنفع وأبرك لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. وقد نقل ابن حجر عن الواقدي ذكره أن الأنصار حينما رضوا برسول الله قسماً وحظاً دعاهم ليكتب لهم بالبحرين تكون لهم خاصة بعده، وهي من أفضل ما فتح عليه يومئذ من الأرض، فأبوا

١- لسان العرب، لابن منظور، ٨ / ٣١٩.

٢- لسان العرب، لابن منظور، ٨، ص ٣٢٠.

٣- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري، ٩ / ٥٩٦٤.



وقالوا لا حاجة لنا بالدنيا<sup>(١)</sup>. فإن صح ذلك دل على نجاعة أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الترضية حتى رفضوا التعويض المادي بالأرض. كذلك فقد عوّض النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار معنوياً بأن زكاهم، وقربهم، وضمن لهم رفقته الدائمة في المحيا وعند الممات، ووصفهم بما يفخرون به من أنهم بطانته وخاصته، وبأن شهد لهم برسوخ الإيمان، وبأن دعا لهم بالرحمة وذرياتهم من بعدهم.؛ وكان مما قاله صلى الله عليه وسلم للأنصار: (الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدثار ما بعده من الثياب، وفي هذه العبارة كناية عن شدة قربهم منه، والتصاقهم به، وأنهم خاصته وأصفياءه<sup>(٢)</sup>. وقال: (لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار)، والوادي هو: المكان المنخفض وقيل الذي فيه ماء، والشعب اسم لما انفرج بين جبلين وقيل هو الطريق في الجبل<sup>(٣)</sup>، وفي هذه الرواية قطع بافتراض ذهاب الناس في الوادي، والأنصار في الشعب، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم: لو كان الناس في مذهب وطريق وحالة سهلة وحسنة، وكنتم في مذهب وطريق وحالة صعبة لما فارقتمكم وللزمتمكم. لقد أسهم التعويض في ترضية الأنصار بشكل عظيم، فنطق لسان مقالهم معبراً عن حالهم: (رضينا برسول الله قسماً وحظاً).

#### سادساً: التحفيز:

التحفيز في اللغة من حفز؛ قال ابن فارس: وهي كلمة واحدة تدل على الحث وما قرب منه<sup>(٤)</sup>، وقال ابن منظور: الحفز حثك الشيء من خلفه سوفاً أو

١- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٨ / ٥١.

٢- تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم / حيج مسلم، ٢ / ٧٣٨.

٣- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٨ / ٥٢.

٤- مقاييس اللغة، لابن فارس، ٢ / ٦٨.

غير سوق<sup>(١)</sup>. ويعني التحفيز في الاصطلاح: دفع الفرد لاتخاذ سلوك معين أو إيقافه أو تغيير مساره<sup>(٢)</sup>. فالتحفيز إذاً يسهم في تحريك السلوك الظاهر والباطن والتحكم فيه وتوجيهه<sup>(٣)</sup>. والتحفيز قد يكون مادياً، وقد يكون معنوياً، وقد يكون سلبياً وقد يكون إيجابياً. وفي هذه الحادثة استخدم النبي صلى الله عليه وسلم كل هذه الأنواع لترضية الأنصار، وإزالة حالة الشعور بالغبن بالكلية. ويظهر استخدامه للتحفيز المادي في جعل نفسه الشريفة عوضاً لهم عما فاتهم من عرض في القسمة، مما هو مقدور على تعويضه وتحصيل مثله، ولكن أتى لغيرهم بمثل رسول الله؟؛ قال لهم رسول الله: (أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به). واستخدم التحفيز المعنوي ممن خلال وصفهم بأنهم خاصته وبطانته وافتخاره بالانتساب إليهم لولا وجود يمنع: (الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)، ومن التزامه بتمام التزامهم وموافقتهم في المنشط والمكروه؛ فقال: (لو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم). وحفز رسول الله الأنصار تحفيزاً سلبياً فلامهم وعتب عليهم أن وجدوا عليه، وذكر لهم فضل الله عليهم ورسوله، كما حفزهم إيجابياً بتعويضهم بنفسه، والثناء عليهم، وبيان عظيم موافقته لهم، وتزكيتهم بتأكيد رسوخ إيمانهم، وبأنهم بطانته وخاصته، وبالدهاء لهم ولذرياتهم. هذا التحفيز المتكامل كان له أثره العظيم في ترضية الأنصار، وخروجهم من الحوار بروح معنوية عالية، وقد زالت حالة الشعور بالغبن بالكلية عن نفوسهم.

لقد سبقت السنة النبوية الشريفة أحدث ما وصل إليه الغرب في التحفيز،

١- لسان العرب، لابن منظور، ٥ / ٣٣٧.

٢- الإدارة دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية، مدني عبد القادر علاقي / ٣٤٧.

3- Principles of Management, P C Tripathi and P N Reddy, p 294

وإدراك مزاياه، فقد أبرزت كتابات حديثة أنه في هذه الأيام يزداد حول العالم عدد الشركات التي ثبت عندها أن بناء نظام مكافآت يقوم على أساس التقدير، والثناء، والاعتراف بالفضل يحقق نتائج إيجابية عظيمة فيما يختص بزيادة الإنتاجية، تقليل دوران العمل<sup>(١)</sup>، وتحسين نوعية المنتجات وخدمات العملاء. كذلك قررت أن التقدير والثناء يعمل على تقوية المناخ التنظيمي<sup>(٢)</sup> المثالي<sup>(٣)</sup>.

إن محور الترضية يحقق شعور المغبونين بالتفاعل مع قضيتهم، وتعويضهم عما فاتهم، فلا يعود للشعور بالغبن مكان، ولا يكون للتداعيات مجال، ولا للمرجفين والمنافين سبيل.

#### المطلب الرابع: محور التقويم:

يعني التقويم في اللغة: تقدير القيمة، وإزالة الاعوجاج<sup>(٤)</sup>. وأما في الاصطلاح فيعني: قياس النتائج المتحققة ومقارنتها بالنتائج المخططة مسبقاً؛ بغية التعرف على الانحرافات، وتحديد أسبابها، مع تحديد الوسائل الكفيلة بمعالجتها<sup>(٥)</sup>.

لقد كان التقويم حاضراً كأحد المحاور الأساسية في منهجية الهدي النبوي في التعامل مع الشعور بالغبن في اجتماع الحظيرة. ففي كل مرحلة من مراحلها، ظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بالأحداث والتداعيات والنتائج.

#### أولاً: في مرحلة الاحتواء:

في مرحلة الاحتواء، قام النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال سعد حين بلغه

- ١- مصطلح يعني: نسبة ترك العمل وإعادة شغل الوظائف التي تشغر.
- ٢- يعني المناخ التنظيمي: محصلة الظروف والمتغيرات والأجواء الداخلية للمنظمة كما يعيها العاملون بها، والتي تشكل اتجاهاتهم وسلوكهم ومستوى ولائهم للمنظمة.

3- Principles of Management, P C Tripathi and P N Reddy, p 284

- ٤- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية / ٥٢١ - ٥٢٣.
- ٥- دراسات الجدوى الاقتصادية وتقييم المشروعات، كاظم جاسم العيساوي / ٢٥٨

خبر ما يجده الأنصار وما يقولونه: (فأين أنت من ذلك يا سعد؟)، وهذا السؤال دليل واضح على تقويم النبي صلى الله عليه وسلم للوضع، وإجابته تظهر إلى أي مدى وصلت القالة، ومدى تأثيرها واستفحالها.

ثانياً: في مرحلة الحوار:

وفي مرحلة الحوار؛ نجد النبي صلى الله عليه وسلم، يسأل الأنصار أول اجتماعه معهم: (ما الذي بلغني عنكم). وفيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد تقويم الوضع الراهن، والتعرف على حقيقة الشعور بالغبن الحاصل وأسبابه وتداعياته. وفي مرحلة الحوار أيضاً يظهر حث النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار أن يجيبوه ويحاوروه؛ ليعرف أثر حديثه إليهم وعتبه عليهم؛ فبعد أن قال لهم: (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي؟) وهم يقولون الله ورسوله أمن: قال: (ألا تحيوني؟)، وهذا السؤال بهذا الترتيب، وهذه الصيغة سؤال تقويمي جاءت إجابته تدل على عظيم أثر حديثه إليهم في تخفيف موجدتهم، لكنها تضمنت ما يشير إلى بقاء أثر في النفوس؛ قالوا: (وبماذا نجيبك يا رسول الله، والله لرسوله المن والفضل)، فمن الله ورسوله وفضله يوجب على الناس الامتثال وعدم الوجد، والاعتراف بالفضل، لكن فضل الله ورسوله عامان لكل الناس. لقد لام الأنصار أنفسهم على القالة التي قالوها والموجدة التي وجدوها، لكن لم يزل شيء من الغبن باقياً في نفوسهم. وحيث لم يخف ذلك من إجابتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء حديثه إليهم بعد ذلك يستخرج ما في أنفسهم من دواعي الشعور بالغبن، ثم يزيلها بالجواب الشافي، والحجة البالغة، وبيان العلة الخافية، والتعويض العظيم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم؛ أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأغنيناك. أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا

ووكلتكم إلى إسلامكم. أفلا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم في رحالكم). إن الحديث الذي أعقب الأسئلة السابقة دل دلالة واضحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قوم إجابات الأنصار وانفعالاتهم في مراحل الحوار المختلفة، وبنى على نتائج تقويم كل مرحلة حديثه في المرحلة التالية، فأزال آثار الغبن بكافة جوانبه، ونواحيه، وتداعياته، فحقق أعظم النتائج، وأبهر المخرجات بخروج الأنصار في غاية الرضا.

### ثالثاً: في مرحلة الترضية:

وفي محور الترضية نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم التقويم في العديد من مواقفه، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قوم أثر حديثه إلى الأنصار لما عوّضهم عن المال بنفسه الشريفة، فوجدهم راضين مستبشرين؛ (قالوا بلى يا رسول الله رضينا)، فناسب نتيجة التقويم أن يعزز رضاهم ويشبّتهم بالثناء عليهم والدعاء لهم ولذرياتهم؛ قال: (الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)، وقال: (لو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم)، وقال: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار). وقوم النبي صلى الله عليه وسلم حالة الأنصار بعد هذا التعزيز والتثبيت، فدلّه بكاء الأنصار على كمال رضاهم، وتماز زوال ما كانوا يشعرون به من الشعور بالغبن، واكتمال معالجة الحادثة، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا واختتمت فصول الحادثة.

كما سبق؛ يمكن القول بأن فعالية التقويم كمحور من محاور منهجية التعامل مع الشعور بالغبن تقوم على توفر العديد من الخصائص فيه؛ من أهمها:

١- شمولية التقويم: بمعنى أن يتناول كل محور، وكل مرحلة من محاور معالجة الشعور بالغبن ومراحله، وجميع العوامل والعناصر، والنتائج ذات العلاقة بالموضوع.

٢- استمرارية التقويم: بحيث يتم من خلاله التعرف على مخرجات كل مرحلة، وبناء المرحلة التالية على نتائج تقويم المرحلة السابقة، لتحسين المخرجات عبر المراحل، وتحقيق المقاصد بشكل متكامل.

٣- الاستفادة من نتائج التقويم: وذلك يعني أن تكون مخرجات التقويم هي الأساس الذي يقوم عليه تخطيط المراحل التالية في المعالجة وتنفيذها.

## الخاتمة

تناول الخاتمة خلاصة النتائج والتوصيات.

## خلاصة النتائج:

١- لقد أبرزت هذه الدراسة مصطلح الشعور بالغبن، للتعبير عن حالة خاصة من الأزمات المتعلقة بالسلوك الإنساني في التنظيمات على مختلف مستوياتها وأغراضها، والتي تفرز إفرارات سلبية أخطرها على مستوى السلم المدني. ويعبر هذا المصطلح عن: شعور فئة من فئات الجماعة بالاهتضام بسبب نوال فئة أخرى شيئاً دونهم.

٢- الشعور بالغبن وسط الجماعات من الظواهر المهددة للسلم المدني تهديداً كبيراً بشهادة الواقع، ودلالة واقعة قسمة غنائم حنين، حيث يمكن أن يؤدي

إلى تفريق المجتمعات واحترابها، كما أنه قد يستغل من الأعداء لدق أسافين العداوة والبغضاء، وبث الكراهية والعنف والتطرف بين مكونات المجتمع وفصائله المختلفة؛ مما يستلزم الحصافة والسرعة في معالجته.

٣- تمثل تداعيات قسمة غنائم حنين واجتماع الحظيرة الذي نتج عنها حالة متكاملة ونموذجية لدراسة ظاهرة الشعور بالغبن في التنظيمات الاجتماعية بكافة أشكالها؛ من حيث المنشأ، والتداعيات، والمعالجة. وقد مثلت معالجة النبي صلى الله عليه وسلم لها بنفسه فرصة عظيمة لدراسة أنجع الأساليب، وأفضل المناهج للتعامل مع الحالات المشابهة.

٤- تتمحور أهم أسباب حدوث ظاهرة الشعور بالغبن في الاحساس بالاهتزام نتيجة تخصيص الموارد على نحو غير متوقع، أو الشعور بالإقصاء أو التهميش، أو بهما معاً. وتتمثل أهم العوامل التي تؤدي إلى تفاقم ظاهرة الشعور بالغبن في: كثرة القالة، تأخر معالجة الشعور بالغبن، عدم الإحاطة بجميع جوانب المشكلة في المعالجة. ويشير ذلك إلى أن الأجزاء التنظيمية المختلفة تهتم بالمقارنة مع مثيلاتها، وتتطلع للعدالة والمساواة، مما يحتم على القيادة إظهار الاهتمام المتساوي بجميع المجموعات التنظيمية مع مراعاة الاحتياجات الخاصة لكل مجموعة، على أن تكون العلة والمصلحة واضحة وقوية.

٥- طبق النبي صلى الله عليه وسلم خلال اجتماع الحظيرة منهجية مثلى في معالجة حالة الشعور بالغبن، تكونت من محاور أربعة أساسية؛ هي: احتواء الموقف، الحوار، الترضية، والتقويم. وقد نجحت هذه المنهجية في التصدي لظاهرة الشعور بالغبن وسط الأنصار، ومحاصرتها، ومعالجتها معالجة نهائية من خلال الاتساق والتكامل بين هذه المحاور الأربع. ومن تبع هذه المحاور وما اشتملت عليه من معالم فإنه يمكن القول بأن هذه المنهجية يمكن تطبيقها

بنجاح في حالات الشعور بالغبن المعاصرة، وعلى كافة مستويات وأشكال التنظيمات الإنسانية.

٦- ارتكز نجاح المنهجية النبوية الشريفة في معالجة تداعيات قسمة غنائم حنين وما تولد عنها من الشعور بالغبن على الثقة، والمحبة، والتقدير بين القائد والرعية، وهذا يشير إلى ضرورة العمل على بناء الثقة التنظيمية وتحسينها، والعلاقة المرضية بين القائد والرعية بشكل مستمر متصل دؤوب، وليس السعي إلى ذلك في الظروف الحرجة وعند الحاجة إلى تجاوز أزمات أو مشكلة.

٧- دلت الدراسة على أن السنة النبوية زاخرة بكل ما تحتاجه الأمة لتحقيق السلم المدني والمحافظة عليه، وتوثيق عرى لحياتها الاجتماعية، وتجاوز كافة محنها وأزماتها وابتلاءاتها، والنهوض بحضارتها ومجتمعاتها وأفرادها.

#### التوصيات:

١- تبني إنشاء موقع إلكتروني لإبراز بروتوكولات إرشادية ونشرها، بالاستفادة من هذه الدراسة، يتم من خلالها توضيح الخطوات العملية لتطبيق المنهجية النبوية في التعامل مع الشعور بالغبن عند حدوث الأزمات المعاصرة في هذا المجال، مع تعديلها حسب الحاجة لتواقي حاجة التنظيمات الإنسانية بكافة أشكالها.

٢- تنبيه أجهزة الإعلام والعلاقات العامة المختلفة، وتدريب الإعلاميين وإرشادهم للاضطلاع بدور إيجابي في حوادث الشعور بالغبن، وذلك من خلال الإسهام في دراستها، وحصرتها، ودلالة المسؤولين عليها، وتبرير وإبراز العلل المنطقية لتصرفات المسؤولين متى ما كان ذلك ملائماً، والقيام



بمعالجة الحالات التي يمكن معالجتها إعلامياً. هذا مع تجنب الأساليب المؤدية للفتنة والإثارة وتعميق حالات الشعور بالغبن.

٣- تزويد المناهج التربوية في البلدان الإسلامية بما يحث الأفراد والجماعات في كافة الأطر على الصبر، وإيثار الآخرة. وما يلزم ذلك من حسن تلقينهم العقيدة الإسلامية الصافية، لاسيما الإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره، والسلوك الإسلامي المستقيم، من الصبر والإيثار والبعد عن الفتنة.

٤- إنشاء مراكز لدراسات وتقويم الثقة التنظيمية، في الهيئات والجهات السيادية بالدول والمنظمات لبحث معدلات الثقة بين الراعي والرعية ومنغصاتها، والإدارة والمنسويين، بما يرفد المسؤولين بالبيانات التي من شأنها مراقبة الخلل وإصلاحه في الثقة التنظيمية بحسبانها من أهم المجالات التي تركز عليها القيادة في بناء المناخ التنظيمي الأمثل، وحل المشكلات والأزمات التنظيمية بوجه عام.

## المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع العربية:

- الإدارة: الأصول والأسس العلمية. سيد الهواري. القاهرة: مكتبة عين شمس. دت.
- الإدارة دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية. مدني عبد القادر علاقي. ط ٩. جدة: دار جدة للنشر. ٢٠٠٠ م.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني. ط ٧. مصر: المطبعة الكبرى الأميرية. ١٣٢٣ هـ.
- دراسات الجدوى الاقتصادية وتقييم المشروعات. كاظم جاسم العيساوي. عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع. ٢٠٠٢ م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. ط ١٤. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤٠٧ / ١٩٨٦ م.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. محمد بن يوسف الصالحي. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- سنن أبي داوود. أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني. بيروت: دار الفكر. دت.
- سنن النسائي. أحمد بن شعيب النسائي. ط ٢. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية. ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م.
- شمس العلوم ودواء الكلم من الكلوم. نشوان بن سعيد الحميري. بيروت: دار الفكر المعاصر. ١٩٩٩ م.
- صحيح البخاري. محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي. ط ٣. بيروت: دار ابن كثير. ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. بيروت: دار إحياء التراث العربي. دت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. بيروت: دار المعرفة. ١٣٧٩هـ.
- فيض الباري على صحيح البخاري. محمد أنور شاه. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤٢٦ / ٢٠٠٥م.
- الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري. أحمد بن إسماعيل الكوراني. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.
- لسان العرب. محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي. القاهرة: دار المعارف. دت.
- مسند أحمد بن حنبل. أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني. القاهرة: مؤسسة قرطبة. دت.
- معجم اللغة العربية المعاصرة. أحمد مختار عبد الحميد. القاهرة: عالم الكتب. ٢٠٠٨م.
- المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. مصر: مجمع اللغة العربية. ٢٠٠٤م.
- مقاييس اللغة. لابن فارس. دم: اتحاد الكتاب العرب. ٢٠٠٢م.

### ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- Operational research By Examples. Colin Palmer and Alexander E. Innes. London: The Macmillan Press Ltd. 1980.
- Principles of Management. P C Tripathi and P N Reddy. 5e. New Delhi: Tata McGraw-Hill. 2012.



رعاية حقوق الحاكم في السنة النبوية وأثرها  
في المحافظة على السلم المدني

أ. د. إسماعيل كاظم العيساوي  
رئيس قسم الفقه وأصوله - كلية الشريعة - جامعة الشارقة





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين  
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تعدّ رعاية حقوق الحاكم من أنفس مباحث السياسة الشرعية، وألصقتها  
بمقاصد الشريعة في حفظ الأمن والأمان، إلا أن اهتضام هذه الرعاية عند  
بعض أزلام الفتن، واستسهال الخروج عن الجماعة، أعقبَ قلاقلَ على تراخي  
العصور، وجرَّ على الأمة ويلات التشرذم، والتناحر، والفشل وذهاب الريح!  
ولو تأمَّل الناس النصوص الواردة في طاعة الأئمة، وتوقيرهم، وإخلاص النصح  
لهم بالرفق والحسنى فضلَ تأمَّل، لاستبانَت لهم حكمٌ من وراء ذلك، تصبُّ جميعًا  
في الاعتصام بحبل القوة والوحدة، والصَّون للكليات الخمس.

وإن من دواعي اختلال السَّلم المدنيِّ، اليوم، الجهلَ بحقوق الحكام،  
والتفريط في رعايتها، تحت غطاء مزاعم شتى تدور كلها في فلك «حرية التعبير»  
و «حقَّ النقد» و «ضرورة التغيير»، ولسنا نشكُّ في جدوى هذه القيم التي  
جذَّرها الإسلام، وأفسح لها مجالاً رحيباً للتطبيق، إلا أن لها حدوداً وضوابط لا  
تتصادم مع ما يجب للحاكم من الهيبة والتوقير والطاعة في المعروف، وإذا أعوز  
الضابط الشرعيُّ وعزَّ الأخذ بالهدي النبويِّ في هذا المضمار، انكسر الباب،  
وتبدَّد السلك، وأطبقت الفتنة!

وقد عنيت كتب السياسة الشرعية - على ترادف العصور - ببيان حقوق  
الحكام، وتأصيلها في ضوء النصوص الشرعية، ولا مجال، اليوم، لمستزيد،  
إلا أن يُستغنى بمعاد القول عن الجديد المفيد، وهو مرتبط الجدة ومناطها في كل

بحث علمي أصيل. بيد أن الإضافة المعرفية التي ترومها هذه الدراسة تتمثل في بيان أثر رعاية هذه الحقوق في المحافظة على السلم المدني، ولم أر من الباحثين المعاصرين من سبق إلى هذه المعالجة التي أوحى بها المائدة الفكرية لهذه الندوة، إلا ما تفرّق من إشاراتٍ ولمع في كتابات ابن تيمية وابن القيم تحذّر من مغبة نقض طاعة الحكام، وما يكون عنه من سفك الدماء واضطراب حبل الأمن.

وإن السؤال الجوهرية الذي شكّل صلب هذه الدراسة ونطاقها المعرفي، هو: ما أثر رعاية حقوق الحكام في تحقيق السلم المدني؟، وكيف تصان هذه الحقوق على نحو يدرأ أسباب الفتن والقلق، دون أن يخلّ ذلك بقيم الحريات العامة؟

وكان الجواب عن هذا السؤال الإشكالي مستوفى في إطار ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: وسم بعنوان: «طاعة الحاكم وصون بيعته وأثرهما في المحافظة على السلم المدني».
- المبحث الثاني: وسم بعنوان: «النصيحة المثلى للحاكم وأثرها في المحافظة على السلم المدني».
- المبحث الثالث: وسم بعنوان: «صون هيبة الحاكم وأثرها في المحافظة على السلم المدني».

أما المنهج الذي ترسّمته في الدراسة فعماده الاستقراء وتتبع الجزئيات ذات الصلة برعاية حقوق الحاكم، وسناده التحليل، أي تحليل الأثر المرجو لهذه الرعاية في المحافظة على السلم المدني، مع مراعاة الشروط العلمية والبحثية المتعارف عليها من تخريج، وتوثيق، وردّ للنقول إلى أصولها، وشرح للمصطلحات الغريبة إن وجدت.



والله نسأل أن يجعل هذا العمل مفتاحًا للخير، مغلاً للشّر، ويثيب صاحبه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## المبحث الأول: طاعة الحاكم وصون بيعته وأثرهما في المحافظة على السلم المدني

زخرت السنة النبوية بأحاديث صحاح في طاعة الحاكم في المعروف، وبلغت في مجموعها حد التواتر<sup>(١)</sup>، مقررّة أصلاً من الأصول التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة<sup>(٢)</sup>، ولو تأملنا هذه الأحاديث فضل تأمل، لألفينا أنها تدور حول ثلاثة حقوق أساسية تحفظ على النظام هيئته، وتسدّ الذريعة إلى انفراطه، وتوثق عرى السلم المدني العام، وهي:

١- حقُّ الطاعة في المعروف وأثره في حفظ السلم المدني: شددت الأحاديث النبوية في طاعة الحاكم، ما لم يأمر بمعصية؛ وذلك لما يعلمه الشارع من أن التشديد في هذا الموضع محمودٌ، ومطلوبٌ لاجتماع الكلمة، ونبذ الفرقة، ودرء أسباب التهارج. ومن تجليات ذلكم التشديد:

- أولاً: إيجاب الطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، لحديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «عَلَيْكَ

---

١- قال الإمام الشوكاني: «وعلى المسلمين إخلاص الطاعة له -أي الإمام- في غير معصية الله تعالى وامتنال أوامره ونواهيه في المعروف غير المنكر وعدم منازعته، وتحريم نزع أيديهم من طاعته إلا أن تروا كفراً بواحاً كما وردت بذلك الأدلة المتواترة التي لا يشك في تواترها إلا من لا يعرف السنة المطهرة». السيل الجرار، الشوكاني، ج ٣، ص ٦٩.

٢- قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية، نقل الإجماع على هذا القاضي عياض وآخرون». المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ج ١٢، ص ٤٢٦- وانظر: معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة. برجس، ص ٨٣.

السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>  
 أي: أن الطاعة واجبة لولي الأمر حتى فيما يشق على النفس وتكرهه، وفي كل  
 الأحوال من عسر ويسر، أو إقبال أو كره، حتى لو كان في ذلك استئثارهم  
 ببعض أمور الدنيا، ما لم تكن في معصية، ففي ذلك أطراح للفرقة والخلاف  
 وفساد الدين والدنيا.<sup>(٢)</sup>

- ثانيًا: إيجاب الطاعة مع اختلال صفات الكمال الاختيارية للولاية، لحديث  
 عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه  
 وسلم -: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسُهُ  
 زَيْبَةً»<sup>(٣)</sup>. والأمر في الحديث يقتضي الوجوب، ولا صارف له<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا السياق ورد حديث عن أبي ذر - رضي الله عنه -، قال: «إِنَّ  
 خَلِيلِي أَوْصَانِي: أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»<sup>(٥)</sup>. والوصية  
 هنا بمعنى الأمر، أي: اسمعوا وأطيعوا وإن كان ولي الأمر ذنيء النسب، ناقص  
 الخلق<sup>(٦)</sup>. فكيف إذا كان الولاة والأمراء والحكام في أغلب بلاد المسلمين من  
 ذوي النسب المعروف، ولا مطعن في نسبهم! فالحديث، إذن، يقدم مصلحة  
 ضرورية هي اجتماع كلمة الأمة، وديمومة سلمها المدني على مصلحة تحسينية

- 
- ١ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، بابٌ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٣٦.
  - ٢ - يُنظَرُ: المنهاج، النووي، ١٢ / ٤٢٨.
  - ٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، بابُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْإِمَامِ مَا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً، حديث رقم: ٧١٢٤.
  - ٤ - انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، ١٦ / ٦٢٥.
  - ٥ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، بابٌ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٣٧.
  - ٦ - انظر: المنهاج، النووي، ١٢ / ٤٢٨-٤٢٩، وقد بين بأن من شرط الولاية الاختياري الحرية، وأنه لا تجوز ولاية العبد إلا في حال المغالبة.

كرفعة النسب واستواء الخلقة، وهذا دأب الشارع في مجاريه ومباعثه، يجلب الأفضل فالأفضل، ويدراً الأرزل فالأرزل..

- ثالثاً: بيان عقوبة خلع اليد من الطاعة في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لَقِيَّ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»<sup>(١)</sup>. والحديث صريح في أن من خرج على إمام المسلمين بعد أن بايعه فليس له حجة فيما فعله، ولا عذر له ينفعه يوم الحساب، ومن مات ولم يدخل تحت طاعة إمام من أئمة المسلمين ثم مات على تلك الحالة، فقد مات مثل حال أهل الجاهلية الذين كانوا لا يبايعون إماماً، وهو بذلك مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب<sup>(٢)</sup>.

واستلهاماً لهذه الأحاديث، خاطب أبو بكر - رضي الله عنه - رعيته بهذه العبارة الذهبية: «أَطِيعُونِي مَا أَعْطَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ»<sup>(٣)</sup>؛ لعلمه بأن سلم الأمة منوط بحسن الصلة بين الراعي والرعية، ونهوض كل طرف بواجبه تجاه الآخر، والفيصل بينهما هو طاعة الله ورسوله، فلا تصرف للرعية أو على الرعية إلا بمعيار هذه الطاعة.

والحق أن من وراء تشديد السنة النبوية في رعاية هذا الحق للحاكم استشراف مآلات خلع يد الطاعة، ونقض البيعة؛ إذ يستسهل العصاة الخروج على النظام، ويطمعون في الحكم، ولأولياء الأمور شوكة وغلبة ينافحون بهما عن بيعتهم

١ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ١٨٥١.

٢ - يُنظر: المفهم لما أشكل من تخلص كتاب مسلم، القرطبي، ١٢ / ٤٤٣.

٣ - أخرجه معمر بن راشد الأزدي في الجامع «منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق»، باب: لا طاعة في معصية، أثر رقم ٢٠٧٠٢ - قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية ٥ / ٢٦٩: إسناده صحيح.

الشرعية، فيقع ما يقع من الاضطراب والاحتراب، وتطمّ الفتن، وتراق الدماء رخيصةً لا ثمن لها !

٢- حقّ الصّبر على الحاكم وعدم الخروج عليه وأثره في حفظ السّلم المدنيّ: تتضافر الأحاديث النبوية على ترسيخ مشروعية الصّبر على الحاكم، إذا رُئي منه ما يُكره، أو بدر منه ما يسوء، ومن ثمّ لا تعدّ معصيته في نظر الشارع مسوّغاً للخروج عليه، وخلع بيعته؛ لأنّ ضررها أخفُّ من ضرر الفتنة، وهو ضررٌ عامٌّ يفسد النظام والانتظام. ومن أحاديث الباب:

- أولاً: حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»<sup>(١)</sup>. وفيه الأمر بالصبر مع كراهة ما يصدر عن الإمام؛ لما في ذلك من المصلحة الراجحة؛ إذ لو أبيض الخروج عليه والسعي في حل عقد البيعة التي حصلت له ولو بأدنى شيء، كانت العاقبة فساد المعاش وفوات الأمن، فلا بدع إن وصف شق عصا الطاعة بأنه من فعل أهل الجاهلية المذموم، وأن مات عليه فهو على ضلالة<sup>(٢)</sup>.

- ثانيًا: حديث أم سلمة - رضي الله عنها -، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «سَتَكُونُ أُمَّرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِيءًا، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِيمًا، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: أَفَلَا نَقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا، مَا صَلَّوْا». وفي

١- أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم سترون بعدي أمورًا تنكرونها، حديث رقم: ٧٠٥٤، ومسلم، كتاب الإمامة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ١٨٤٩.

٢- يُنظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٦ / ٤٤٠.

رواية: «فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَّيَّ»<sup>(١)</sup>. وفيه: بيان لحال هذه الأمة في المستقبل، التي ستنكر من تصرفات حكامها ما ستنكر، ، فمن كره المنكر بقلبه، أو بلسانه فلا إثم عليه؛ وإنما الإثم على من رضي بالمنكر وتابع الأمير عليه بعد أن حصحص له الحق، بيد أن هذا المنكر لا ينهض مسوِّغاً لقتال الحكام والخروج عليهم، إذ لا تُشظى عصا الطاعة بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام<sup>(٢)</sup>.

- ثالثاً: حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْكُمْ شَيْئاً تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»<sup>(٣)</sup>. فالحديث وإن وصف شرار الأئمة، إلا أنه لم يأذن بنقض العهد الذي لهم، ولا الخروج عليهم بالسيف، ما داموا مظهرين لشعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة<sup>(٤)</sup>. ولو وقف دعاة الخروج وأحلاف الفتن على هذا الحديث، وتدبروا معانيه بقلب بعيد عن الغفلة، ومنتق عارٍ عن التعصب، لأدركوا أن الشارع يكره المعاصي والمنكرات، ويوجب كراهيتها، لكن حمل الحكام على تركها بقوة السيف، يعقب من الفساد العام ما يربو على مفسدة العصيان المكروه، وقد عهدنا من مصادر

١- أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، بابُ وُجُوبِ الْإِنْبَاءِ عَلَى الْأَمْرَاءِ فِيمَا يُخَالَفُ الشَّرْعَ وَتَرَكَ قِتَالَهُمْ مَا صَلُّوا وَنَحَوْ ذَلِكَ، حديث رقم: ١٨٥٤.

٢- يُنظَر: المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، النووي، ١٢ / ٤٤٥-٤٤٦.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، بابُ خِيَارِ الْأُمَّةِ وَشِرَارِهِمْ، حديث رقم: ١٨٥٥.

٤- يُنظَر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، ٤ / ٦٤.

الشرع وموارده دفع الأعلى بالأدنى، واغتفار اليسير في جانب الكثير.

إن هذا الحرص النبوي على مهادنة الحكام، والصبر عليهم عند رؤية المنكرات، لا يعدّ ضرباً من النفاق، أو المداجاة، أو التستر على الفساد، كما قد يتبادر إلى أخلاد البعض؛ بل هو من صميم الحكمة الباهرة، ومشكاة المصلحة العليا؛ إذ لا يختلف العقلاء الأسوياء أن بالحاكم تُنصب الشرائع، وتحصل الحقوق، وينتشر ظل الأمن، وأن الناس لا يصلح أمرهم ليوم بل لساعة إلا بقيادة ترمّ ركب حياتهم، فلا يُتصوّر أن تُهتضم الضروريات والمصالح العليا، ومنها السلم المدني والأمن العام، لانحراف طارئ أو منكر شائع. وقد صدق الصادق المصدوق حين قال: «.. وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ فَإِنِ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنِ قَالَ بغيرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>. فأَيّ وصف للحاكم هذا جلى الحكمة من تنصيبه، والسرّ في الاعتصام به، إنه كالواقى أو الساتر الذي يستتر به؛ يمنع العدو الخارجي، ويحفظ الأمن الداخلي، ويذود بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون سطوته، ويقاتل معه وتحت رايته كل بر وفاجر<sup>(٢)</sup>.

٣- اعتزال الفتن وأثره في حفظ السلم المدني: من القواعد المرعية في السياسة الشرعية أن المسلم إذا لم يتأت له لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، في عصر الفتن والأطماع والتقاتل حول مناصب الحكم، فإن الواجب عليه الاعتزال وترك الفرق جميعاً، لحديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال، كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا

١- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: يُقَاتَلُ مِنْ وَرَاءِ الْإِمَامِ وَيَتَّقَى بِهِ، حديث رقم: ٢٩٥٧، ومسلم بلفظ: «الإمام جنة»، كتاب الإمارة، باب: فِي الْإِمَامِ إِذَا أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ، حديث رقم: ١٨٤١.

٢- يُنظَرُ: فتح الباري، ابن حجر، ١١٦/٦، والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، السيوطي، ٤/٤٥٤.

اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ قُلْتُ وَمَا دَخْنُهُ قَالَ قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتَنْكُرُ قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَنَّهُمْ لَنَا فَقَالَ هُمْ مِنْ جَلَدَتْنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللُّسْتِنَا قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وفي

الحديث إخباراً بما سيكون من حال هذه الأمة، وما سيعصف بها من الفتن والقلاقل، وما سيظهر فيها من أقوام يطلبون الملك لأنفسهم، وقد وصفوا بأنهم دعاة على أبواب جهنم، لكن سبيل النجاة لاحب، وهو لزوم الجماعة والإمام إن وجدوا ذلك، فإن تعذر ذلك اعتزل المسلم الفتنة فراراً بدينه حتى لو كان هذا الاعتزال لا يتأتى إلا بعسر وكدر من العيش<sup>(٢)</sup>. وهذا فيمن أتته الفتنة راغماً مكرهاً، فكيف بمن كان سبباً في إيقادها، أو بوقاً من أبواقها!

وربَّ قائل يقول: كيف يكون الاعتزال حلاً ومخرجاً في عصر الفتن؟ والأصل أن يخوض المسلم الغمرات حتى تُمَحَّصَ الأمور، وينماز الطيب من الخبيث؟ والجواب: أن الرؤية ثلاثٌ وقت الهرج والمرج، والاعتزال أسلم من القتال من أجل أمر لا يتبين وجهه، وربما أفضى إلى قتل الناس برهم وفاجرهم، وإراقة دماء معصومة! فأى مخرج أحفظ للسلام، وأخلص للدمّة، وأرضى للرب، من الفرار بالدين واعتزال الفتن، ولاسيما مع ورود هذا التحذير النبوي في حديث أبي

١ - أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم: ٣٦٠٦، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ١٨٤٧.

٢ - انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٦ / ٤٨٥-٤٨٨.

هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ عَمِيَّةٍ، يَغْضِبُ لِعَصْبَةِ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقَتِلَ جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>.

هذا قليل من كثير، وصبابة من غدیر، وإلا فالأحاديث في وجوب الطاعة للحكام أوفر وأزخر، وليس شرطنا هنا استيفائها بالعد؛ بل حسبنا التمثيل لنماذج صالحة منها لتمهيد الدلالة على أن حق الطاعة مرعي في شرعنا، وذو أثر ملحوظ في حفظ السلم المدني، بالنظر إلى أن الخروج على الإمام، ومنابدته بالسيف، باب شر وفتنة؛ إذ تهيج الدهماء، وتراق الدماء، ويضطرب حبل الأمن، وقد جعل الله تعالى ذود كل صاحب سلطة عن سلطته طبعاً مؤثلاً في الفطر، فإذا نازعته فيها ردك عنها بقوة السيف، وهنا يقع ما يقع من المواجهة بين ولاة الأمر والخارجين، فتضيع مصالح الأمة في خضم الصراع، ويتردى السلم من حلق إلى مهاو لا قعر لها! قال ابن القيم: «ويُنهي عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا ما أقاموا الصلاة، سداً لذريعة الفساد العظيم والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه»<sup>(٢)</sup>. وأي شغوف لهذا الكلام، وكأنني بصاحبه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، فتأمل قوله: «فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه»، فإنه تصوير دقيق لواقع اليوم، وما طم فيه من الفتن التي جرّت من شرور الدمار، والخراب، وتشريد الأسر، ما يربو بكثير على شر المظالم، والله الأمر من قبل ومن بعد.

١ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم ١٨٤٨.

٢ - يُنظر: إغاثة الهفان، ابن القيم، ١ / ٣٦١.



## المبحث الثاني: النصيحة المثلى للحاكم وأثرها في حفظ السلم المدني

إن النصيحة<sup>(١)</sup> لب الدين وجوهر الإيمان، وليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منها<sup>(٢)</sup>، ولقد اضطلع بها الأنبياء - عليهم السلام -<sup>(٣)</sup> وجعلها النبي - صلى الله عليه وسلم - هي الدين كله، فعن تميم الداري - رضي الله عنه -: «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»<sup>(٤)</sup>. كما أن نصحتهم من مقتضيات البيعة، فعن جرير بن عبد الله، قال: «بأيعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على

١- النصيحة: كلمة جامعة معناها إرادة جملة الخير، وحياسة الخير المنصوح له. انظر: شرح الأربعين حديثا النووية، ابن حجر، ص ١١٢.

٢- يُنظر: المنهاج، النووي، ٢/ ٢٢٦، والمرجع السابق.

٣- قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَصْحِكُمْ وَأَعَلَّمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

٤- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم: ٥٥- وبوب البخاري، في الباب ٤٢، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» وذكره، ولم يخرج مسنداً؛ لأنه على غير شرطه ولكن ذكر جملة من الآيات والأحاديث في معناه. انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢٤٦/١-٢٤٧.

وفي معنى الحديث قال ابن حجر في الفتح، ١/ ٢٤٨: «النصيحة لله: وصفه بما هو له أهل، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة في محابته بفعل طاعته، والرغبة من مسأخه بترك معصيته، والجهاد في ردّ العاصين إليه. والنصيحة لكتاب الله: تعلمه، وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة، وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه، وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذنب تحريف المبطلين عنه، والنصيحة لرسوله: تعظيمه، ونصره حياً وميتاً، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبة ومحبة أتباعه، والنصيحة لأئمة المسلمين: إعاتهم على ما حملوا القيام به، وتبنيهم عند الغفلة، وسدّ خلّتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، وردّ القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن. ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد، وتقع النصيحة لهم ببت علومهم، ونشر مناقبهم، وتحسين الظنّ بهم، والنصيحة لعامة المسلمين: الشفقة عليهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم، وتعليمهم ما ينفعهم، وكفّ وجوه الأذى عنهم، وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه» ١.هـ.

إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup>.

ومن النصيحة المطلوبة نصيحة ولاة أمر المسلمين، قال ابن عبد البر - رحمه الله -: «مناصحة ولاة الأمر فلم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها»<sup>(٢)</sup>.

ولمكانة ولاة الأمر في الإسلام لم يجعل الشرع الحنيف مناصحتهم كمناصحة غيرهم، إذ الأصل فيها أن تكون لمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق وحث الناس على ذلك، كما يكون ذلك بحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل، والبغض لمن رأى الخروج عليهم، وحب إعزازهم في طاعة الله عز وجل<sup>(٣)</sup>.

والحق أن النصيحة المثلى للحاكم وسيلة إلى حفظ استقرار المجتمع، وصمّام سلم وأمان، إذ دورها وقائي وعلاجي في الآن ذاته، فهي تدرأ الشر قبل وقوعه، إذا كان الناصح يستشرف مآلات الأمور، ويحرص على قطع ذرائع المفساد المتوقعة استقبالاً، وتسهم في استئصال الشر عند وقوعه، وقطع آثاره، على سبيل العلاج، إذا كان الناصح بصيراً بالمخارج من المضايق. بيد أن للنصيحة آداباً وضوابط ذات أثر ملحوظ في ترسيخ النموذجية المطلوبة في التعامل مع الحكام،

١ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدِّينُ النَّصِيحَةُ اللهُ وَلِرَسُولِهِ وَالْأُمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتُهُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، حديث رقم: ٥٧، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم: ٥٦.

٢ - الاستذكار، ابن عبد البر، ٨ / ٥٧٩.

٣ - ١٩٢-١٩٣

بتصرف.

وهي مدار حفظ السُّلم المدنيّ في العاجل والآجل .

## ١ - الإخلاص في النصيحة وأثره في حفظ السُّلم المدنيّ:

إنّ النّصيحة لولي الأمر لا تكون لطلب جاه، أو شهرة، أو مال؛ بل تكون رجاء ما عند الله من الأجر والثواب، ولا على مشاركة القبول، وفي ذلك يقول الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: «ولا تنصح على شرط القبول منك، فإنّ تعديت هذه الوجوه، فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك، لا مؤدّي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبده»<sup>(٤)</sup>.

ومعلومٌ أنّ من بذل النصح طمعاً في التنبّل، والرّياسة، والصيت الحسن، لا يستغرب منه اتخاذ النصيحة مطيّةً إلى الافتيات على الحاكم، أو الإساءة إليه؛ لأنّ مهيجها هوى النفس، لا طلب الحق، ومن جرى هواه ظلم، وتعدّى، وخرج عن حدود الأدب .

وإنّ مما يُختبر به الإخلاص في النصيحة الإسرار بها للحاكم، وعدم المجاهرة بالتغيير أمام الناس، فعن عياض بن غنم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عِلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ؟»<sup>(٥)</sup>.

٤ - الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ابن حزم، ص ٤٥.

٥ - أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٥٣٣٣، والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: ١٠٠٧، والحاكم في المستدرک، ٣ / ٢٩٠ قال: «صحيح الإسناد» وردّه الذهبي بسبب ابن زبريق، وابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم ١٠٩٦، وقال الهيثمي في المجمع ٥ / ٢٢٩: «رجالهم ثقات إلا أنّي لم أجد لشريح من عياض وهشام سماعاً وإن كان تابعياً»، وصحح إسناده الشيخ الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة، ص ٥١٤، و بين بأن البخاري قد أثبت سماع شريحاً من معاوية، و رد على الذهبي بالمتابعة، وقال في الخلاصة: «فالحديث صحيح بمجموع طرقه والله أعلم».

وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم وحرصوا على الالتزام به، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: قيل له: أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتَكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ: أَتَرُونَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمَعُكُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَحَ أَمْرًا وَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ»<sup>(١)</sup>.

ومقصود أسامة - رضي الله عنه - من قوله: «أَفْتَحَ أَمْرًا، لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَفْتَحَهُ»، المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملاء، لما في ذلك من سوء العاقبة؛ بل المطلوب بهم والنصح لهم سرًا فذلك أجدر بالقبول<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا المهيح سار سلفنا الصالح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلماء الربانيون في معاملتهم لولاة أمر المسلمين<sup>(٣)</sup>.

والإسرار هو دأب العلماء العاملين في النصيحة، فقد قال الإمام الشافعي: «من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وخانه»<sup>(٤)</sup>. وقال الإمام: يحيى بن معين: «ما رأيتُ على رجل خطأ إلا سترته، وأحببتُ أن أزين أمره، وما استقبلتُ رجلاً في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلا تركته»<sup>(٥)</sup>.

وقد وضع ابن رجب الحنبلي ضابطاً دقيقاً للتفريق بين النصيحة والتعبير؛ حيث قال معقّباً على كلمة الفضيل: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير»

١ - أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، بابُ صفة النارِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَسَاقًا، حديث رقم: ٣٢٦٧، ومسلم، كتاب الزهد والرفاق، بابُ عُقُوبَةِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَفْعَلُهُ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَفْعَلُهُ، حديث رقم: ٢٩٨٩، واللفظ له.

٢ - يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٥٣٨ / ٨.

٣ - رواه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٩٤١٥، وحسن إسناده الشيخ ناصر الدين الألباني في ظلال الجنة، ص ٥١٦.

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، ١٤٠ / ٩.

٥ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٨٣ / ١١.

بقوله: «فهذا الذي ذكره الفضيل من علامات النصح، وهو أن النصح يقترن به الستر، والتعبير يقترن به الإعلان»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ السعدي رحمه الله:- «احذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أي: سرًّا بلطف ولين أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت؛ فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص وفيه أضرار أخرى معروفة»<sup>(٢)</sup>.

والذي نستشفه من حرص السنة على الإخلاص في النصيحة، والإسرار بها، أن من وراء ذلك حفظاً لهيئة النظام، وسدًّا لذريعة التحريض على الحاكم، لأن غير المخلص قد يطلب الحكم لنفسه، ويسعى إليه بذريعة النصح، وربما قصد إلى المجاهرة به نفخًا في كير القيل والقال، وتمهيدًا لإساءة الظن في ولي الأمر، فلا يصير للناس من شغل إلا الحديث عن معايبه وأخطائه، وهذا منفذ لتهديد السلم العام، ونشر الفتنة. وقد كان في الإنكار جهارًا على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ما أفضى إلى قتله<sup>(٣)</sup>.

## ٢- اختيار الأسلوب الأنسب لمقام النصيحة وأثره في حفظ السلم المدني:

إن الأصل في أسلوب النصيحة المبذولة للحاكم أن يخلو من التوبيخ والتقريع، كقول: «يا ظالم، يا فاجر»؛ وإلا انجرت من ذلك فتنة أعظم من المنكر<sup>(٤)</sup>؛ ولا نعدم في مظان السنة أحاديث عامة في الحث على الرفق واللطف، فقد قال

١- الفرق بين النصيحة والتعبير، ابن رجب، ٢ / ٤١١.

٢- الرياض النضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ٢٢ / ٩٨-٩٩.

٣- يُنظر: تحقيق مختصر مسلم للمنذري. الألباني، ص ٣٣٥، والهامش: ٢.

٤- يُنظر: الآداب الشرعية، ابن مفلح، ١ / ١٩٦.

النبي - عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»<sup>(١)</sup>. وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»<sup>(٢)</sup>. وإذا كانت هذه الخصلة محمودة في الشأن كله، فتحريها في النصيحة أوجب، لما يترتب على الشدة من عواقب خارمة لأصل الحكمة والإحسان.

ومتى جرى الأسلوب رقيقاً ليناً في مناصحة الحكام، كان ذلك أقرب لقبول الحق، وأبعد عن اللجوج في الباطل، وأحفظ لهيبة الحكم، وآمن من غضب السلطان إذا استشاط، وقد قيل: «إذا استشاط السلطان، تسلط الشيطان»، أي: لم تؤمن عواقب الغضب، والبطش، والضرب على يد المغضب - فرب نصيحة فظة فجأة تؤول إلى خلاف ما يرجى منها، فتندر بالفتنة، وتطرّق سبيلاً إلى البلبل، ولذلك قعد ابن القيم قاعدة في الباب لا أمثل منها ولا أنبل، يقول: «مخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً، ولذلك تجدد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يخاطب رؤساء العشائر والقبائل»<sup>(٣)</sup>.

ومن رائق كلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»<sup>(٤)</sup>، وفي تعبيره عن إبداء النصيح بالإهداء نكتة لطيفة،

- ١ - أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرّض الذمّي وغيره بسبب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصرّح نحو قوله السّام عليك، حديث رقم: ٦٩٢٧، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يردّ عليهم، حديث رقم: ٢١٦٥.
- ٢ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الرفق، حديث رقم: ٢٥٩٣.
- ٣ - بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٠٦١ / ٣.
- ٤ - أخرجه الدارمي، المقدمة، باب رسالة عبّاد بن عبّاد الخواص الشامي، أثر رقم ٦٧٥ - تحقيق: حسين سليم، قال عنه: إسناده ضعيف.

وهي أن الناصح ينبغي أن يكون على أخلاق المهدي لطفًا وأدبًا وذوقًا، فلا يفجج العبارة، ولا يقذع في الخطاب، ولا يكيل الشتائم، وكذلك «كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلاً رحمكم الله»<sup>(١)</sup>.

ويتمهد من هذا أن مسألته الحكام ومعاونتهم على الحق لا تكون إلا بالنصيحة الرقيقة التي تساوق المقام، وتحفظ الأدب، وتمهد لقبول الحق، أما الشدة فتؤول إلى استثارة الحاكم، وتأجيج غضبه، وهذا الأمر له ما بعده، ولا تخرج عاقبته عن تبديد سلك السلم، وفتح باب الافتتان.

### ٣- التثبت من وقوع المنكر وأثره في حفظ السلم المدني:

إن من تثبت الناصح عدم انسياقه وراء الإشاعات والأقاويل التي يتناقها العامة<sup>(٢)</sup>، وهذا ما كان عليه سلف هذه الأمة فيما يأتيهم من أخبار عن ولادة الأمر والحكام، فلما جاء الناس إلى محمد ابن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد، فأبى، فقال له عبد الله بن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب - فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيتته مواظبًا على الصلاة، متحررًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأينا. فقال لهم: قد أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٦]. ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليكَ أمرنا<sup>(٣)</sup>.

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الخلال، ص ٢٥.

٢- يُنظر: ضوابط معاملة الحكام عند أهل السنة وأثرها في الأمة، الظفيري، ٢ / ٥٦٥.

٣- البداية والنهاية، ابن كثير، ١١ / ٦٥٣.

ومن بابه الثبوت أن لا يُنكر على الحاكم إذا كان مستتراً بالمعصية؛ إذ لا يجوز كشف ستره، ولا التفيتش عن ذلك، قال ابن رجب عند شرحه لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا»: «يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فلو كان مستورًا فلم يره ولكن علم به، فالمنصوص عن أحمد في أكثر الروايات أنه لا يعرض له، وأنه لا يفتش على ما استراب به»<sup>(١)</sup>.

ومن ثم فإن اطلاع المغير أو الناصح على المنكر وحده، والعاصي مستتر به، لا يسوّغ له إشاعة ذلك بين الناس؛ بل يجب الستر عن كل مسلم مذنب، والحاكم من باب أولى<sup>(٢)</sup>؛ لأن المصلحة الكبرى في حفظ هيئته، واستقرار حكمه، ولا تقوم للسلم قائمة، وصاحب السلطة مهتضم الجانب، منتقص القدر بين رعيتيه، لا يطيعونه في معروف، ولا يذعنون له في حق.

#### ٤ - مراعاة المآل وأثرها في حفظ السلم المدني:

إنَّ الشرطَ في الإنكارِ على المنكرِ ألا يفضيَ إلى منكرٍ أعظم منه، ووجه اشتراط ذلك أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح<sup>(٣)</sup>، وأن الأمور توزن بمآلاتها وخواتيمها، عن سعيد بن جبير قال: قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ: أَمْرٌ أَمِيرِي بِالْمَعْرُوفِ؟ قَالَ: إِنْ خِفْتَ أَنْ يَقْتُلَكَ فَلَا، [لَا] تُؤَنِّبِ الْإِمَامَ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعْلَمْ:

١ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٦٦٧ - والحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، حديث رقم: ٤٩.

٢ - يُنظر: ضوابط معاملة الحاكم، الظفيري، ٢ / ٥٦٧.

٣ - انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ٤ / ٣٣٨، والقواعد الأصولية المؤثرة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناصر الغامدي، ص ١٢٠.



فَفِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ»<sup>(١)</sup>.

ومن صور النصيحة التي تفضي إلى مفسدة أعظم، الإنكار على الحاكم في المجالس والمنابر والمحافل العامة، والمجاهرة بانتقاده في الخطب والمقالات، فإن ذلك يحطّ من قدره في عيون الناس، ويطمع في حكمه أصحاب الأهواء، ويغري بالخروج عليه، وعواقب ذلك أوخم من كل عيب قد يشينه، أو نقيصة يرمى بها. يقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الانقلابات وعدم السمع والطاعة في المعروف ويفضي إلى الخروج الذي يضر ولا ينفع»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «بعض الناس ديدنه في كل مجلس يجلسه الكلام في ولاة الأمور والوقوع في أعراضهم ونشر مساوئهم وأخطائهم معرضاً بذلك عمّا لهم من محاسن أو صواب، ولا ريب أن سلوك هذا الطريق والوقوع في أعراض الولاة لا يزيد في الأمر إلا شدة فإنه لا يحل مشكلاً ولا يرفع مظلمة إنما يزيد البلاء بلاءً ويوجب بغض الولاة وكراهيتهم وعدم تنفيذ أوامرهم التي يجب طاعتهم فيها»<sup>(٣)</sup>.

ومن ثم لا يراعي مآلات النصيح والإنكار إلا عالم مقاصدي ذو ملكة بالدعوة، وبصر بالمصالح والمفاسد، ولا يتصدّر للإنكار على ولي الأمر جاهل، أو ضعيف الحجة؛ لأنه لا تحصل به الثمرة من الإنكار، ولا يكون له الأثر في إظهار الحق،

---

١ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (واللفظ له)، كتاب الفتن، باب مَنْ كَرِهَ الْخُرُوجَ فِي الْفِتْنَةِ وَتَعَوَّذَ مِنْهَا، برقم: ٣٧٣٠٧، سعيد بن منصور في سننه، حديث رقم رقم: ٨٤٦، والبيهقي، شعب الإيمان، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم: ٧١٨٥، وذكره بهذا اللفظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ص ٦٦٣.

٢ - المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ابن باز، ص ٢٥.

٣ - الضياء اللامع من الخطب الجوامع، ابن عثيمين، ١ / ٢٢٥.

والإقناع به. قال النووي: «ثم إنه يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء»<sup>(١)</sup>.

ويتمهّد من هذه الضوابط كلها في إبداء النصح للحكام وولاية الأمور، أن الأمر فيه إن جرى على الجادة، وأمنت فيه عاقبة التحريض والإثارة، فإنه يكون - أي النصح - ضماناً وثيقاً لاستقرار الحكم، وعدالة الحاكم، ورضا المحكوم، لكن يؤول إلى خلاف ذلك إذا كان سلاح فتنة، وباباً من أبواب الإثارة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إذا ما اختلت الضوابط، وأعوز هذا الميزان الشرعي عند الناصح: «ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر»<sup>(٢)</sup>.

إن السنة الشريفة نزع منزعين في ضبط مناصحة الحكام:

- الأول: منزع مباشر مهّد لضوابط حاسمة للفتنة والاضطراب، كضابط الإسرار بالنصيحة حفظاً للهيبة، وتوقيراً للمقام.
- الثاني: منزع غير مباشر، مهّد لأداب النصيحة ضمن إرشادات عامة، كضابط الرفق واللين الذي يتحرى في الأمور كلها، لكنه في النصيحة للحكام أوجب وأسلم للعاقبة. وقد تضافر المنزعان على صياغة نموذج للإنكار الشرعيّ حافظ للسلم المدنيّ من جهة الوجود والعدم معاً.

**المبحث الثالث: صون هيبة الحاكم وأثره في المحافظة على السلم المدنيّ**

وردت في السنة الصحيحة أحاديث في هيبة الحاكم، وخرجت مخرجين:  
الأول: الأمر بها والحث عليها، والثاني: النهي عما يفضي إلى الإخلال بها،

١ - المنهاج، النووي، ٢ / ٢٣.

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، ص ٥٣.

والحاصل منها جميعاً أنه لا هبة للشرع، ولا استتباب لمصالحه، إلا بأن يكون وليُّ الأمر مهذب الجانب، محفوظ الكرامة، معظماً في نفوس الرعية؛ وكيف يكون له أن يُطاع في معروف أو واجب شرعيٍّ والناس يمشون عليه، ويستجرون عليه، ويثبّطون عنه! قال القرافيُّ: «ضبطُ المصالح العامة واجبٌ، ولا ينضبط إلا بعظمة الأئمة في نفوس الرعية، ومتى اختلفت عليهم، أو أهينوا تعذّرت المصلحة..»<sup>(١)</sup>.

فلا بدع أن يحرص الشارع على هبة الحاكم من جهة الوجود بمباشرة وسائل الصّون والحفظ، ومن جهة العدم بدرء أسباب الإخلال بها، كحرصه عليها من جهة الوقاية بحسم مادة الإهانة قبل وقوعها، وجهة العلاج بقطع صيرورة الإهانة إن وقعت أو استفحلت. وسنعنى في هذه الفقرات ببيان هذا المنحى الشرعيِّ وأثره في حفظ السّلم المدنيّ مع شدّ نطاق ذلك بالتمثيل المناسب.

#### ١ - حسم مادة الإهانة وأثره في حفظ السّلم المدنيّ:

لا امتراء أن إهانة الحاكم إسقاط لهيبته، وإغراء بالخروج عنه، وقد راعت السنة هذا المأل حين حذرت من هذه المخالفة، وجلّت عاقبتها في حديث أبي بكر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>. والحديث يخوّف من استجراً على السلطان بأن يكون الجزاء من جنس العمل، ويقطع ذرائع إهانتته، وإنما يهان بأحد ثلاثة أمور:

#### أ - الطعن والتشهير:

إن من الرعية من يستحلُّ الطعن على الأئمة والتشهير بزلاتهم؛ بدل أن ينتحي سبيل النصح بالرفق، والبيان بالحسنى، وهذا الاستحلال ذريعة شرٌّ وبابُ فتنَةٍ؛

١ - الذخيرة، القرافي، ١٣ / ٢٣٤.

٢ - أخرجه الترمذي، أبواب الفتن، باب، حديث رقم: ٢٢٢٤، قال عنه: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». وقد صححه الألباني في مشكاة المصابيح، ٢ / ١٠٩٢.

لأنّ من المركز في الفطر الاستجاء على المطعون فيه، والاستخفاف بكلامه، ولو عومل الحاكم بمثل هذا لما أطيع له أمرٌ في معروفٍ أو غيره، ولخلع الناس ربة التوقير، وربما اتخذوا طعن الطّاعن ذريعةً إلى الخروج والعصيان. يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - : «.. فإن الذي يهين السلطان بنشر معايبه بين الناس وذمه والتشنيع عليه والتشهير به، يكون عرضةً لأن يهينه الله عز وجل؛ لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور، تمرد الناس عليه فعصوه، وحينئذ يكون هذا سبب شرٍّ، فيهينه الله عز وجل، فإن أهانه في الدنيا فقد أدرك عقوبته، وإن لم يهينه في الدنيا فإنه يستحق أن يهان في الآخرة، والعياذ بالله؛ لأن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم حق: «من أهان السلطان أهانه الله»، ومن أعان السلطان أعانه الله؛ لأنه أعان على خيرٍ وعلى برٍّ، فإذا بيّنت للناس ما يجب عليهم للسلطان، وأعنتهم على طاعته في غير معصيةٍ، فهذا خيرٌ كثيرٌ، بشرط أن يكون إعانةً على البر والتقوى»<sup>(١)</sup>.

وإنما كان كبار الصحابة ينهون عن سبّ الأمراء التفاتاً إلى المآلات والعواقب التي حذر منها ابن عثيمين، فقد أوتوا استبصاراً بما يؤول إليه السبُّ من إهانة للمصالح العامة، وإشاعة الفتن والقلال، وهم أهل المقاصد، وأصحابُ الخطوة بالقرب من الوحي، قال أنس رضي الله عنه: «كَانَ الْأَكْبَرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَوْنَا عَنْ سَبِّ الْأُمَرَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وقال أبو إسحاق السبيعي: «مَا

١ - شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٣ / ٦٧٣.

٢ - رواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن وغوائلها وأشرار الساعة، باب النهي عن الخروج على الأئمة والأمراء وخلعهم وسبهم والطعن عليهم وما جاء في التغليظ في ذلك، حديث رقم: ١٤١. تحقيق: المباركفوري، قال عنه ٢ / ٤٠١: «أخرجه ابن حبان في الثقات ٥ / ٣١٤-٣١٥، عن محمد بن أحمد الشطوي، عن أبي هشام الرفاعي به مثله، وهو موقوف، وإسناده صحيح».

سَبَّ قَوْمٌ أَمِيرَهُمْ إِلَّا حُرْمُوا خَيْرَهُ»<sup>(١)</sup>. وقوله غايةً في البصيرة والشفوف؛ لأنه يجري مجرى النظر المألّي، ويلاحظ معنى الفطرة المركوز في طبائع البشر، فما من رجل يُطعن فيه إلا وتحركت نفسه للانتقام من الطاعن، وحجب الخير عنه، وكذلك الأمير المطعون فيه يمنع خيره عن الطاعنين انتصافاً لنفسه وكرامته.

لقد كانت هذه السنن والآثار نصب عين ابن جماعة، فاستخلص نخبتها في كلمة جامعة مانعة في حقوق الأئمة: «أن يعرف له عظيم حقه، وما يجب من تعظيم قدره، فيعامل بما يجب له من الاحترام والإكرام، وما جعل الله تعالى له من الإعظام، ولذلك كان العلماء الأعلام يعظّمون حرمتهم، ويلبون دعوتهم، مع زهدهم وورعهم فيما لديهم، وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من قلة الأدب معهم فليس من السنّة»<sup>(٢)</sup>.

## ب- النصح العلني:

إن مما يسقط هيبة الحاكم، ويجرئ الناس على عصيانه، نصحه علانيةً والناس يسمعون، وهذه مخالفة صريحة للحديث الصحيح المرفوع: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبَدِّ لَهُ عِلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ؟»<sup>(٣)</sup>. وهذا التوجيه النبوي في مناصحة الحكام يسدّ

١- رواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن وغوائلها وأشراف الساعة، باب النهي عن الخروج على الأئمة والأمراء وخلعهم وسبهم والطعن عليهم وما جاء من التغليب في ذلك، حديث رقم: ١٤٦- تحقيق: المباركفوري، قال عنه ٢/ ٤٠٥: «هو مقطوع، لأنه من كلام أبي إسحاق، وقد ورد النهي عن سب الأئمة في حديث مرفوع عن أبي أمامة، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٥٨ رقم ٧٦٠٩ بلفظ: «لاتسبوا الأئمة، وادعوا الله لهم، فإن صلاحها لكم صلاح».

٢- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ابن جماعة، ص ٦٣.

٣- أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٥٣٣٣، والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: ١٠٠٧، والحاكم في المستدرک، ٣/ ٢٩٠ قال: «صحيح الإسناد» ورده الذهبي بسبب ابن زريق، وابن أبي عاصم في السنّة، حديث رقم ١٠٩٦، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٢٩: «رجاله ثقات إلا أني لم أجد =

الذريعة إلى إهانتهم والوثوب عليهم؛ وصرف الوجوه عنهم؛ ذلك أن النصح على رؤوس الملاء فضيحةٌ ونشرٌ للمعايب وضرب من الطعن المغلف. قال ابن رجب الحنبلي تعليقا على حديث النصيحة: «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وتذكيرهم، وتنبههم في رفق، ومجانبة الوثوب عليه، والدعاء لهم بالتوفيق»<sup>(١)</sup>.

وإن النصح الرفيق في خلوة دأب من يلتمس العذر للحاكم، ويحمل هفوته على أحسن المحامل، ذلك أنه يكابد ما يكابد من انتشار الأمور عليه، وتراحم الأعباء، «واستتلاف الأعداء، وإرضاء الأولياء، وقلة الناصح، وكثرة المدلس والطامع»<sup>(٢)</sup>.

### ج - التشبيط والإثارة:

إن التشبيط عن الحاكم والإثارة عليه، بأن يُحرَّض الناس على مخالفة أمره والصدُّ عن معونته، جرمٌ مسقطٌ للهيبة، ومحدثٌ للفتنة، ومهدرٌ لمصالح الناس، وقد أوجب الشوكاني التأديب عليه حين قال: «ويؤدَّب من يثبُّ عنه، فالواجب دفعه عن هذا التشبيط، فإن كفَّ؛ وإلا كان مستحقاً لتغليظ العقوبة، والحيلولة بينه وبين من صار يسعى لديه بالتشبيط بحبس أو غيره؛ لأنه مرتكبٌ لجرم عظيم، وساع في إثارة فتنة تراق بسببها الدماء، وتهتك عندها الحرم، وفي هذا التشبيط نزعٌ ليدِّه من طاعة الإمام»<sup>(٣)</sup>.

---

= لشريح من عياض وهشام سماعاً وإن كان تابعياً»، و صحح إسناده الشيخ الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة، ص ٥١٤، و بين بأن البخاري قد أثبت سماع شريحاً من معاوية، و رد على الذهبي بالمتابعة، وقال في الخلاصة: «فالحديث صحيح بمجموع طرقه والله أعلم».

١ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.

٢ - سراج الملوك، الطرطوشي، ١ / ٢٠١.

٣ - السيل الجرار، الشوكاني، ٣ / ٧٠٨.

## ٢- مباشرة وسائل التوقير وحفظ الهيبة وأثرها في حفظ السلم المدني

إذا كانت السنّة الصّحيحة قد سدّت الذرائع إلى إهانة الحكام من باب الوقاية والتحوّط، وهذا حفظٌ من جهة العدم، فإنها حثّت على مباشرة وسائل التوقير وتثبيت أركان الهيبة، وهذا حفظٌ من جهة الوجود، وهذا الضرب الثاني يشهد له حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً: «خَمْسٌ مَنْ فَعَلَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ، أَوْ خَرَجَ غَازِيًا، أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامِهِ يُرِيدُ تَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَسَلِمَ النَّاسُ مِنْهُ وَسَلِمَ مِنَ النَّاسِ»<sup>(٤)</sup>. ويؤخذ من الحديث أن من قام بواحدة من هذه الحسنات، فله ضمانٌ من الله عز وجل بالمغفرة والثواب، ومنها توقير الإمام وتعزيره، فكل من باشر وسيلةً إلى هذه الحسنات، فهو داخلٌ في الضمان، ومن الوسائل المنجحة لهذا الغرض:

- ١- الكلام عن الحاكم بما يجلي للناس محاسنه وفضائله دون تزيّد أو مغالاة؛ لأن في ذلك ترغيباً في طاعته، وتشجيعاً على معونته في المعروف.
- ٢- توعية الناس بما يجب للإمام من آداب التوقير والتبجيل، وما يترتب على مخالفتها وتنكّبها من عواقب وخيمة.
- ٣- توعية الحاكم - برفق ولين وأدب جمٍّ وبصورة انفرادية لا علنيّة - بكل ما من شأنه التمكين لهيبته وتوقيره.
- ٤- إنجاز بحوث ودراسات في موضوع هيبة الحاكم، وآدابها، وخوارمها، ومقاصدها في السياسة الشرعية.
- ٥- إقامة صور الحاكم وتفخيمها؛ لأن أحوال الأئمة وولاة الأمور تختلف بحسب

٤- أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم: ٨٥٣، وصححه الألباني في ظلال الجنة، ٢ / ٤٩٠.

الأزمة، والأمكنة والأعراف، فقد يحتاجون إلى سياسات، وزخارف، وهيئات، لم تكن معهودة في السابق، وربما وجب ذلك تبعاً للمقصود. وإذا كان هذا الإجراء مخالفاً لهدي الصحابة وعمل السلف الصالح، فإنه حامل على تعظيم الولاية في النفوس، وسبب في تقوية شوكتهم، وسبيل إلى طاعتهم في المعروف. وقد كان الناس في عصر الصحابة يعظمون بسبق الهجرة، ومثانة الدين، وصلاح العمل، وسعة العلم، فولى هذا الزمان، وأظلل زمان التعظيم بالزخارف، والأشكال، والمظاهر، وكان لا بد من مواكبة هذا التغيير الزمني بإقامة الصور وتفخيمها جلباً للمصالح المرجوة من وراء ذلك، ولوسائل أحكام المقاصد، وهذا المعنى كان نصب عين القرافي حين قال: «المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاية في نفوس الناس، وكان الناس في زمن الصحابة رضي الله عنهم، معظم تعظيمهم بالدين وسبق الهجرة، ثم اختل النظام وذهب ذلك القرن، وحدث قرن آخر لا يعظمون إلا بالصور، فتعين تفخيم الصور حتى تحصل المصالح»<sup>(١)</sup>.

### ٣- حفظ هيبة الحاكم صمام الأمن والأمان:

إذا كان الحاكم مهاب الجانب، محشوم المقدار، بعيداً عن أسباب الإهانة والاهتزام، فإنه يطاع في الأمر والنهي، وتُستوفى به المصالح الشرعية، وينتظم أمر الخلائق؛ لأن الهيبة، ها هنا، وسيلة إلى استتباب الطاعة، ومكمل لنظام الحكم، والمكمل يدور على مكمله بالتتميم والتمكين والحفظ. وكيف يُتصور أن يقيم الحاكم الحدود، ويردع البغاة، ويذود عن بيضة البلاد، إذا لم يكن ممن يُخاف غضبه وتُخشى سطوته؛ ولذلك اشترط فقهاؤنا فيمن يتولى ولاية المظالم: «أن يكون عظيم الهيبة»<sup>(٢)</sup>.

١- الفروق، القرافي، ٤/ ٣٠٦.

٢- الأحكام السلطانية والولاية الدينية، الماوردى، ص ٩٧.



وكلما فسد الزمان، وقلّت الديانة، واستجرأ الناس على الحدود إلا وكانت الهيبة أتمّ، والرهبنة أشدّ، وربما بالغ من بالغ من الحكام في إقامة الناموس والهيبة، بضرب البوقات، ورفع السناجق، وخفق الألوية فوق رؤوسهم، التفاتاً لفساد الزمان، واستجراء الناس، وزماننا «هذا زمان السفهاء والأشقياء، وإذا كان السلطان، والعياذ بالله، بينهم ضعيفاً، أو كان غير ذي سياسة وهيبة، فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد، وأن الخلل يعود على الدين والدنيا»<sup>(١)</sup>.

فالسُّلم المدنيّ في كل مجتمع منوطٌ إذاً، بإقامة الناموس والهيبة؛ إذ لا سلم إلا بتطبيق الحدود، ورفع المظالم، وقمع الفتن، وحقن الدماء، وحفظ الأموال، وصدّ الأعداء، ولا سبيل إلى استيفاء هذه الفروض، وضبط أزمة الحكم، إلا بشوكة الحاكم وهيبة الدولة، «ولو ترك الأمر لكل أحد لأصبحت الأرض رجراجة، والبلاد متكفئة، والدماء رخيصة، ولتسلط القوي على الضعيف، ولخربت الأوطان، وحل الدمار»<sup>(٢)</sup>.

ويعدّ محمد بن صالح العثيمين من العلماء المعاصرين الذين استثاروا بوجوده فقههم البعد الأمني لحفظ الهيبة حين قال: «إذا حاول أحد أن يقلل من هيبة العلماء وهيبة ولاية الأمور؛ ضاع الشرع والأمن؛ لأن الناس، إذا تكلم العلماء، لم يثقوا بكلامهم، وإن تكلم الأمراء؛ تمرّدوا على كلامهم، وحصل الشرّ والفساد»<sup>(٣)</sup>.

فلا بدع أن تكون الثغرة الأمنية التي يثغرها الإخلال بالهيبة في بنيان الدين والنظام، هي المقصودة في الحديث الصحيح: «سَيَكُونُ بَعْدِي سُلْطَانٌ فَأَعَزُّوهُ».

١- الدرّة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء، الخيريّتي، ص ٢٢٤.

٢- هيبة الدولة واجب ديني وضرورة دنيوية، العنزّي، ص ٤.

٣- حقوق الراعي والرعية، ابن عثيمين، ص ٣٠، وانظر نحو هذا الكلام، مجموع الفتاوى والرسائل لابن عثيمين، ٢١ / ٤٣.

مِنَ التَّمَسِّ ذُلَّهُ تَغَرُّغُورَةً فِي الإِسْلَامِ ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَةٌ حَتَّى يُعِيدَهَا كَمَا كَانَتْ»<sup>(١)</sup>.

## الخاتمة

بعد هذا البيان الموجز لرعاية حقوق الحاكم في السنة النبوية وأثرها في السّلم المدنيّ أسجل النتائج الآتية:

- ١- السّلم المدنيّ لا يستقيم عوده ولا يستقر عموده الا بتضّافر الجهود، بين حاكم نصب عينه إن الله سائل كل راع عم استرعاه، ورعية تؤمن بأن طاعة ولي الأمر في المعروف لا يقل أهمية عن أي عبادة من العبادات الأخرى.
- ٢- الحاكم هو صمام أمان الأمة الإسلامية، وعليه فطاعته فيما لا مخالفة فيه لنص قطعي أو أمر مجمع عليه واجب شرعي، يجلب للأمة أمنها واستقرارها.
- ٣- النصيحة واجب شرعي كما ثبت ذلك بنص حديث النبي صلى الله عليه وسلم للحاكم والمحكوم، ولكن على العلماء أن يحذوا حذو سلف الأمة في بيانها ولا يتركوا المجال لحدثاء الأسنان أن يتبوؤوا منصات النصيح فيفسدوا أكثر مما يصلحوا.
- ٤- من أهم مقومات السّلم المدنيّ صون هيبة الدولة في نفوس الناس الذين تحكمهم تلك الدولة، ولا هيبة للدولة بدون هيبة الحاكم؛ لأنه ظل الأمة وصمام أمنها، والاستجراء عليه استجراء على النظام وتضييع للمصالح.

١- رواه ابن أبي عاصم في السنة، برقم: ١١١٣، وصحح إسناده الألباني في ظلال الجنة، ٢/ ٥٠٥.

## ثبت المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية والولاية الدينية. الماوردي، علي بن محمد. بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، بدون رقم ولا تاريخ.
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس. ابن حزم، علي بن أحمد. بيروت - لبنان، دار الآفاق الجديدة، ط ٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- الآداب الشرعية. ابن مفلح، عبد الله بن محمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام، الرياض - السعودية، دار الملك عبد العزيز، ط ٤، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- الاستذكار. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. تحقيق: مشهور حسن، الرياض - السعودية، دار ابن الجوزي، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم. السبتي، القاضي عياض. تحقيق: يحيى إسماعيل. المنصورة - مصر، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- الأمر بالعرف والنهي عن المنكر. الخلال، أبو بكر أحمد بن محمد. تحقيق: يحيى مراد، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. الضاحية - الكويت، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ط ١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- البداية والنهاية. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. تحقيق: عبد الله التركي، الرياض - السعودية، دار عالم الكتب، ط ٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- بدائع الفوائد. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. تحقيق: علي بن محمد العمراني، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط ٣، ١٤٣٣هـ.

- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام. ابن جماعة، محمد بن إبراهيم. تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الدوحة- قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ط ٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- تحقيق مختصر صحيح مسلم للمنزري. الألباني، ناصر الدين. بيروت- لبنان، الكتب الإسلامي، ط ٦، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- التعليق على صحيح مسلم. عبد الباقي، محمد فؤاد. القاهرة - مصر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة. القلعي، محمد بن علي. تحقيق: إبراهيم يوسف عجو، الزرقا- الأردن، مكتبة المنار، ط ١-
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. ابن رجب، عبد الرحمن بن شهاب الدين. تحقيق: د. ماهر الفحل، الرياض - السعودية، دار السلام للنشر والتوزيع، ط ١١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل. السندي، محمد بن عبد الهادي. تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله، الرياض- السعودية، دار المأثور للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ.
- حقوق الراعي والرعية. ابن عثيمين، محمد بن صالح. السعودية- الرياض، مطبعة سفير.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. القاهرة - مصر، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- الدرر الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء. الخيري، محمود بن إسماعيل. الرياض- السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- الدرر السنية في الأجوبة النجدية. ابن القاسم، عبد الرحمن بن محمد. ط ٥، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: أبو إسحاق الحويني، الخبر - السعودية، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- الذخيرة. القرافي، أحمد بن إدريس. تحقيق: محمد حجي وآخرون، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤م.
- الرياض النضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. ابن سعدي، عبد الرحمن. ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الدوحة - قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- سراج الملوك. الطرطوشي، أبوبكر محمد بن الوليد. تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، القاهرة - مصر، دار الكتب المصرية اللبنانية، ط ١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- سير أعلام النبلاء. الذهبي، أحمد بن محمد بن عثمان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٥م.
- السيل الجرار. الشوكاني، محمد بن علي. تحقيق: محمد صبحي حلاق، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، دار ابن كثير، ط ٤، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
- شرح الأربعين حديثاً النووي. ابن حجر، أحمد بن علي. تحقيق: رياض منسي وعبد القادر مصطفى، عمان - الأردن، دار الفتح، ط ١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.
- شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين، محمد بن صالح. الرياض - السعودية، دار الوطن، ١٤٢٦هـ.
- ضوابط معاملة الحكام عند أهل السنة وأثرها في الأمة. الظفيري، خالد ضحوي. المدينة المنورة - السعودية، الجامعة الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- الضياء اللامع من الخطب الجوامع. ابن عثيمين، محمد صالح. الرياض - السعودية، مكتبة السوادي للتوزيع، ط ٨، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

- ظلال اللجنة في تخريج السنة. الألباني، ناصر الدين. بيروت - لبنان، المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر، أحمد بن علي. تحقيق: نظر الفاريابي، الرياض - السعودية، دار طيبة، ط ٤، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- الفتوى الحموية الكبرى. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. تحقيق: حمد التويجري، الرياض - السعودية، دار الصميعي، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- الفرقين النصيحة والتعير. ابن رجب، عبد الرحمن بن شهاب الدين. ضمن مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق طلعت الحلواني، القاهرة - مصر، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٠م.
- الفروق. القرافي، أحمد بن إدريس. تحقيق: عمر القيام، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- فقه إنكار المنكر. البشر، بدرية بنت سعود. الرياض - السعودية، دار الفضيلة، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- القواعد الأصولية المؤثرة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الغامدي، ناصر بن علي. الرياض - السعودية، الدرر السنية، ط ١، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.
- مجموع الفتاوى والرسائل لابن عثيمين. ابن عثيمين، محمد بن صالح. جمع فهد السليمان، الرياض - دار الوطن، ط الأخيرة، ١٤٣١هـ.
- معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة. ابن برجس، عبد السلام. عجمان - الإمارات العربية المتحدة، مكتب الفرقان، ط ٦، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
- المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم. ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. طبعة مؤسسة الشيخ ابن باز الخيرية، ص ٢٥ -
- المفهوم لما أشكل من تخلص كتاب مسلم. القرطبي، أحمد بن عمر. تحقيق: محي الدين مستو وآخرون، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، دار ابن كثير، ط ٦، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. النووي، محي الدين يحيى. بيروت - لبنان، دار المعرفة، ط ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩ م.
- هيئة الدولة واجب ديني وضرورة دنيوية. العنزي، عزيز بن فرحان. دبي، منشورات جمعية دار البر الخيرية ط / ٢٠١٥.





الجلسة الختامية  
كلمة الأمين العام  
التوصيات



## كلمة الأمين العام للندوة الأستاذ الدكتور حمزة عبدالله الملباري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد:

فيسعدني أن أقف هنا للتعبير عن الشكر والتقدير مع التقييم الموجز نيابة عن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في مناسبة اختتام فعاليات الدورة الثامنة، التي تكتسي أهميتها من خلال موضوعها، وهو: السلم المدني في السنة النبوية مقوماته وأبعاده الحضارية.

إن الأبحاث التي تُقدّم في الجلسات العلمية لهذه الدورة مع تفاوتٍ مستوياتها في الجودة والأصالة، تتواطأ على أن السلم والتعايش والرفق من أساسيات الإسلام، وأن عقائده وأحكامه، وأذكاره، وأدعيته، وعقوباته تتّجه نحو ترسيخ السلم بين أفراد المجتمع البشري ككلّ.

ولا يخفى على حَصَافَتِكُمْ أن من تتبّع الهدى النبويّ وتصاريفه يلاحظُ أن السلم المدنيّ كان نزوعاً فطريّاً عند نبينا صلى الله عليه وسلم، وخياراً استراتيجياً مقدّماً في مرحلتي الضعف والتمكين معاً؛ ففي المرحلة المكية تحمّل صلى الله عليه وسلم، طوال عشر سنوات، صنوفاً من الأذى، والاضطهاد، وآثر الهجرة إلى المدينة باعتبارها قراراً سلمياً ينبذُ العُنفَ والصّدَامَ.

وفي الفترة المدنية، تابعت الإجراءات السلمية النبوية حياةً للدولة المسلمة، وتحصيناً لها من دواعي الفرقة؛ فنزع النبي صلى الله عليه وسلم فتيل الخصومة بين قبيلتي الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وأنشأ وثيقة المجتمع المدنيّ، وحدّد معالم حرم المدينة، وتوعّد المعتدي عليها، بأشدّ العقوبات، حين

قال: الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدِّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَدْلٌ وَلَا صَرْفٌ.

وأما ما ثبت من العقوبة الشديدة في حق المعتدين على رعاة إبل الصدقة، فيدور في فلك مواجهة السلوكات المهددة لأمن المدينة واقتصادها، ولا متعلق فيه للمعرضين الذين يتخذون من هذا الحدث الذي لم يتكرر ولم يحدث إلا مرة واحدة، مطيةً للدِّمغِ بالعنف والشدة.

ولا شك أن سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم سجلٌ حافلٌ بأدبيات السلم وأخلاق السماحة، أو لم يكن صلح الحديبية خطوةً نبويةً نموذجيةً لتجدير السلوك السلمي، وتفعله في حياة المجتمع المدني الناشئ.

ولما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة لم يُفتن بحماسة النصر عن رحمة القائد المتشعب بروح السلم، فقال مخاطباً سعد بن معاذ لما سمع قوله: اليوم يوم الملحمة: (بل اليوم يوم الرحمة).

وإذا كان من ديدن بعض الفاتحين المظفرين قهر المغلوب واستفزازة، فقد كان للرسول يوم الفتح شأن آخر، يدل على نزوعه السلمي الراسخ، وإيثاره الرحمة على الفظاظ، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، ولا أبلغ وأجمع في تصوير هذه الحقيقة من قوله صلى الله عليه وسلم: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

إن هذا الهدى النبوي في إثارة الخيار السلمي، واستثماره في مراحل الدعوة وأطوار بناء الدولة، لهو المعين الصافي الذي ينبغي أن يستقي منه المنظرون للسلم المدني أفكارهم ومنازعتهم في نبذ العنف والتطرف، وإطراح أولوية المواجهة والصدام.

وأخيراً أتمثل بقول أحد الباحثين في هذه الندوة، وفيه بلاغٌ أيُّ بلاغٍ: «إنَّ السلم فرض إلى يوم القيامة».

أيها الأخوة والأخوات:

لا يسعني إلا أن أسجل نيابة عن الأمانة العامة آيات الشكر والتقدير والعرفان للسيد جمعة الماجد، مؤسس الكلية ورئيس أمنائها الذي لولا دعمه وتشجيعه، بعد توفيق الله وفضله ومنه، لما كان لهذه الندوة استمرارٌ وذيوعٌ سمعة طيبة في الأوساط الأكاديمية.

ثم أتوجه بالشكر والتقدير إلى سعادة الدكتور محمد عبد الرحمن مدير الكلية لدعمه المتواصل ومتابعته الحثيثة، التي أتت أكلها في تجويد عمل الأمانة العامة، ودفعه نحو الأفضل.

كما أسجل شكري وتقديري لكل من أعان الأمانة العامة على إنجاح هذه الندوة من الشريك الإعلامي والرعاة والباحثين والمعقبين، وشكري موصول إلى جميع اللجان الفرعية والمتطوعين الذين اضطلعوا بدور بالغ في المتابعة والتنظيم والتنسيق، ويشرفني أن أخص بالذكر العنصر النسوي الذي ترك بصمة جميلة في تاريخ الندوة، وبذل كنه جهده في إنجاحها.

وإلى جميع هؤلاء المتعاونين أقول اعترافاً بالجميل، وإقراراً بالفضل..

طوبى لكم بهذا الجهد، وطاب غرسكم في الدنيا والآخرة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## قراءة التوصيات - أ.د. أبو بكر كافي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين واله وصحبه والتابعين، وبعد:

فمن خلال ما تم عرضه ومناقشته من أبحاث علمية متخصصة، وبعد اجتماع الأمانة العامة لندوة الحديث النبوي الشريف، في دروتها الثامنة والتي وسمت بـ: (السلم المدني في السنة النبوية مقوماته وأبعاده الحضاري) تم الانتهاء إلى جملة توصيات، من أهمها:

- ١- الاهتمام بالدراسات المنهجية التي تعرف بالمشترك الحضاري وذلك من خلال السنة النبوية، ليمثل أساساً للوحدة الإنسانية بما يعزز قيم السلم المدني في المجتمعات.
- ٢- بناء استراتيجية فكرية متكاملة لنشر قيم السلم المدني وترسيخ آليات تنفيذه.
- ٣- تعزيز الوعي الفردي والجماعي بمفهوم السلم المدني ومقاصده، وأهدافه الإنسانية الحضارية، وتحويله إلى ثقافة وممارسة مجتمعية.
- ٤- عقد المؤتمرات الدولية واقامة المؤسسات العالمية التي تدعو لتأسيس قيم السلم المدني من منظور إسلامي.
- ٥- ترسيخ دور المحاضن التربوية والتعليمية والإعلامية في غرس قيم السلم المدني وفق تعاليم السنة النبوية.
- ٦- إنشاء موسوعة علمية في السنة والسيرة النبوية متعلقة بالسلم المدني ومهدداته، والإجابة عن إشكاليات الفهم والتطبيق.
- ٧٦- ضرورة الاهتمام بالتكامل المعرفي في الدراسات الشرعية المتعلقة بالسنة

النبوية في القضايا المعاصرة وبخاصة قضايا السلم المدني .

وختاماً:

فإن الأمانة العامة تتقدم بالشكر الوافر والامتنان لمعالي جمعة الماجد، رئيس مجلس أمناء الكلية ومؤسسها وراعي الندوة المباركة على جهوده المبذولة في خدمة السنة النبوية ونشرها والذب عنها.

كما تتقدم بشكرها الجزيل إلى سعادة مدير الكلية الدكتور محمد عبدالرحمن على اهتمامه ومتابعته الدؤوبة لسير أعمال الندوة وتذليل الصعاب التي واجهتها في جميع مراحل الإعداد لها.

والشكر موصول إلى جميع اللجان العاملة: أساتذة، وإداريين وطلاب على جهودهم المميزة في التنظيم والأعداد لهذه الندوة.

ولا يفوتنا أن نشيد بحكومة دبي الرائدة على التسهيلات المقدمة وكرم الضيافة، وبالرعاة الذين ساهموا في رعاية الندوة وانجاحها، بدعمهم المادي والمعنوي.

والحمد لله رب العالمين

